محمد بن أحمد العقيلي

مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ/١٩٨٤م

الناشر
نادي أبها الأدبي

محمد بن أحمد العقيلي

مُذكرات سليمان شفيق باشا مُتصرف عسير

الناشر
نادي أبها الأدبي

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ/١٩٨٤م

دار البلاد للطباعة والنشر
جــــدة

هذه المذكرات

منذ أن تأسس النادي وهو يحرص أشد الحرص على توفير المصادر التاريخية التى تعنى بتاريخ المملكة بوجه عام وهذه المنطقة على وجه الخصوص - وعندما آثرنا الأستاذ البحاثة : « محمد أحمد العقيلي » بهذه المذكرات التى سلط الأضواء على حقبة من ماضى « منطقة عسير » كانت سعادتنا غامرة لأننا بإصدارها نحقق جزءا من اهداف النادي .. ونقدم لأجيالنا الحاضرة والقادمة صورة لما كان عليهم أجدادهم ليقارنوا بينها وبين ما أنعم الله عليهم وعلى الجميع من معطيات الخير والاستقرار والازدهار .

إدارة النادي



الناشر

نادي أبها الأدبي

المملكة العربية السعودية ص.ب ٤٧٨
ت/ ٧٢٧٥/٤٢١٠ "٢٢٤"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دعيت من جامعة الرياض لحضور ندوة الأدب الشعبى التى أقيمت من ٣ - ٩٩/٦/٥ والتقيت هناك بأستاذنا علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر ، وزرته فى داره العامرة للاستفادة والاستزادة من علمه وفضله ، وكان يجرى الحديث طلقا حول العلم والآداب والنظريات الحديثة والنقد والآثار ، فاقترح حفظه الله أن أقوم بنقل مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير وقائدها العسكرى من سنة ١٩٠٨ - ١٩١٢ م وشرحها ، وهى من أترع سنوات التاريخ بالأحداث بالنسبة الى عسير وما حولها ، والمخلاف السليمانى - منطقة جازان حاليا .[١]

فى تلك الفترة كان قيام الإدريسى بثورته ، وقيام الحسين بن علي بإمارة مكة المكرمة ، وما كان يداعب آماله من آمال تتجاوز الحجاز إلى غيرها .

والجمعيات السرية والعلنية العربية التى تعمل لاستقلال أمتها ، والقتال فى نجد بين أميرها المتطلع لأمجاد أسرته واستعادة دولتهم وأمير حائل حليف الاتراك ، وإعداد الحكومة الايطالية لغزو طرابلس ليبيا ، سياسيا واجتماعيا وإعلاميا وحربيا ، ومنها اتفاقهم مع الأدريسى الذى كان فى مصر للعودة الى مسقط رأسه ، والقيام بحركة مناوئة للدولة العثمانية كجبهة جانبية تخفف الضغط عن الجبهة الرئيسية التى تعد لها ، ولإشغال الأتراك بحركة وثورة جانبية فى جهة أخرى غير الجهة المقصودة .

يضاف إلى ذلك التذمر الحاصل من أبناء الأمة العربية من جمعية تركيا الفتاة وحكومتها التى تدعو الى الجامعة الطورانية بدلا من الجامعة الاسلامية ، ومطامع الدول الأوروبية فى تركة الرجل المريض - الامبراطورية العثمانية - وتحفزها لتقسيمها .

---

(١) ملاحظة : بحكم تركية سليمان باشا أورد أسماء بلدان منكرة وهى معرفة مثل « النماص » ، « الزهرة » وغيرها كما أن اسم بلدة محائل كتبها « محائيل » وقد صححنا ذلك لهذا جرى التنويه .

وثورة حوران فى سوريا ، وثورة الإمام يحيى فى اليمن . كل تلك الأمور مجتمعة مع أسبابها ومسبباتها وأنشطتها ومضاعفاتها جعلت تلك الحقبة حافلة بالأحداث متوترة بالتحفزات .

ولما سبق ، فان لمذكرات سليمان شفيق بالنسبة الى وسط وجنوب المملكة أهميتها التاريخية والسياسية ، لقد نشرت حلقات من تلك المذكرات فى جريدة « الأهرام » قبل ما ينوف على ثلاثين سنة [1] ، ولم يكن للمملكة هذه النهضة العلمية والفكرية والصناعية والوعى المتقد ، بل لم يكن للأمة العربية هذا الشأن المهم والدور الأهم فى الأحداث العالمية ولم يبلغ التعليم والوعى ما بلغه الآن .

يضاف أنه لم يعلم عن نشرها الاّ قلة واعية ، ومع طول المدة انتسى ذكرها وخفى أمرها ، حتى أتاح الله لها أستاذنا الجاسر حفظه الله ورعاه وهو من أوقف حياته الحافلة للعلم والبحث والاستقراء لكل ما يهم الجزيرة العربية وأبناءها على وجه الخصوص ، والأمة العربية على وجه العموم ـ فكريا وتاريخياً .

كان من جملة اهتماماته الرفيعة الحصول على تلك المذكرات لدى الشيخ محمد حسين نصيف ، لما بلغه أنها لديه ، فلم يجدها ، وقام كما هى عادته بالبحث الجاد فى الحصول على جذاذاتها لدى معالى الأستاذ الكبير المرحوم خير الدين الزركلى ، فنشرها أستاذنا الجاسر مشكورا فى مجلة العرب ، فقرأناها طلية مفيدة جديدة ولولاه لما اطلع عليها من اطلع ، ولما احتلت مكانها فى المكتبة العربية .

وكاقتراحه وعملاً برغبته فقد قمت بتجميع ما بحوزتى من أعداد مجلة العرب ونسخ المذكرات وترتيبها بحسب تدرج الوقائع ، وقمت بتصحيح الأسماء وبعض الحواشى والملاحظات فى أواخر الصفحات ، والفضل بعد الله سبحانه وتعالى يعود لإرشاد وتوجيه أستاذنا الجاسر . أما ترجمة صاحب المذكرات فقد كفانا أمرها أستاذنا الجاسر فى مقدمتها التى صَدَّرَ بها حلقات المذكرات وأسأل الله التوفيق .

جازان ـ محمد بن أحمد العقيلى

(١) هذا بالنسبة الى نشرها فى مجلة العرب الغراء اما بالنسبة الى قيامى بالتحقيق والتعليق والنشر فيكون مضى على ذلك ستون سنة تقريبا .

بلاد العرب

فى مذكرات سليمان شفيق كمال باشا
بقلم علامة الجزيرة أستاذنا الشيخ حمد الجاسر

صاحب المذكرات :

صاحب هذه المذكرات من كبار رجال الدولة العثمانية ، وكان وزير حربيتها فى آخر عهدها ، وقد تولى أعمالا مهمة فى البلاد العربية ، مذكورة فى مقدمة هذه المذكرات التى تدل على أنه كان بعيد النظر فى مستقبل العرب وكثير الإخلاص لهم ، وقوى الصلة بأمير نجد فى ذلك العهد ، الملك المغفور له عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وقد توقع بأن أفعاله وحركاته تنم عن بداية انقلاب مهم سيحدث فى الجزيرة ، وهكذا كان . ولا نعرف عن حياة صاحب هذه المذكرات أكثر من أنه اتصل بالملك عبد العزيز ـ رحمه الله بعد استيلائه على الحجاز ، وأنه أسند إليه بعض الأعمال فى الحكومة الجديدة ويظهر أنه فضل الاقامة فى مصر ، حيث حدثنى أستاذنا أبو الغيث الزركلى بأن قلينى باشا أحد أثرياء مصر فى ذلك العهد ، تزوج ابنة صاحب المذكرات وكانت بارعة الجمال .

وسمعت من الدكتور رمزى ـ مدير الصحة فى ينبع سنة ١٣٥٤ هـ . أنه مرض مرضاً خطيرا وأنه عالج نفسه فاستفاد بذلك .

وقال لى أستاذنا أبو الحسن على الطاهر صاحب « الشورى » : أنه شارك فى حرب الحبشة ضد الطليان هو وطارق الأفريقى القائد المعروف .

المذكرات :

كانت جريدة « الأهرام » نشرت يوم الأربعاء ٨ ربيع الثانى ١٣٤٣ هـ . (٥ نوفمبر ١٩٢٥ م) ما هذا نصه :

نشرت اللطائف المصورة فى الصفحة الرابعة من عددها الأخير صورة قالت

أنها صورة السلطان ابن السعود مع أركان حربه ، وقد تبينت وجـوه الرجـال الموسومين فى تلك الصورة ، فإذا الحقيقة غير ما قالته الجريدة ، فالرجل الذى قالت عنه أنه ابن السعود هو دولة شفيق كمالى باشا وزير الحربية العثمانية سابقا وكان فى ذلك الوقت ـ حين أخذت الصورة ـ والى البصرة ، وقائـدا للفيلـق العثمانى المعسكر فيها ، أما الرجال المصورون معه فليس بينهم واحد يمت إلى ابن السعود بصلة أو بنسب ، بل جميعهم من أمراء شمر .

وإليكم أسماؤهم : سعود بن عبد العزيز الرشيد أمير جبل شمر ، وعجمى باشا السعدون الزعيم البدوى العراقى المشهور الذى كان له شأن كبير فى حروب الانكليز فى العراق ، وحمد السعدون ، وناصر سبهان ، وسعود سبهان من زعماء البادية ، وأما الآخرون فهم أركان حرب سليمان شفيق باشا وياوراته ، وقد تزيوا بزى أهل البادية .

وعلى ذكر الصورة نقول : إنها أخذت لما كان دولة سليمان باشا يفاوض باسم الدولة العثمانية الأمير « الآن السلطان » ابن السعود ، وانتهت هذه المفاوضة بفضل ذلك القائد التركى الكبير بتأييد نفوذ الدولة فى نجد وحفظ إمارة شمر لآل الرشيد . « عربى » .

وعلقت الأهرام : أن فى نشر مذكرات حضرة صاحب الدولة سليمان شفيق باشا عن نجد والحجاز وسائر البلاد العربية فائدة كبيرة فى هذه الأيام التى أصبح فيها مستقبل تلك البلاد موضوع أحاديث الناس ، فنرجو أن لا يضن بها على القراء .

ولقد استجاب لدعوة الأهرام ، فكان يبعث بمذكراته باللغة التـركية ، وقـد أخبرنى الأستاذ السيد محب الدين الخطيب أنه هو الذى كان يقوم بتعريبها ، وقد نشرت الحلقة الأولى منها فى العدد ١٤٥١٩ فى يوم الخميس ٩ ربيع الثانى سنة ١٣٤٣ هـ . (٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤) وبلغ عدد ما نشر من الحلقات ٣٦ ، نشرت آخر حلقة بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٣ هـ (٢٣ يناير سنة ١٩٢٥) فى العدد الـ ١٤٥٧٦ . ولا أدرى هل نشر غيرها وأننى تصفحت جريدة الأهرام من

آخر يناير إلى نهاية ابريل سنة ١٩٢٥ ، فلم أر فيها شيئا ، كما لم أر شيئا من الخرائط أو الوثائق التى وعد بنشرها .

وكنت رأيت فى مكتبة صاحب الفضيلة الشيخ محمد حسين نصيف دفتراً كبيراً يحوى تلك المذكرات ، ومنذ سنتين طلبت من فضيلته إطلاعى عليه فأخبرنى بأنه فقده ، وإن كان يذكر أنه نقله له الشيخ محمد ماجد الكردى - أحد سراة مكة وعلمائها - نقله بخطه من جريدة الأهرام .

ولما حدثت أستاذنا خير الدين الزركلى عن هذه المذكرات وعن رغبتى فى نشرها فى « العرب » أخبرنى بأنه كان قد جمعها جذاذات من الأهرام ، ثم أفضل على وعلى قراء العرب بتقديمها وها هى :

اقترحت « الأهرام » أمس على دولة سليمان شفيق باشا - بمناسبة انتشار صورة له أيام كان واليا على البصرة ، ومباشرا مفاوضة ابن سعود باسم الدولة العثمانية - أن لا يضن بنشر مذكراته عن الحوادث التى شهدها فى بلاد العرب ، والوقائع السياسية والعسكرية التى باشرها بنفسه فى تلك الأقطار . وسرعان ما لبى دولته اقتراح الأهرام ، واعداً بموافاة قرائه بسلسلة فصول ممتعة بكل ما يستطيع نشره فى هذا الباب . وبادر دولته فى الحال الى كتابة الحلقة الأولى من سلسلة تلك الفصول باللغة التركية .

ودولة سليمان شفيق باشا من رجال الدولة العثمانية وكبار قواد جيوشها . وقد تولى المناصب العليا فى سوريا والعراق وعسير واليمن وأقطار عربية أخرى وتولى فى العهد الأخير وزارة الحربية فى سلطنة آل عثمان .

وإلى القراء المقال الأول الذى تفضل بكتابته ، وهو معرب فى قلم تحرير الأهرام :

إلى حضرة صاحب الأهرام المحترم :

قرأت اليوم فى العدد ١٤٥١٨ من (الأهرام) اقتراحكم على أن أكتب ما لدى من المعلومات عن جزيرة العرب تنويرا للرأى العام فى الظروف الحاضرة وفى الواقع أنه قد سبق لى تقلد مناصب مهمة فى بلاد العرب ، ولا سيما فى اليمن

وعسير وسوريا والعراق ، فشهدت حوادث على غاية من الخطورة وكان ذلك داعيا لى الى اعمال الفكر بشأن تلك الديار .

فمن ذلك أننى كنت فى قيادة عسير من سنة ١٩٠٨ إلى أواسط سنة ١٩١٢ فشهدت بنفسى وقائع الأدريسى بأكملها من أولها إلى آخرها ، ثم كنت فى قيادة سوريا فى الدور الأخير من حرب البلقان فاطلعت على وقائع سوريا وعلى الرأى العام فيها . ثم توليت ولاية البصرة وقيادتها سنة ١٩١٣ وباشرت مفاوضة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود باسم الحكومة العثمانية للتوفيق بين الفريقين ، ووقعت على الاتفاقية بصفتى المفوض الأول عن الدولة العلية ، ومن ذلك الحين وجهت الدولة إلى السلطان ابن سعود رتبة الوزارة السامية بفرمان سلطانى عالٍ وولاية نجد وقيادتها وإمارتها على أن تنتقل بالإرث إلى أولاده ، وهى الخطوة الأولى لطريقة الحكم اللامركزى التى كان يجب أن تقرر فى بلاد العرب ، وأن المفاوضات والرسائل التى دارت فى هذا الشأن محفوظة كلها عندى وسأعرضها فيما بعد على أنظار القراء .

وقبل هذا التاريخ بثمانية عشر شهرا كانت الاتفاقية التى عقدت بين الدولة وبين الامام يحيى فى اليمن علامة خير باهرة تدل على ما للدولة من حظوة قوية بشأن بلاد العرب فى المستقبل .

ولو أن الدولة العثمانية لم تدخل فى الحرب العظمى ، واحتفظت بحيادها فقد كان فى نية حكومتها وضع نظام خاص لطريقة الحكم فى العراق وسوريا .

إن المعلومات التى رغبت الىّ جريدة « الأهرام » فى أن أنشرها عن بلاد العرب ذات فصول وتفرعات واسعة ، ويمكن تقسيمها إلى معلومات عامة ، ومعلومات خاصة ومعلومات علمية ، وذلك بحث طويل شامل اجتزىء منه الآن المواد الآتية على سبيل الاجمال :

إن المعلومات العامة والمعلومات الخاصة عن بلاد العرب ـ ولا سيما عن جزيرة العرب ـ ناقصة جدا . وان الإخصائيين لم يكتبوا عنها كتابات شافية تلم بالبحث من كل أطرافه على وجه يكفل الفائدة للجميع . وقد كان ولا يزال فى

خزائن الأوراق الرسمية سواء فى تركيا ومصر مستندات ومعلومات مفيدة جدا غير أنها لم تجمع ويا للأسف حتى الآن بشكل كتاب يعرض على أنظار الجمهور فيستفيد منه . ومع أنه قد نشر حتى الآن بعض رسائل فى الموضوع فانها خاصة بمسائل معينة لا تفيد فى تنوير أفكار الناس بشأن الجزيرة العربية وعلى ذلك فليس فى الأيدى الآن كتب تشفى الغليل عن احوال جزيرة العرب الجغرافية والتاريخية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية وغيرها . ولذلك نرى صحف الترك والعرب والأفرنج تنخدع كثيرا فى الحكم على ما يحدث فى تلك الأقطار ، وكل ما تنشره من آراء وأفكار عن بلاد العرب تنشره تحت تأثير الانخداع [1] .

من أجل هذا أقول: إن من الواجب أن أشفع مقالاتى هذه بخريطة للبلاد العربية صغيرة جامعة بقدر الامكان ، تساعد القارىء على فهم ما أكتبه فيما بعد فى هذا الموضوع .

والمعلومات التى سأقدمها للقارىء وإن لم تكن غاية فى الكمال ، غير أنها على كل حال تستند إلى المشاهدات لا إلى المسموعات ، لذلك أنا مقتنع بأنها عارية عن الخطأ بقدر الامكان ، وستكون مفيدة ، والنقائص التى قد تقع فيها يمكن أن تتلافى بما يكملها به العارفون ممن يطلع عليها ، فيتسع البحث ويصبح كاملا . والآن سأعرض على القارىء زبدة آرائى التى أعتمد فيها على تجاربى ومشاهداتى . وسأبحث فيها بقدر الإمكان عن شئون الإمام يحيى والسيد الأدريسى وأمير مكة وسلطان نجد مبينا أسباب الحوادث فى تلك الربوع - وهى الأسباب التى ظلت حتى الآن وراء الستار فى الخفاء - ورجائى أن يكون فى عملى هذا خدمة للتاريخ .

---

(١) هذا الكلام ينطبق على الثلث الأول من القرن الماضى ، أما فى تاريخنا الحاضر ١٤٠٤ هـ . فقد تغير الوضع علميا وفكريا واجتماعيا وأصبحت الجزيرة العربية وعلى رأس حكوماتها المملكة العربية السعودية فى عهد جلالة الملك فهد بن عبد العزيز أوسع دول الجزيرة رقعة وأكثرها عمرانا وتقدما وازدهارا ،وجامعات علمية واعداد من دور النشر ، ويعد علماؤها ومفكروها وأدباؤها فى الطليعة ومكاتبها زاخرة بالمؤلفات الجغرافية والتاريخية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية والحاضر الشاهد خير دليل .

وأستأذنكم الآن فى الشروع ، واثقا من أن القراء يرون ذلك صادرا منى بحسن نية ، وسيرون أن المعلومات التى أعرضها عليهم مؤيدة كلها بالمستندات الرسمية والوقائع الثابتة :

إن التقسيم السياسى الحاضر فى جزيرة العرب هو بوجه عام غير طبيعى ولأنه غير طبيعى أدى إلى ظهور الحوادث الحاضرة . فجزيرة العرب لم تدخل تحت سلطان أمير واحد لما فيها من اختلاف المذاهب واختلاف الرأى ، والتفاوت فى مستوى الحضارة ، ولافتراق المصالح . ثم ان لكل واحد من زعماء العرب ميلا خاصا للانفراد بالادارة والاستقلال بالحكم ، فلا يحتمل بوجه من الوجوه أن يطلق أيدى رجاله فى العمل بحرية واستقلال ، إلاّ إذا حصل كل منهم على استقلاله وحريته وكان مرتبطا بمرجع أعلى . فما من أمير قام بدعوى القومية يستحق أن يقوم بأعباء الادارة العظمى والخلافة ، لأن مقام الخلافة العظمى ملجأ لأكثر من ثلاثمائة مليون مسلم ، ومثل هذا المقام لا يبلغه رجل معلول بالأمراض الشخصية . أما لو وجد فى الأمة العربية رجل سياسى رشيد يستطيع أن يجمع الأمة العربية حول غاية واحدة ، ويتولى من هذه الأمة مقام الهداية والإرشاد فيؤلف من البلاد العربية حكومة حليفة ، فإن اليوم الذى يظهر فيه للعرب ذلك الرجل سيكون بداية تاريخ جديد للحضارة العليا فى جزيرة العرب .

إن الأفعال والحركات التى نشاهدها الآن من عبد العزيز بن سعود سلطان نجد تنم عن بداية انقلاب مهم سيحدث فى جزيرة العرب ، وبرنامجه القائم باتفاقه مع الإمامة الزيدية فى اليمن ، والإدارة التى يتصورها للحرمين الشريفين ، كل ذلك من الأدلة المهمة الجديرة بإمعان النظر فى الخطوات السديدة التى يخطوها السلطان ابن سعود .

ومما لا ريب فيه أن الخطة التى رسمتها الوهابية اليوم للسير عليها لا تشابه بوجه من الوجوه خطتها التى رسمتها فى العصر الماضى .

أنّ فى جزيرة العرب اليوم من الامارات : إمامة الزيدية فى القسم الجبلى من

اليمن ، والإمارة الإدريسية فى أراضى الشافعية من تهامة اليمن وبعض تهامة عسير[1] ، والسلطنة السعودية فى جميع نجد وفيها إقليم عسير ، والحكومة الهاشمية التى انحصرت بين أسوار ثغر جدة . وثم إمارة آل الصباح فى الكويت عند نهاية الخليج الفارسى وقبلها مشيخة حضرموت التى تحت الحماية الانكليزية يليها سلطنة عمان المستقلة التى يسكنها الأباضية وبين نجد وقحطان قبائل يام التابعين لإمامة المذهب الاسماعيلى .

وسأعرض أمام أنظار القراء فكرة عامة عن هذه الامارات والبلاد التى تبسط سلطانها عليها ، مبينا ذلك بالخريطة التى وعدت بها ، أمّا الآن فأكتفى بعرض المعلومات الجغرافية الآتية بايجاز :

إن سلسلة جبال طوروس تتشعب فروعها إلى أطنة وحلب والشام فالعقبة ومن العقبة تأخذ فى الارتفاع ممتدة إلى الطائف ، غير أن هذه السلسلة الجبلية ليس لها نجود فيما بين العقبة والطائف ، وإنما هى عبارة عن آكام ذات حزون وذات ذرى صخرية حادة ، قد يبلغ ارتفاع بعضها ألفى متر وتسمى هذه الجبال بوجه عام باسم جبال السراة ، فإن بلغت الطائف تصبح هذه الجبال ذات نجود ، ومنها تتفرع نجود غامد وزهران فى عسير ، ونجود اليمن وحضرموت ، وهذه السلسلة ترتفع هنا عن سطح البحر بين ألفين وثلاثة آلاف من الأمتار ، وتتسع عرضا نحو مائتين الى ثلاثمائة كيلو متر .

وأقول باختصار : أن أرض تهامة ـ وهى الجانب الغربى من عسير واليمن ـ تشبه الأراضى المصرية فى استوائها ، غير أنها شجرية ، والقسم الأعظم من جانبها الشرقى يسمى النفود ، وهى جزيرة طويلة من الصحارى الرملية التى لم تكتشف حقيقتها تماما .

والنجود الصالحة للزراعة فى عسير واليمن قد يبلغ ارتفاعها بين ثلاثمائة متر وألفين وثلاثمائة متر ، وكلها منبتة ، وإقليمها معتدل بحيث لا تزيد درجة الحرارة بميزان سنتيغراد فى زمن القيظ عن ثلاثين درجة فى الظل ، والدرجة الستين بميزان

---

(١) راجع كتاب المخلاف السليمانى جـ ٢ ص ٤١٥ وما بعدها .

الرطوبة « هيغرومتر » والأمطار تهطل بانتظام ، فى مواسم معينة كما هى الحال فى خط الاستواء .

وسلسلة جبال السراة تمتد موازية للبحر الأحمر منذ العقبة ، فتتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى مقتربة من البحر فى بعض المواضع ومبتعدة عنه فى البعض الآخر وهذا القرب والبعد يتراوح بين خمسين كيلو مترا ومائة كيلو متر . والأراضى الممتدة بين سلسلة الجبال وبين البحر تسمى (تهامة) وهى تضاف الى القطر الذى تكون فيه فتسمى تهامة الحجاز ، وتهامة عسير ، وتهامة اليمن . أما تهامة الحجاز فأكثرها ذات أرض رملية ، وأما تهامة عسير واليمن فأكثرها ذات أراض جبلية فيها بقاع منبتة بما تحمله السيول من الطمى ، وأكثرها شجرية خصبة الى درجة أن المزرعة الواحدة تأتى بمحصولين اثنين من بذرة واحدة وتزرع فى السنة الواحدة أربع مرات .

والقسم الجبلى من اليمن وعسير على غاية من اللطافة وملائم للصحة كل الملاءمة ، حتى أن الأمراض المعدية والعفنة تشفى بالانتقال من تهامة الى البلاد الجبلية لأن مكروباتها تموت فى جو تلك الأرجاء . وليس فى جزيرة العرب مرض مهم غير مرض الجدرى وهذا يمكن مقاومته بالتطعيم .

والأمطار التى تنهمر فى مواسمها بشدة تنحدر من الجبال الى تهامة فتكون سيولا تسيل بها الوديان الضيقة ذات الأحجار الغرانيتية ثم تنصب فى البحر الأحمر ، وأهضام [١] هذه الوديان مزينة فى بعض الأماكن بغابات شجر يشبه الصنوبر .

ولما كانت أراضى تهامة لم تنهك ولم تتعب كما هى الحال فى مصر فإن ترابها ذو قوة عظيمة فى الإنبات ، ويمكن رى تلك الأراضى بإقامة سدود فى بعض منافذ

---

(١) الأهضام جمع هضم وهو المطمئن من الأرض ونزلنا فى أهضام الوادى ، فى بطونه المطمئنة ، وفى الحديث العدو بأهضام الغيطان وهو المطمئن من الأرض ، وقيل فى أسافل الأودية ، قال لبيد بن ربيعة العامرى :

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالاً مخصباً أهضامه

الوديان فتصبح تلك البلاد العربية أشبه بالجنان [١] وأن القطن والفلفل والباذنجان يبلغ طول سوقه هناك ارتفاع الأشجار وترتفع الذرة فى حقولها أربعة أمتار وخمسة أمتار ويبلغ قطر قصبتها سبعة سنتيمترات أو ثمانية . ونجود عسير واليمن كلها تقريبا مأهولة بالسكان ، والقرى فى عسير متقاربة بعضها من بعض وتكثر فى الوديان ، وأما فى اليمن فتراها منفردة فى رؤوس الجبال الحادة كأن القرية بيضة نسر موضوعة فى ذروة الجبل على انفراد . ومنازل القرى كلها مبنية بالحجر ، وهى ذات ثلاث طبقات أو أربع طبقات ، وجدرانها مطلية من الداخل بالكلس والجص ، ومنظرها من بعيد منظر شعرى على غاية من اللطافة ، وهذا الرقى العجيب فى عمارة منازل القرى فى اليمن دليل على حضارة قديمة منقرضة وهذا أمر لا شبهة فيه قط .

وكل منزل فى اليمن ذو برج حربى ، قائم إلى جانبه . وفى عسير ترى لكل قرية جامعا ومدرسة ومخزن مئونة لأهل القرية كلهم وبروجا حربية للدفاع عن القرية ، والشعب كله مسلح وهو متمرن على الحرب والضرب ، ومتصف بالقناعة ويأنف الحيل والدسائس وفيه رجولة وكرم فى قرى الضيف .

وثروة البلاد عبارة عن أراضيها ومواشيها ، وأستطيع أن أقول أن الأراضى مقسمة على نسبة العائلات قسمة التساوى بقدر الإمكان . فلا ترى هنالك شيخاً أو زعيماً يملك ألوف الفدادين ، ولا ترى فقيرا معدما لا يجد له ملجأ يأوى إليه ، وجميعهم أهل قناعة وسعى وجد .

وبعد فقد كتبت ما تقدم كمقدمة لما أردتم أن أكتبه . فإذا وقع ذلك من القراء

---

(١) ان ما تمناه سليمان شفيق باشا من اقامة سدود فى بعض منافذ الأودية قد حقق الله تعالى بعضه على يد حكومتنا الناهضة ، وقد قامت ببناء سد وادى جيزان الذى افتتحه فى شهر محرم عام ١٣٩١ هـ . صاحب السمو الملكى ولى العهد المعظم الأمير فهد بن عبد العزيز ـ جلالة الملك حاليا ـ

وأن هذا السد يعد أول سد فى الجزيرة العربية بعد سد مأرب التاريخى ، راجع كتابنا المعجم الجغرافى لمنطقة جازان ص ١٩٩ وما بعدها عن مصور ذلك السد ومساحته وطاقة تخزينه وتدفق مياهه فى الثانية ، وارتفاعه ، وطول السد وعرضه ، ومخططه وكل ما يهم القارىء الوقوف عليه .

الكرام موقع الرضى فإن هذا التشجيع يحملنى على أن أتبع هذه المقدمة بمقالات فى الموضوعات الآتية :

١ ـ ملاحظات عامة ، وجغرافية بلاد العرب .

٢ ـ مسألة نجد والمفاوضات التى دارت بين الدولة العثمانية والسلطان عبد العزيز بن سعود وأسبابها ونتائجها الحاضرة والمنتظرة .

٣ ـ إمامة اليمن وحروب الدولة العثمانية فى اليمن والاختلاف وأسبابه ونتائجه .

٤ ـ تحريض السيد محمد الأدريسى الأهالى فى عسير على الثورة ـ الحرب هناك وأسبابها ونتائجها والأصابع الداخلية والخارجية فى هذه المسألة والمقصد والغاية .

٥ ـ الوقعة التى نشبت بين الشريف حسين وابن سعود فى الشرق (نجد) حملة عسير ، تأسيس حكومة الحجاز وكيفية تشكيل الحكومة الهاشمية ، الحالة الحاضرة والمستقبل .

٦ ـ صور فوتوغرافية للمستندات الرسمية المتعلقة بمسائل نجد وعسير والحجاز .

* * *

عسير

إن من الجانب الشرقى من بلاد عسير المنتهى بالنفود قبائل تسكن الخيام غير أن هذه القبائل الرحالة تبلغ عشرين فى المائة بالنسبة الى عدد السكان المتحضرين . وعدد النفوس فى قسمى تهامة والجبال من بلاد عسير يزيد على مليون ، وأكثرهم فى القسم الجبلى .

والعسيريون تابعون لمذهب الامام محمد بن ادريس الشافعى ، غير أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حلت محل الرضى والقبول فى عسير أيام استيلاء آل سعود عليها فى أوائل القرن الماضى . فمساجد عسير الآن مجردة من الزينة والزخرف ، ولا ترى عندهم قباباً ومزارات يعكف الناس عليها . وقبورهم دوارس غير معلمة بشارات أو كتابة ، بل إن الأمراء السالفين الذين حكموا عسيرا لا تعرف قبورهم ، فالناس فى عسير يقصرون التوسل والاستغاثة على مالك الملكوت وأرحم الراحمين واجب الوجود جل شأنه . والطرق الصوفية مجهولة تماما فى تلك الأصقاع . وصفوة القول أن البدع لم تعرف إلى بلاد عسير سبيلا تدخلها منه ، فالقوم لا يزالون على الفطرة الأولى التى يذكرها التاريخ عن صدر الإسلام .

وإذا كان سكان تهامة عسير قد فسدت لهجتهم بسبب اختلاطهم بالغرباء فإن أفصح أهل البلاد العربية بوجه عام سكان الجبال من بلاد عسير ، وهم أصح من عامة الأقطار الأخرى منطقا . وقبائل (ربيعة) و (الجهرة) النازلين فى وادى (ضلاع) ووادى (الردوم) يتكلمون باللغة الفصحى ، ولمنطقهم سلاسة ونغمة لطيفة كأنها الشعر المنظوم . ويبلغ عدد هؤلاء خمسة آلاف أو ستة آلاف

فقط ، ووديانهم غزيرة الماء كثيرة الغابات غير أنهم لا يعانون الفلاحة بل يعيشون بتربية الإبل والمعزى ، ويجتنبون الحرب والقتال ، وعليهم سمات الوقاروالأنس وفيهم الكرم وقرى الضيف . ولا يعرضون قط لما بين القبائل من اختلاف وعداء ، ودأبهم التنقل فى وديانهم الخاصة بهم فيتجولون من مكان إلى آخر بمنازلهم السيارة المصنوعة من الحصير ، وإلى القارىء قصة تدل على صفائهم وسلامة فطرتهم :

لقد كان من نصيبى أننى كنت أول قائد عثمانى دخل وادى ضلاع الذى تنزله قبيلة ربيعة ، فخالطتهم وكنت ضيفا عليهم ، وأكرمتهم ببعض الهدايا ، فتحول تعارفنا إلى تآلف . واتفق أن رزق شيخ ربيعة مولودا فسماه باسمى وأصبح سميي باصطلاحهم وأن رابطة السمي عندهم وثيقة العرى كرابطة الإخاء ، ومن عادة القبائل أن يتبادل السميان الهدايا فى أيام معينة .

واتفق أن قبيلة ربيعة بايعت فى ذلك الحين السيد الأدريسى وأقرت له بالزعامة ، فلما ثارت عسير علينا بقيادة السيد الادريسى انضوت القبائل جميعها تحت راية الثورة ما خلا قبيلة ربيعة التى لى فيها سمي ، فإن هذه الرابطة حملتها على التزام الحياد ، وقالت للسيد الأدريسى : (أنت سيدنا ولكن سليمان سمّينا) فنحن نعترف لك بالسيادة ونرعى له حقوق الرابطة ، ولما كان السيد الإدريسى يعرف تقاليد العرب ارتضى منهم بهذا الجواب وتركهم وشأنهم .

ولون الأهالى يزداد إشراقا كلما ابتعدت عن الساحل إلى الداخل ، فبينما قبائل قحطان وسحار وسنحان ـ مثلا ـ وجوههم سمراء واضحة وشعورهم ذات شقرة ، ترى مع ذلك سمرة وجوه أهالى الساحل قاتمة لكثرة ازدواجهم بالحبشيات والزنجيات وقد تظن بعض القرويين من أهل تهامة عسير افريقيين تماما [1] .

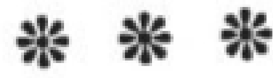
---

(١) هذا غير الواقع المعروف والمشاهد أن أهل تهامة التى تمتد من العقبة الى عدن صفر الألوان وهو ما نطلق عليه السمرة أو الخضرة وهو لون الجنس السامى العربى حيث قال الشاعر :

أخضر الجلدة من بيت العرب   يملأ الدلو الى عقد الكرب

وهذا ينطبق على عموم سكان تهامة بل على الجنس العربى على وجه العموم فى جزيرة العرب خاصة ما عدا سكان المرتفعات فى جنوب اليمن وعسير وغيرها من المرتفعات ، بسبب برودة طقسها .

ولقد كانت عسير فى العصور القديمة ممرا لمن يقصد اليمن من الغرباء ، لذلك قد ترى فى قبائلها سحنا تحكم لأول وهلة أنها غير عربية . (الآن فى جوار أبها) عاصمة عسير قبيلة اسمها «بلحمر» أى بنى الأحمر تشابه وجوه أفرادها وجوه سكان الجبال الهندية ، وهناك قبيلة «بلسمر» أى بنى الأسمر فى وجوههم تقاطيع الجنس القوقازى الآسيوى ولونه ، وهذا مشعر بوقوع هجرة من خارج اليمن إلى داخلها ، كما أنه قد وقعت فى التاريخ هجرات عظيمة من داخل اليمن وعسير نحو الشمال ، ولا سيما أيام كانت تجهز الجيوش الإسلامية من جزيرة العرب فى زمن الفتح فقد كان لسكان عسير نصيب عظيم فيها ، وكانوا حيثما انتقلوا يحتفظون بعاداتهم القديمة وتقاليدهم الخاصة وأسماء قبائلهم ويوجد حتى اليوم فى مصر والعراق قبائل هى فروع من أصول موجودة بنفس الأسماء فى بلاد عسير ، حتى أن أغانى الفريقين متشابهة تماما .



معادن عسير

فى جبال (السُّوده) و(السوقه) الواقعة غرب (أبها) قاعدة عسير مناجم حديد غنية جدا . ومناجم الرصاص الفضى والمركبات الكبريتية كثيرة فى عسير .

وفى جوار (بنى شهر) منجم نحاس وفى السفوح الغربية من سلسلة جبال عسير وجد معدن الملح الصخرى وهو من نوع نفيس جدا وفى جزائر (فرسان) على سواحل عسير مواطن البترول ومعدن الأسمنت .

وبالإجمال أن فى عسير رجالا صالحين لإعداد جيوش تفتح جزيرة العرب كلها ، وأراضى فى غاية الخصب ، ومعادن غنية وكثيرة تقوم بأعباء العمران والغنى لهذه البلاد فى المستقبل ، وفى سواحلها موانىء جميلة واسعة مثل ميناء « ألْوَسم » تصلح لأن تكون مراكز تجارية وحربية حسنة .

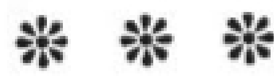
وفى بعض الساحل الشمالى من اليمن وعلى طول ساحل عسير ، توجد فى البحر ستارة من مادة الشب(١) ممتدة من « قمران » إلى « الليث » موازية للساحل ، وعند جزائر «فرسان الصغرى » وجزائر « فرسان الكبرى » وما بينهما وبين هذه الستارة البحرية وبين الساحل مضيق طوله ستمائة كيلو متر يمكن المرور منه . وعلى ذلك فالسفائن البحرية الكبرى لا تستطيع الاقتراب من ساحل عسير الا إذا دخلت من مضيق الليث وقمران . فالحكومة التى تملك عسير إذا أقفلت هذين المضيقين بالوسائط الفنية تحافظ على سواحلها بسهولة عظيمة وتجعل سفن العدو فى خطر لا يمكن اجتنابه .

---

(١) ما يسميه صاحب المذكرات مادة « الشب » أرجح انه يقصد « الشعب » الصخور المرجانية المعروفة فى البحر الاحمر وغيره .

وان شكل مدخل ميناء « ألْوَسم » وسعته ووجود جزيرة صغيرة من حجر الغرانيت تجاهه تسمى « كتنبل » ، وامتداد شعبه من جبال السراة إلى الساحل بحيث تحيط بهذا الميناء ، ووجود المياه العذبة بكثرة ، وغنى عسير بمناجم الحديد فى منطقة مساحتها ستون أو سبعون كيلو متر ، وكون هذا الثغر ميناء لرجال المع . الذين هم أكثر أهل عسير نفوسا وأنشطهم اشتغالا بالتجارة كل هذا مما يجعل هذا الميناء مستعدا فى المستقبل للعمران ولا بد أنه سيكون من أعظم المراكز التجارية والعسكرية فى وقت قريب .

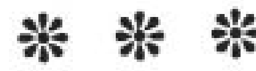
والذى يخترق تهامة قاصدا الجبال ينعم نظره بين كل خطوة وأخرى بمشاهدة الأشجار والنباتات الخاصة بالأقاليم المختلفة ، ويعجب بجمال تلك المشاهد ، وفى سفوح تلك الجبال يرى تحت أشعة الشمس الحامية النخيل وأشجار الدوم والتمر الهندى والسدر ، ثم تظهر له بعد ذلك أشجار الموز والليمون ، واذا ارتفع فى الجبال أكثر من ذلك يرى فى أعاليها شجر اللوز ، وشجرا يشبه الصنوبر ، ولو أن فى هذه الديار وسائل المواصلات الموجودة فى البلاد الضاربة فى المدنية بشوط لتمكن الإنسان من اجتياز بضعة آلاف من المترات فى هذه الجبال بساعة واحدة ، فيشاهد فيها المواسم الأربعة كلها ، وأشجارا ونباتات مما اختصت به الأقاليم المختلفة ، فوا أسفاه لبلاد كهذه تظل فى عالم النسيان متروكة مجهولة.(١)



(١) ان الدولة السعودية ـ بحمد لله تعالى ـ قد حققت كل ماتمناه فقد تم تعبيد طرق المواصلات الرئيسية واكثر الطرق الفرعية فى سائر اقطار هذه المملكة المترامية الاطراف فمثلا فى منطقتنا يمكن للسائر ان يقطع المسافة من ساحل مدينة جازان فى ساعتين بالسيارة الى جبال بنى مالك شرقا ، ومن جازان الى ابها شمالا فى ثلاث ساعات ، اما بالطائرة ففى ربع ساعة وفى كل يوم ثلاث رحلات جوية الى ابها وعشر رحلات الى كل من الرياض والظهران والمدينة وجدة والطائف ونجران ، يضاف الى ذلك الأمن الذى لايوجد فى سائر القارات والرخاء وارتفاع مستوى المعيشة والعمران ولله الحمد على نعمه .

أنهار عسير

من المعلوم أن جزيرة العرب ليس فيها أنهار كبرى ، وإنما هنالك مياه تجرى فى بعض المواسم وليس لها من الأهمية ما يصح أن تسمى معها نهرا . والنـاس يستفيدون من الأمطار فى مواسم الزرع ، ويستقون من الآبار على السواقـى بالإبل فيروون بذلك مزارعهم وحدائقهم . ويبلغ عمق الآبار فى الجبال خمسة أمتار الى عشرة ، ومياهها عذبة وغزيرة ودائمة . وأكثر القرى مبنية على جانبى مجارى السيول ، فحيثما يحفرون يجدون ماء ، لأن هذه المجارى رملية ومن تحت الأرض تجرى دائما المياه المترشحة من السيول .



---

(١) لو بعث الله من عاش فى عهد سليمان شفيق لكان كبطل المويلحى فى رواية عيسى بن هشام ، ولشاهد الدنيا قد تغيرت فى عسير وفى المخلاف السليمانى وفى سائر المملكة من تخوم الشام الى مشارف اليمن فالمياه اصبحت تسحب بالمواسير الى سائر البيوت وفى القرى الخزانات مرتفعة تصل للأهالى الى بيوتهم ولشهد المزارع التى تسقى بمياه الآبار الارتوازية ، ففى منطقة جازان فقط ماينوف على ستة الاف بئر ارتوازى ووسائل الحرث الحديثة فى كل مزرعة ، وقد اراح الله الابل من السقى والبقر من الحرث واصبحت تنعم بالرفاهية فى الحظائر او ترتع فى المراعى لاستغلال لحومها والبانها .

السيول

تنقسم السيول فى نجود عسير واليمن الى قسمين : السيول الشرقية والسيول الغربية . وبعض السيول الشرقية ينحدر إلى « النفود » وبعضها يصل الى بلاد « نجد » . والسيول الغربية تنحدر إلى تهامة فتسقيها ثم تنصب فى البحر .

فلو أن الوديان ذات الأحجار الغرانيتية أقيمت عليها السدود ، كما ذكرت فى المقال السابق وحبست فيها المياه الى زمن الجفاف والقيظ ، لكان من ذلك خزانات طبيعية تحيا بها البوادى الواقعة فى الشرق والتهائم التى فى الغرب ولأمكن زرع الأراضى البور فى كل مواسم السنة . وقد كان قدماء العرب صنعوا فى الأزمنة السالفة مثل ذلك فى « مأرب » التى كانت عاصمة دولة الملكة بلقيس ، وهذه العاصمة واقعة على مسافة مائة وعشرين كيلو مترا من صنعاء الى جهة الشرق ؛ فأقاموا السدود لخزن الماء والاستفادة منه فى رى أراضيهم فأحيوا به جنات بديعة ، حتى إذا خرب سد مأرب لسبب من الأسباب بادت تلك العاصمة العظيمة وزال ذلك الملك المجيد [١]

وفى حوالى سنة ١٨٨٣ حضر الى اليمن العالم المستشرق النمسوى « كليزر » فساح فى أرجائها وجاء الى صنعاء ومنها الى مأرب . ولما عاد من مأرب الى صنعاء عرض على الحكومة العثمانية اقتراحا يتعلق بإجراء التنقيب عن آثار

---

(١) أشرنا قبله فى ص١٥ إلى ما حقق فى عهد حكومتنا الرشيدة من انشاء سد وادى جيزان ، وهنا نشير إلى انجازات الحكومة من العطاءات الحضارية والنهضة الزراعية .

فقد تلى ذلك افتتاح سد وادى نجران وأعْقَبَه افتتاح سد وادى أبها وهناك دراسات فنية لإقامة عدد من السدود فى منطقة عسير ومثلها من الدراسات فى منطقة جازان ومن ذلك دراسة أوشكت على الانتهاء لإقامة أكبر سد فى جنوب الجزيرة على وادى بيش كما أن هناك مشروعات دراسات لاقامة سدود على أودية مقاب ـ صبيا ـ ضمد ـ والنهضة سائرة والخير مضطرد ونسأل الله تعالى أن يوزعنا شكر نعمته .

الحضارة اليمنية فى سبأ ومأرب ، وهو يجزم بأن هنالك آثارا تساوى ملايين الجنيهات وقد تعهد بأن ينفق هو على التنقيب وأن يكتفى من الآثار التى يستخرجها بأخذ صور الفذ منها ، وما كان من نوع واحد يأخذ منه واحدا غير أنه طلب إلى الحكومة أن تسعفه بقوة من الجند كافية للمحافظة على أعمال التنقيب . وإنى أقول بكل أسف أن الحكومة لم تلب طلبه ولم توافق على اقتراحه .

وجبال عسير كلها جرانيتية ، ولا يمكن ارتقاؤها من حيث شاء الانسان ، بل لا بد من سلوك منافذ معينة للوصول الى قممها ، ومع ذلك فمن المتعذر ارتقاء العربات وما أشبهها فى الطرق الجبلية ، ومن الصعب نقل الأحمال الثقيلة(١) ، وعلى هذا فان مهاجمة القسم الجبلى فى عسير من جانب الساحل غير ممكنة قط الا لمن يستطيع قبل كل شيء الاستيلاء على ذرى الجبال وامتلاك منافذها ، ومن هنا يرى القارىء أن عسير محصنة بحصون طبيعية فى البحر بسبب الستارة الموازية لساحلها كما تقدم ، وفى الداخل بسبب هذه الجبال الصعبة المرتقى .

وأهم ما امتازت به بلاد عسير مما أشرت إليه فى هذا المقال ، وما لها من وضع جغرافى خاص ، أضف الى ذلك بسالة رجالها ـ كل ذلك قد جعل عسير مفتاحا وثيقا للحرمين الشريفين ، فمن لم تكن عسير فى يده وتحت سلطانه لا يصلح لحماية الحرمين الشريفين وأن يكون خادما لهما .

وقد انتبه الى هذا السر الدقيق ابن سعود سلطان نجد . فقبل أن يتعرض لأمر الحجاز حرص على أن تكون عسير فى يده فتمكن من بسط سلطانه على جبالها وتهائمها . وفى استطاعته اليوم أن يجرد منها مائة ألف مقاتل مدربين على استعمال السلاح ومجربين فى الحروب ومقتضياتها ومرتاضين على مشاق الأسفار . ولهذه الحكمة الدقيقة أيضا مد الشريف حسين ملك الحجاز السابق عينيه إلى عسير منذ سنة ١٩٠٨ متذرعا الى ذلك بالاستعانة بنفوذ الدولة العثمانية وجعل

---

(١) ان الطرق المسفلتة قد غطت مواصلات جبال عسير من السيارات الامريكية واليابانية الفارهة لنقل الركاب الى اكبر الناقلات من سيارات نقل البضائع تجوب جبال وقمم عسير الشماء والهدا فى جبال الطائف وغيرها بكل يسر وسهولة .

لنفسه علاقة بها . ولما جلت عنها الجنود العثمانية عقب الحرب العظمى بحكم شروط الهدنة بادر هو إلى وضع يده عليها بصفته ملك الحجاز ، غير أن السلطان ابن سعود كان مستيقظا لمراميه فاستعمل السطوة والحكمة معا فى التفوق عليه حتى صارت « أبها » عاصمة عسير وكل ما جاورها وتبعها من بلاد عسير منضوية تحت لوائه وأخيرا وصل حكمه الى سيف البحر فى « القنفذة » .

وهذا الفوز العظيم الذى حصل عليه السلطان ابن سعود فى مثل لمح البصر من السرعة لا يجوز أن يحمل على قوة السيف وحدها ، فإن من يظن ذلك يدل على سذاجة متناهية وضعف فى التفكير وبعد عن إدراك الحقائق .

ان من طبع البشر عامة وسكان جزيرة العرب خاصة أن يقيموا وزنا عظيما لمن كان صادقا فى قوله موثوقا فى عمله . فاذا كان السيف فى بعض المواقف قاهرا فإن إصابة المحز فى القول ، وإصابة الغرض فى التدبير كثيرا ما يكون ساحرا . والناس لا يذعنون للضرب والبطش فقط ، بل ينقادون أكثر من ذلك لما فيه حفظ مصالحهم البشرية المشروعة ولما يرجون أن يحيوا به حقوقهم الضائعة . والإنذار فى الواقع يجدى فى منع الاعتداء ، فيجب حينئذ الاذعان له وإلاّ فإن البشر - حتى فى حالة سذاجتهم الابتدائية لا يساقون بشفرة السيف إلى الغرض الشخصى حتى النهاية ، ولو سيقوا إلى ذلك بالقوة والإرهاب فلا يدوم ذلك إلاّ إلى حين ثم يكون لذلك رد الفعل فتستيقظ روح معارضة القوة بمثلها . والناس فى الحياة البدوية شديدو الاحساس دقيقو الشعور ، لأن أذهانهم رائقة لا تشغلها ألوف المشاغل التى تملأ أدمغة أهل الحضر . لذلك ترى البدو منتبهين إلى كل ما يهمهم أمره من الحوادث والأمور . وما من بدوى إلاّ وهو مدرك كل الإدراك وواقف تمام الوقوف على سياسة بلاده والمصالح الحقيقية لوطنه ، ومراقب بعين اليقظة لما يبدر من حكامه من أفعال وحركات ، فيحك الأوامر التى يتلقاها بمحك الانتقاد والاختبار حتى يميز بسرعة عظيمة مواطن الضعف والقوة فيها .

إن الأمراء الذين يجهلون هذه الحقائق فى جزيرة العرب ، أو يهملون العمل بها ، تكون عاقبتهم الخذلان والفشل . وأما الذين يدركون سر هذه النكتة المهمة فما برحوا مؤيدين بالنصر والتوفيق .

(١)

المسألة الأدريسية

عرضت على أنظار القارىء فى المقالين السابقين معلومات موجزة عن عسير التى لها مقام رفيع فى جزيرة العرب ، وأن الخريطة التى وعدت بها القراء ستتم بعد بضعة أيام فأنشرها مع الفصول التالية لتساعد على معرفة البقاع التى أتكلم عنها .

أظن أن البيانات التى تقدمت كافية لتكوين فكرة إجمالية عند القارىء عن مقاطعة عسير . ولما كانت وقائع السيد الأدريسى فى عسير هى من مقدمات الحوادث الحاضرة فى الحركات العربية العامة التى كنا نستشعر بوادرها قبل الحرب العظمى ثم رأيناها تدخل فى دورها العملى بعد عقد الهدنة لذلك أحصر البحث فى مقال اليوم بالمسألة الأدريسية وكيفية حدوثها ، جاريا مع الوقائع بحسب تسلسلها .

على إثر إعلان الحكومة العثمانية النظام الدستورى عهد إلي فى قيادة منطقة اسكدار فى الآستانة ، ثم لما حدثت ثورة ١٣ ابريل المعلومة وقع علي الاختيار لأكون متصرفاً فى لواء عسير وقائدا لجنوده . وقد كانت لى صلة ود قلبى مع الأمة العربية من حداثة سنى ، لأن والدى المرحوم علي كمالى باشا كان واليا على طرابلس الغرب وبنى غازى أيام فتوتى ، ثم تولى إمارة الحج الشامى - وكنت

---

(١) راجع تاريخ الادارسة وإماراتهم فى عسير وتهامة فى كتابنا المخلاف السليمانى جـ ٢ من ص ٦٢ - ٩١٦ من ابتدائها الى انتهاء أمرهم الطبعة الثانية ، أما الخريطة فمع الأسف لم نجدها فيما وجد ونشر فى مجلة العرب من مذكرات سليمان شفيق ، كانت ثورة الادريسى على الأتراك هى أول ثورة عربية قام بها أمير عربى قبل الحرب العظمى الأولى .

ضابطا فى مقتبل العمر ـ فصحبته من دمشق الى مكة المكرمة من طريق البر ووجدت ضابطا فى اليمن برتبة قائد ألف بين سنتى ١٨٩٣ و ١٨٩٥ ـ فهذه الأواصر ربطتنى بالأمة العربية وجعلتنى أفهم لغتها . وكان السبب فى اختيارى لهذا المنصب فى عسير وقوفى كثيرا أو قليلا على أحوال البلاد العربية وأهلها ورغبتى الشخصية فى العمل ببلاد العرب .

ومما حمل الباب العالى على التعجل فى تعيينى لمتصرفية عسير وإرسالى إليها على جناح السرعة ، ظهور السيد الأدريسى فى ذلك الحين فى عسير وإعماله يد التحريض من وراء ستار فى شعب ألف السكينة والدعة ، فأراد الباب العالى أن أستكشف مقاصد السيد الادريسى وحركاته وأن أتعرف درجة تأثيره فى الأهالى ، وأن أختبر عوامل مساعيه ؛ وأدرس الوسائل والتدابير التى يجب على الدولة أن تقوم بها تجاه ذلك .

وقبل أن أبرح الآستانة زرت الصدر الأعظم ووزيرى الحربية والداخلية واطلعت على الملفات والدوسيهات الخاصة بعسير فى تلك الوزارات ، غير أنى لم أجد فيها معلومات صحيحة تشفى غلة الباحث ، بل فيها معلومات تدل على سذاجة وجهل ، مثل دعوى أن الأدريسى يطلى وجهه بالفوسفورويستعمل الاهتزازات الكهربائية مخادعا الشعب بذلك ومدعيا الولاية والمهدوية (١) .

وكان الصدر الأعظم يومئذ المرحوم حسين حلمى باشا ، فاجتمعت به للمرة الثانية وذاكرته فى موضوع المسألة الادريسية وأعربت له عن اعتقادى بأن ما احتوته ملفات الباب العالى من المعلومات عن عسير كلها من قبيل الأراجيف وقلت أنه لا يجوزأن نبادر الى حركات نبنيها على مثل هذه المعلومات ، ولا بد من الاطلاع على حقيقة الحال فى موضعها وبعد ذلك أستطيع أن أبدى فى المواقف الرأى الصواب .

وكان الباب العالى قد تلقى من اليمن تقارير ألجأته إلى اتخاذ قرارات مستعجلة ، ومن هذه القرارات أنه قد وضع تحت تصرفى قوة عسكرية بالمقدار

---

(١) راجع منشور الادريسى جـ ٢ ص ٧٧٠ الذى ينفى فيه ما نسب إليه من مثل هذه الأقوال .

الكافى ، وقد أبلغونى ذلك رسميا . فكان جوابى عن ذلك أننى لا أرى من الصواب أن أصحب معى تلك القوة وأنه لا بد من قبل كل شىء من أن أصل إلى هناك وأكون على صلة بزعماء البلاد ومشايخها ، وأتعرف حقيقة الفساد ومصادره . غير أنى طلبت استكمال نواقص الفرق العسكرية الموجودة فى عسير ، وأخذت معى ـ لأجل ذلك ـ بلوكا واحدا من جنود الرشاشات .

وسافرت من الآستانة على باخرة خاصة بلغت بها ثغر « جدة » ثم وصلت الى « القنفذة » ثغر عسير ، وفى القنفذة قمت بتحقيق أمر الادريسى فقيل لى أنه مقيم فى « صبيا » وأنه رجل ناصح مرشد شفيق يدعو الناس الى ما فيه خيرهم حسبةلله لا يطلب على ذلك جزاء ولا شكورا ، وأن القبائل عرفت ذلك فيه فوسطته للفصل فيما بينها من قضايا الدماء وهو يصلح بين المختلفين برضى منهم وينتزع ما فى صدورهم من غل ، ويحاول منع الغزوات فيما بينهم ، ويذيع بين الجميع أنه مستعد لحل مشاكلهم واختلافاتهم بأحكام الشرع الشريف ، فأقبلت القبائل عليه فى « صبيا » من كل حدب وصوب زرافات تبايعه وتنزل على حكمه .

هذه هى حقيقة السحر الذى نسبوه الى السيد الادريسى ، وبذلك استمال الناس إليه .

وكنت وأنا لا أزال فى القنفذة أثنى على أعمال السيد الادريسى ، هذه لدى مشايخ تهامة عسير الذين كنت على صلة بهم ، وأقول لهم أن الدولة ترحب بالرجال الذين يسعون مثل هذا السعى لخير الأمة وتقدر عملهم وتحترمهم . فلما سمع الناس هذا القول عن لسانى وقعوا فى حيرة لأنهم كانوا يعتقدون أن مجيئى ومعى بلوك من جنود المدافع الرشاشة إنما هو لمقاتلة السيد الادريسى .

وبعد بضعة أيام تقدمت بمن معى من القنفذة قاصدا « أبها » قاعدة البلاد وعقب وصولى دعوت مشايخ الجبال وألقيت فيهم خطابا لم أتعرض فيه للادريسى بكلمة سوء . ومما قلته أن الدستور العثمانى معناه الرجوع إلى طريقة الشورى المقررة فى صدر الاسلام ، وقد انقطع منذ اليوم كل ما تقدم من أساليب الظلم

والاستبداد ، وأن باب الحكومة مفتوح لكل متظلم ، وبالفعل منعت الحجاب عن بابى ، وفتحته لكل قادم بلا استثناء ، اتباعا لطريقة الحكم العربية .

وعند وصولى إلى أبها وجدت فى كرسى وكالة المتصرف عبدالله بن عايض ابن الأمير محمد بن عايض آخر أمراء عسير السابقين ، ولم أعلم كيف تولى هذا المنصب ، مع أنى قبل سفرى من الآستانة أستأذنت الصدر الأعظم فى استمالة من أجدهم أهلا للعمل من آل عايض لاستخدامهم فى خدمات الحكومة ، ونجحت فى نيل موافقة الصدر الأعظم على ذلك . ولم يكن الباب العالى يعلم قبل سفرى من الاستانة ان عبدالله بن عايض يشغل وكالة المتصرفية . فأخذت أحقق فى كيفية تعيينه والوقت الذى تولى فيه هذا العمل ، فقيل لي أن أمير مكة حسين باشا كتب الى الباب العالى يستأذنه فى تعيينه لهذه الوظيفة وكتب الى المتصرف السابق يطلب إليه أن يسلمه زمام العمل مؤقتا إلى أن يرد التصديق من الباب العالى على ذلك نهائيا . فدهشت لتدخل حضرة الشريف الى هذا الحد فى شئون عسير دون أن يكون له حق فى ذلك . واستدعيت فى الحال عبدالله بن عايض وقلت له أننى كتبت الى الباب العالى رسميا أستأذن فى إقراره بهذه الوظيفة التى لا بد من صدور الإرادة السنية بشأنها ثم قلت « ولكن النجابة التى أجدها فيك تجعلنى أفتخر بوجودك معى وأود أن أستفيد من خدماتك ، لذلك أنا أوافق على تعيينك معاونا للمتصرفية بالوكالة إلى أن تصدر الارادة السنية بأن تكون أصيلاً .

وبعد بضعة أيام علمت أن تهامة أعلنت الثورة ، وأن قوة من الثائرين يقودها السيد [1] مصطفى أحد رجال السيد الادريسى قد احتلت بلدة « محايل » الواقعة فى الطريق بين أبها قاعدة البلاد وبين ثغرها « القنفذة » وأن الثائرين

(١) هو القائد الادريسى مصطفى بن محمد النعمى من أهل قرية العدايا وقد صار من أبرز القادة فى العهد الادريسى الأول ، وبعد جلاء الأتراك أسندت إليه إمارة رجال ألمع ثم عزل عنها فى عهد علي الادريسى - راجع الحاشية فى جـ ٢ ص ٩٠٩ ثم رحل الى أبها ومنها الى جدة أثناء حصار الملك عبد العزيز لها فقابله وأفضى إليه بحقيقة الوضع فى المخلاف السليمانى - راجع جـ ٢ ص ٩١٠ ، وبعد ذلك عاد إلى صبيا فأقام بها حتى توفى فى سنة ١٣٥٨ هـ . تقريبا بقرية العدايا .

استولوا على مخازن المؤن العسكرية هناك ، وبذلك انقطع خط الاتصال بين أبها والساحل . وكان فى محايل ثلاثين جنديا محافظا فوقعوا أسرى فى أيدى الثائرين ونقلوا الى « صبيا » التى يقيم فيها السيد الادريسى .

وعلى أثر ذلك أذعت منشورا على الأهالى قلت لهم فيه : أننى مندوب من جانب مقام الخلافة العظمى لإقامة أحكام الشرع الشريف بأكملها فى هذه الديار وإذا كان بيننا وبينكم خلاف فانى أحتكم فيه معكم الى كتاب الله وسنة رسول الله . وان مقام الخلافة والسلطنة يود اجتناب ما يؤدى الى سفك الدماء بين المسلمين . وكل من لا يصغى إلى دعوتى هذه سأشهر فى وجهه سيف الجهاد .

وكتبت رسالة خاصة الى السيد الادريسى ذكرت له فيها حادثة « محايل « وقلت له أنت سيد من أبناء رسول الله ، ودولة الخلافة هى الدولة الاسلامية الوحيدة ، وما برحت منذ ستمائة سنة تجاهد بسيفها لاحياء وإعلاء وحماية دين جدك المحترم المكرم ، وهى فى حاجة الى المظاهرة والمعاونة من أمثالك سادات العلماء الذين يفكرون فى خير الأمة ولا تنتظر منك غير ذلك . وإنى أؤمل فيك أن نتكاتف على العمل لسعادة هذا الشعب البائس الغارق فى بداوته فإن لم تفعل تبؤ بغضب الدولة وقهرها وتقع عليك مسئولية دماء المسلمين التى ستسفك فى هذا السبيل .

وأرسلت إلى الأستانة بخبر الوقائع التى حدثت على وجه التفصيل ، وذكرت التدابير التى اتخذتها ، ومما قلته فى عريضتى إلى الأستانة :

« يجب أن لا يتدخل أحد من الخارج فى شئون عسير ولا سيما أمراء مكة الذين يجب أن تنقطع كل علاقة لهم بهذه الجهة . وأن الذى يشكوه الأهالى هنا هو عدم وجود حكومة . والسبب الأعظم فى شهرة السيد الادريسى هو أنه قبض فى صبيا على بضعة أشخاص من القتلة المجرمين فنفذ فيهم حكم الاعدام ، وعالج مسألة الدماء السابقة بين القبائل فأعلن إسقاط حقوق الثارات كلها برضى جميع القبائل ، وأزال مابين الناس من تنافس وغل ، وخلصهم من جميع الضرائب فاقتصر على أخذ الزكاة الشرعية منهم فكانت أعماله هذه مما حببه إليهم ، ورفعه

فى عيونهم . لذلك التمس من الباب العالى أن يأذن لي بتنفيذ أحكام الشريعة والعمل بعرف البلاد وعاداتها وأنا الضامن لحل مشكلة عسير واستمالة الشعب وتأليف قلوبه . وإذا لم يوافق الباب العالى على ملتمسى هذا فإنى مضطر الى تقديم إستقالتى » .

أما المشايخ فأجابونى على منشورى قائلين :

« ما دمت عازماً على العمل بأحكام الشرع فإنه لم يبق بيننا وبينك خلاف » .

وأما السيد الادريسى فجاءنى منه جواب على رسالتى يقول فيه إن حادثة محايل وقعت على غير علم منه وإن القبائل علمت بخبر بلوك المدافع الرشاشة الذى حضر من الاستانة ، فظنت أن فى النية استعمال ذلك فى قتال محلى فحركتها الغيرة الجاهلية ، وحدث ما حدث بسبب ذلك . قال : ولما بلغنى الأمر كتبت إلى القبائل أنصح لها بالإخلاد إلى السكينة فأذعنت لنصيحتى ، وستعاد لكم الأسرى وكل ما أخذ من المخازن [1] .

وأعرب السيد الادريسى عن امتنانه مما ورد فى رسالتى إليه ، ووعد بأنه سيساعد ما استطاع إلى المساعدة سبيلا لإصلاح عسير ، وصرح بأنه لا رغبة له فى رياسة أو حكومة وإنما يريد الخير لهذه الأمة حسبة لله تعالى وهو يدعو للخلافة الاسلامية بالخير والاصلاح .

ثم قال : وقد فهم بعضهم أن الحرية التى هى من لوازم الدستور ستحدث فوضى فى علاقة الزوجات بأزواجهن وتزيل أحكام الشرع ، وأن جنودا من الأجانب سيدخلون سواحل عسير بدعوى أنهم جنود عثمانيون ، وأن الدولة ستقضى على سلطة المشايخ ، وأن هؤلاء لبساطتهم وجهلهم يصدقون ما يقال من هذا القبيل ولعل ذلك من أسباب هياج الناس وثورتهم .

---

(١) لاحظ مرونة الادريسى ورده عمليا وحربياً على بلك الرشاش الذى رافق المتصرف الجديد سليمان شفيق ، رده بصورة غير مباشرة ، ثم عندما كتب له المتصرف أسند تلك الحركة الى القبائل ، وتخلص من التبعة .

وعلى أثر هذا الكتاب من السيد الادريسى عادت السكينة إلى تهامة عسير ، وسكنت نار الثورة سكونا مؤقتاً . وأنا أرى أن الادريسى كان يخادعنى بكتابه ، وأنه إنما نحا هذا المنحى فيما كتبه إلي لأنه أدرك ما كان لمنشورى على الأهالى من حسن الوقع فى قلوبهم ، لأن المنشور ذهب بجميع الوسائل التى كانت تدعو إلى الثورة .

ولكن الناس كانوا بعد أن سمعوا منى هذه الأقوال ينتظرون تحقيقا بالعمل ؟ .

إن الدولة العثمانية التى احتلت عسير منذ اربعين عاما اكتفت بأن اتخذت لنفسها بضعة مراكز عسكرية ،وكانت صلتها بالأهالى مقصورة على قيامها ببعض الحركات العسكرية بين حين وآخر لجباية الزكاة ، أما اختلافات الأهالى فيما بينهم فكانت الحكومة فى معزل عنها ويا للأسف ، فكان الناس يرون أنهم لا حكومة لهم ، وأنهم مسلوبو الراحة والأمن العام وهم ينتظرون الفرج بظهور رجل مصلح يتولى فيهم أمر الحكم .

إذن فالعسيريون لم يكونوا يشتكون من الحكومة بل من عدم وجود حكومة . وقد شعر الادريسى بهذا النقص ووقف على هذا السر ، فبادر إلى موافاة الناس بما كانوا يشكون حاجتهم إليه ، واكتسبت شهرته الأولى حتى فوزه الأخير بسبب ذلك .

ولما علمت ذلك بادرت إلى اختيار مفتى عسير الذى هو موضع ثقة الشعب فوليته القضاء وجعلت استعمل جنودى فى القبض على من يحكم عليهم القاضى من القتلة فأنفذ فيهم حكم الاعدام الذى يحكم به الشرع عليهم . وقد كان لذلك وقع عظيم عند الأهالى الذين لم يسبق لهم أن رأوا مثل ذلك فى السابق .حتى أن السيد الادريسى نفسه كتب إلي رسالة شكر ختمها بالدعاء لى .

وكان قد جاءنى من الباب العالى جواب التماسى ، وفيه أن مجلس المبعوثان قرر العمل بأحكام الشريعة فى عسير ، وصدرت الارادة السنية بأن تكون أحكام المحكمة الشرعية نهائية فى ذلك وأن لنا أن ننفذ الأحكام دون أن نستأذن من

الاستانة ، وأن من الواجب أن نضع الأنظمة الموافقة لعرف البلاد وعاداتها ونرفعها الى الباب العالى للموافقة عليها .

ان السلطة التى منحتنى إياها الدولة كانت واسعة النطاق ، غير أن المهمة التى أخذتها على عاتقى كانت مشكلة جدا . نعم إن أهالى عسير أهل فطرة وصفاء وإخلاص ، ولو كان الأمر بينى وبينهم فقط لكان التفاهم معهم سهلا غير أن هنالك رقيبين مدهشين أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب - الشريف حسين والسيد الادريسى - وأن مقارعة شباكهما مما يدعو الى التفكير . فالأول من هاتين الشخصيتين المهمتين قد توشح بالراية العثمانية من جهة الشمال معتمدا على رجال فى عاصمة السلطة ينخدعون بالظواهر ، وأما الثانى المقيم فى الجنوب فانه ارتدى برداء الزهد والتقوى والتزوير معتمدا على أصدقائه فى الخارج وكنت أنا بين هذا وذاك فى وجل من الألعاب التى سيلعبانها وما سيأتى منهما من ضربات مدهشة . وأن الزمان والتاريخ قد أظهرا أننى كنت محقا فى جميع مخاوفى .

* * *

مقدمات الثورة فى عسير

عادت السكينة إلى عسير على أثر الحادثة الأخيرة ولكن طرق أبها والقنفذة لم يبسط الأمن ظله عليها تماما . أما الأسرى فزعم السيد الادريسى انهم ممتنعون من العودة إلى مراكزهم لأنهم يخافون أن يقعوا تحت طائلة العقاب لأنهم استسلموا للثوار دون استقتال فى الدفاع عن مركزهم . وأما المؤن التى أخذت من مخازنها فقد تعلل السيد بمعاذير واهية فى أمر إعادتها الذى وعد به . والسبب الحقيقى فى توقفه عن إعادتها أنه لا يريد أن يفهم القبائل أنه نزل على إرادة الدولة وأذعن لطاعتها ، وكنت أعلم أنه يرى الاستمرار فى معارضته للحكومة . من أجل ذلك تظاهرت بتجاهل خطته ، وكتبت الى مركز السلطة أصف لهم الحالة ، وقلت : إن إثبات حسن نية الحكومة الدستورية الجديدة للأهالى والاعراب عن مقاصدها الخالصة لا يمكن أن يكون قط بالكلام ، ولا بد من تأكده بالأعمال . وما كان كل من الظلم والعدل ليقوم ويدوم إلا بالسيف ، فأنا أقترح أن يعزز الباب العالى القوات الموجودة فى عسير بفرق جديدة لا لأجل استعمالها فى حرب بل لاستعمال سطوتها وهيبتها فى نشر العدل وتوزيعه ، ويجب أن تنزل هذه الفرقة فى ثغر « جيزان » الذى هو على مسافة خمسة [1] وعشرين كيلو مترا فقط من « صبيا » مركز الادريسى .. بعد ذلك أستطيع أن أتكلم مع الادريسى بلا برقع وأسعى

---

(١) المسافة بين جازان وصبيا القديمة ٣٢ كيلاً ـ راجع كتابنا المعجم الجغرافى لمنطقة جازان الطبعة الثانية ص ٥٠ ـ وراجع ص ٢٤١ المصدر نفسه عن الطريق التاريخى القديم بين جازان وصبيا الذى كان يسلك من قديم الزمان الى سنة ١٣٩٠ ، ثم رأت مصلحة الطرق تخطيط خط الأسفلت الحالى الذى هو شرق الطريق الأول بنحو ستة أكيال فى بعض المواقع وأكثر فى بعض المواقع الأخرى ..

لتأليف قلوب الأهالى بكل إخلاص تحت ظلال السيوف .

وفى الوقت نفسه كنت أتصل بالأهالى ، وأستمع إلى شكاويهم ، وأعدهم بأن الحكومة ستجيب المعقول من طلباتهم بنية حسنة تامة ، وأنها لن تجعل مجالا لوقوع شىء من الظلم والاستبداد .

إن القوة التى كانت معى فى مدينة « أبها » يبلغ عددها ألفين من الجنود ، وكانت القبائل تستخف بهذه القوة ، ولا تقيم وزنا للمواعيد التى أعدهم بها ، وتعتبر ذلك من حيلة الضعيف ، مع أنى مفطور على كره الحيل والدسائس .

أسفت لما علمته من نظر الأهالى إلى قوتى نظر الاستخفاف ، غير أن ذلك لم يبعث اليأس فى نفسى فآليت أن أقابل الحالة الحاضرة بعزيمة وثبات .

وفى خلال ذلك جهزت لى الأستانة فرقة مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى ، ولكن بالرغم من التماسى أن يكون إنزالها فى ثغر « جيزان » القريب من الأدريسى تقرر نزولها فى ثغر « القنفذة » البعيد عنه ، وفضلا عن ذلك فقد علمت أن بعض رجال اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقى أرسلوا من الأستانة إلى عسير بعض أشخاص غير مسئولين ليكونوا على صلة بالادريسى ويقفوا مباشرة على مقاصده منعاً من سفك الدماء فى عسير بلا سبب على زعمهم ، وكانت المراسلة جارية بينى وبين الادريسى على غاية من الصداقة والوداد ، فلما علم الادريسى بوصول قوة جديدة إلى القنفذة حسب لها حسابا وازداد فى رسائله تظاهراً بالود والصداقة ، وكتب لى : إن الأهالى مرتاحون إلى عمل الحكومة بأحكام الشرع الشريف فى عسير . ثم كتب لي كتاباً آخر يقول فيه : إنه قد وصل إليه أشخاص قادمون من الأستانة وإنه تفاوض معهم فى شكل الادارة التى ينبغى تقريرها فى عسير ، وإنه أبلغهم اقتراحاته فى ذلك ، فاذا وافق الباب العالى على هذه الاقتراحات فإن ذلك سيكون من بواعث الراحة لى وله . قال : وأما إذا لم توافق الأستانة على تلك الاقتراحات فإنه يتنصل من تبعة كل ما يقع من الحوادث فى المستقبل .

ولما قرأت كتابه علمت أن لعب الأيدى غير المسئولة فى مستقبل عسير يدل على مستقبل محزن . وكتبت إلى الاستانة تقريرا ذكرت فيه أن مثل هذه المساعى

والمحاولات لن تأتى بنتائج مثمرة ، وأن الأنظمة الجديدة التى يراد وضعها لعسير وغيرها من البلاد العربية يجب أن يرجع فيها إلى الرجال المسئولين لا إلى الأشخاص الذين يرمون إلى مقاصد مخصوصة .

وما دمت أنا القابض على زمام الأدارة فى عسير وتقع مسئوليتها على عاتقى فليس من الصواب أن يرجع فى مثل هذه الأمور الى غيرى . وفى أثناء ذلك وصلت الفرقة الجديدة إلى القنفذة بكل ما معها .

وجاءنى أمر من وزارة الداخلية قيل فيه أن قائد الفرقة التى وصلت إلى القنفذة وأن أشخاصا آخرين سيذهبون إلى « صبيا » لمقابلة السيد الادريسى وانه يجب أن أكون أنا أيضاً معهم فى هذه الزيارة لمفاوضة السيد فى الحالة الحاضرة فاضطررت إلى الموافقة على ذلك إضطراراً ، وفى يوم ٤ كانون الأول سنة ١٣٢٥ « ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٩ » بارحت « أبها » إلى « صبيا » من بلاد تهامة عن طريق وادى ضلع فوجدت زملائى قد سبقونى إلى هناك .

أما السيد الادريسى فانه دعا إلى صبيا من القرى المجاورة لها نحو أربعة آلاف رجل مسلحين لاستقبالى واكرامى فى الظاهر ، وليفهمنى فى الباطن أن لديه قوة . وأرى أنه هو الذى خدع مندوبى جمعية الاتحاد والترقى الذين حضروا إليه من الاستانة وأقنعهم بدعوتى الى صبيا ، لأفاوضه فى الأمر ، فاستصدر مندوبو الجمعية أمراً من الباب العالى بتوجيهى إلى صبيا وغرض الادريسى من ذلك أن يوهم الأهالى أن متصرف عسير وقائدها حضر إلى صبيا لمبايعته فيزداد الادريسى بذلك نفوذا . وكنت أنا مدركا مثل هذه الدسائس فى حينها غير أننى لم أكن مطلق اليد فى اتباع الخطة التى أريدها .

وأفهمت الادريسى فى اجتماعاتنا معه أن الحكومة حسنة النية ، وأنها تجتنب سفك الدماء وتريد راحة الناس ورفاههم . وقلت له : إننا نودّ الاستفادة من سيد علم مثله تلقى العلوم فى مصر زمنا طويلا ، وأحاط بمغازى السياسة العامة ، وأن من الواجب أن نتكاتف على اسعاد عسير وإعمارها ، غير أنه لا يمكن الجمع بين سيفين فى قراب واحد ، وأن بلاداً واحدة لن تكون ذات حكومتين ، وأن فى

الامكان أن توجه الدولة إليه عنوان رئيس المحاكم الشرعية مثلا [1] ، وأن تصدر الأحكام باسم الخليفة ويزول بذلك كل اختلاف ويقضى على ما كان بيننا من سوء تفاهم .

فأجابنى على ما تقدم قائلا : أنه لا طمع له برياسة ، وأن القبائل اعتادت أن تلجأ إليه برضا منها لحل ما بينها من مشاكل ، وأنها تطلب إليه أن يسعفها بالمرشدين لإزالة ما بينها من ضغائن ، فهو يخدم الأمة بذلك مكتفيا بما يرجوه من ثواب الله فى الآخرة .

وفهمت أنا أن الادريسى يريد مخادعة المندوبين الذين حضروا من القنفذة وإقناعهم بأنه لا حاجة إلى الفرقة العسكرية التى أرسلت من الأستانة ليرفعوا تقريرهم بضرورة إعادتها ، ففكرت بأن أختصر القول معه واقترح عقد اتفاق ولو كان موقتاً . وعلى ذلك قلت له : حسن ما تقولون ، وأنا أوافق على مباشرة من ترسلهم إلى القبائل من المرشدين لحل مشاكل تلك القبائل صلحاً ، ولكن أشترط أن يكون مع المرشدين المذكورين موظف أندبه أنا لمرافقتهم وتكون له الرياسة عليهم . فوافق الادريسى على ذلك وانتهت المفاوضة دون أن أفتح مجالا لبحث آخر .

وعلى أثر ذلك نشرنا منشوراً على جميع القبائل موقعا عليه باسمى واسم السيد الادريسى معاً أوصيناهم فيه بالتزام السكينة ، وقلنا لهم : إذا ظهر أى اختلاف فإننا سنوافق بينهم على أحسن حال .

---

(١) اختلاف بين نظرة متصرف عسير ونظرة الادريسى ، فالمتصرف سليمان شفيق يعبر عن عاطفته نحو الخلافة العثمانية قوميا ، فليس فى نظره هناك إلاّ الأتراك الذين تمثلهم الخلافة أو الأجانب الطامعين فى بلاد الاسلام أو بالأصح الامبراطورية العثمانية ، وما العرب ـ جميع العرب ـ إلا رعايا عثمانيين يجب عليهم الاقرار بعظمة الخلافة والمسير تحت طاعتها التى هى فى الحقيقة ما هى إلاّ طاعة الأتراك . والادريسى الثائر العربى الذى يشاهد مأساة العرب وسيطرة الأتراك على أوطانهم أو اهمال شئونهم الدينية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية وتَرْك أقطارهم تموج بالمظالم وتئنّ من سلطانهم وتعج بالفتن وإن قام الأتراك بعض الاصلاحات فليس ذلك إلاّ من أجل خدمة مطامعهم الطورانية ولغتهم التركية ومواصلاتهم الحربية .

وكتبنا إلى الباب العالى بصورة ما دار فى المفاوضة وبالنتيجة التى توصلنا إليها ، وقلنا بضرورة إرجاع الفرقة العسكرية التى وصلت أخيرا إلى القنفذة . غير أننى مع ذلك كتبت إلى الباب العالى أبلغه أن هذا الاتفاق لم يكن صادقا وأنه ينطوى على زغل (١) . وعادت الفرقة العسكرية إلى الأستانة ورجعت أنا إلى أبها .

إن من دأب الادريسى أن يلجأ دائما إلى طرق الحيلة والتزوير ، ويخلف المواعيد التى يعد بها ، ويحاول الاستفادة من كل وسيلة لتقوية مركزه وزيادة نفوذه . ومن ذلك انه بعد هذا الاتفاق كان كثيرا ما يرسل رجاله إلى القبائل بلا علم منى ودون أن يكون مع رجاله موظف من قبلى ؟ . وإذا ارتكب أحد جريمة القتل فى جهاتنا وفرّ إلى صبيا فإنه لا يجيب طلبى بتسليمه بل يعتذر بأن الرجل دخيل عليه وأن تسليم الدخيل لا يجوز فى عادات العرب ، ويطلب أن ترسل ورثة القتيل إلى صبيا ليحاكم المتهم ويقيم عليه الحد الشرعى إذا ثبت عليه الجرم . مع أن المقتول قد يكون من أفراد الجند ، وقد يكون الشهود فى أبها ، فيتعذر انتقالهم إلى صبيا . وفضلاً عن ذلك فإن الاتفاق المعقود بيننا يقضى بأن أحكام محكمة صبيا لا يمكن إنفاذها ما لم يصادق عليها منى ، نيابة عن مقام الخلافة ، فكان ينبغى له بناء على ذلك أن يرسل القاتل الى محمكة أبها الشرعية ، ولكن السيد الادريسى كان لا يجيب إلى ذلك .

ومن غلطات الحكومة من قبل ومن بعد أنها اتخذت القنفذة ثغرا لأبها وهى واقعة فى شمالها الغربى فى طريق ملتفة طولها مائتان وخمسون كيلو مترا ، مع أن فى الغرب الجنوبى من أبها ثغراً اسمه « الشقيق » على مسافة مائة كيلو متر فقط منها . فعزمت أن أتخذ الشقيق ثغراً لأبها ، وأرسلت جندا للنزول فيه . فاعترض

---

(١) زغل : الصواب : دغل بالدال المهملة والغين المعجمة وآخره لام . والدغل : حقيقة الشجر الملتف الذى يتوارى فيه الشخص للختل والغيلة والغدر ، قال الشاعر الكميت :

لا عين نارك عن سارٍ مغمضة ولا محلتك الطيطاء والدغل

السيد الادريسى مدعيا أن القبائل لا تسمح بإرسال الجند من ذلك ؟ فأجبته أن للحكومة الخيار فى سلوك أقرب الطرق إلى مقاصدها فى بلاد هى ملكها الصريح ، ولا يضير القبائل أن ينتقل جند الحكومة حيث شاؤوا . أما إذا طلبت القبائل طلباً غير معقول لمقصد غير مشروع فينبغى أن تسدى إليهم النصائح منكم ومنى ، وإذا لم يصغوا إلى نصائحكم ونصائحى وجب تأديبهم ، ويقوم كلانا حينئذ بواجب تأديبهم . وقد فهمت أن الذى يسوءه سلوك الجنود ورجال الحكومة هذا الطريق هو الادريسى نفسه لأننا نتصل حينئذ برجال القبائل الذين فى هذه الجهة ونستميلهم إلينا (١) .

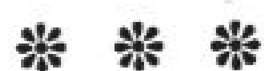
وفى ذلك الحين علمت أيضا أن هناك اتصالات بين الادريسى والايطاليين . وأن أولاد أخيه الذين فى مصر يترددون على مقام سام فيها لعقد الأواصر بينه وبين السيد . فلفت أنظار الباب العالى الى كل ذلك ، وطلبت أن يوعز إلى « القوميسيرية العثمانية » فى القاهرة بأن تراقب الأمر وتوافينى بالمعلومات فى حينها .

وفى ذلك التاريخ كان الادريسى يراسل القبائل سراً ويقول لهم : انه لا يبغى لنفسه رياسة ولا سلطة ، وإنما يريد أن يبقى كل شيخ على رأس قبيلته ، وأن لا يكون بين قبيلة وقبيلة تنافس ولا عدوان ، ليتمكنوا من اخراج الأجنبى من ديارهم . ومع أن كثيرا من المشايخ كان فاهماً أن الادريسى يسعى لنفسه فى أمر عظيم فانهم كانوا يلبون دعوته إلى الوحدة بين القبائل لأن فيها قوة لهم تجاه الدولة ، فتواطئوا جميعا على الاتحاد العام ضد الحكومة ، واتفقوا هم فيما بينهم متى تمكنوا من إخراج الترك من عسير وصفا لهم استقلالهم فإن من السهل عليهم

(١) كلاهما يتصرف عن غرض ، فميناء الشقيق هى ضمن منطقة ثورة الادريسى وقبائل الشقيق وقبائل الدرب والقحمة تحت طاعة الادريسى ، وانما سليمان شفيق يريد من ارسال الجند اقتطاع جانبا مما قد احتوتهم ثورة الادريسى بحجة أن يجعل منه ميناء لأنها بدل ميناء القنفذة .
والادريسى أدرك اللعبة فأوعز إلى القبائل بطرد الجند التركى ، وفعلاً قامت القبائل بطردهم .

إخراج الادريسى أيضا لأنه غريب [1] عن بلادهم فليس له عصبية تحميه وتثبت له مركزه وقد أكد لى ذلك بعض أصدقائى من المشايخ أنفسهم .

ولما كانت مقدمات ثورة عسير هى مبتدأ الحوادث الأخرى فى بلاد العرب اضطررت إلى إثبات هذه التفاصيل توطئة لما بعدها .



(١) ان لفظة غريب لا تنطبق على شخص الادريسى ، فأولاً أن جده وفد إلى المنطقة فى سنة ١٢٤٨ وأسس طريقته الأحمدية وأصبح له نفوذ روحى ومركز دينى أورثه لابن محمد بن أحمد الذى بدوره ورث تراثه ومركزه لابن على بن محمد بن احمد . وثانياً : إن على بن محمد بن احمد ادريس ورث نفوذ مركز جده ، ثم والده وعَمَّق تأثيره الروحى وأصبح فى نظر أهل الجهة الزعيم الوحيد روحياً واجتماعياً : ثالثا : إن محمد بن على بن محمد بن احمد من مواليد صبيا ، ولولا ما يتمتع به من مركز موروث لما كان له هذا النفوذ .

تعلق الأهالي بالسيد الادريسي

علم القراء أن السيد محمد الادريسى الذى ظهر فى « صبيا » الواقعة فى الجنوب الغربى من عسير على مسافة مائة وخمسين كيلا قام بأعمال لفتت إليه الأنظار، وقصد الناس زيارته من جميع أطراف البلاد، وأعطوه عهد البيعة ومواثيقها [1] وممن قصده للزيارة الشيخ محمد بن عبدالله بن خضرة أحد بنى مالك ومن علماء الجبل المعروفين بالصلاح. وقد كتب لي الشيخ محمد بن عبدالله كتابا يعرب فيه عن ميل الناس إلى السيد الادريسى وثنائهم عليه. وهذا الكتاب محفوظ عندى بنصه. وقد وصل إلى يدى يوم ٢٤ تشرين الأول سنة ١٣٢٥هـ [2] « ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٩ م » وهذه صورته:

الحمد لله وحده، من محمد بن عبدالله إلى حضرة من أصلح الله سريرته ونور بصيرته، وحمد سيرته، سليمان باشا وفقه الله للحق والعدالة، وحرسه من جلساء السوء.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: قد توجهنا إلى زيارة سيدنا وسيد الجميع محمد بن على بن ادريس عمّر الله به الاسلام، ونصر به سنة سيد الأنام. وهو داع إلى ما يسكن الفتن، وإقامة الحق والسنن. هاد للرعية إلى الطريقة المحمدية. ويحضهم على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وطاعة الخليفة

(١) راجع كتابنا المخلاف السليماني جـ ٢ ص ٦٢٦ الفصل الثانى بعنوان الامام محمدالادريسى.

(٢) إن صاحب المذكرات يؤرخ بالتاريخ الهجرى التركى أو بالأصح العثمانى وبعده التاريخ الميلادى وهنا نجد فرقا بين التاريخ الهجرى العثمانى والهجرى الاسلامى العربى سنة واحدة وثلاثة شهور تقريبا.

سلطان الاسلام . فلو عرفت نيته وما دعا إليه لتوجهت إليه ولو حبوا . وقد صارت فيك مذاكرة حميدة بأنك محب للعلماء وأنك مجتهد فى إقامة الشريعة وإزالة الباطل . وقد وفد إليه أهل الاسلام ، وتألفت قلوب العباد . فوقع الأمان ، وظهر الايمان . فالحمد لله على ذلك . أحببنا نعرفك بذلك لما نرى فيك من الصلاح . ولو كان غيرك ما كتبنا إليه حرفا واحدا ، وما قط كاتبنا أحدا قبلك ، بل نحن أهل عزلة عن الخلق . وفق الله الجميع لما يرضى الله . والسلام .

الختم : محمد بن عبدالله

ولّما قرأت هذا الكتاب عولت على اجتناب سياسة الغش وكل ما فيه مخادعة لقلوب الناس ، وأن أقوم بأعمال تلائم الحق ، منعاً لكل سوء تفاهم مع الشعب . وفى اعتقادى أن الناس يتبعون الظواهر ، وهم فى غفلة عن مقاصد الادريسى الخفية التى رسمها للمستقبل ، فجعلوا يسيرون وراء ناره يحسبونها نورا . وما برحت الانسانية البائسة - حتى فى البلاد المتمدنة تنقاد فى سبيل سعادتها وهنائها لفئة من مهرة المتشردين [1] فتجعل نفسها آلة فى يدهم حتى يبدلوها من السعادة شقاء ونكبة . ومن المستحيل أن يفهم الناس الحقيقة وهم فى هذه الحالة بطريقة الصراحة والارشاد ، بل لا بد من تلقيح الحق فى إفهامهم مع الزمن بإخلاص وعزم ، وباللسان الذى يلائم أفهامهم ومن هذا القبيل أمر الادريسى فى عسير ، فانه لم يكن ممكنا فى ذلك الحين أن أقول كلمة واحدة أمام الناس فى ذمه ، بل كان ينبغى لي أن أتظاهر بأنى مصدق لما يصدر عنه من أقوال كاذبة ، منتظراً مساعدة الحوادث على تفهيم الحقائق للناس . وفى الوقت نفسه كنت أحاول إرشاد الذين يخاطبوننى من الأهالى وتفهيمهم الحقائق بقدر المستطاع وأسعى

---

(١) إن الامام الادريسى ليس من فئة المتشردين ، بل هو زعيم من زعماء الأمة العربية الكريمة يتصف بالعلم والدهاء والحنكة السياسية ، وهو أول زعيم عربى ثار على الاتراك فى النصف الأول من القرن الرابع عشر .

ان هذا النّعت الذى يطلقه هذا المتصرف على سيادة الإمام الادريسى ، فيصنفه فى فتية مهرة المتشردين ، لهو من فحش القول الذى لا يليق بمثله .

لتأييد أقوالى بأفعالى . وقد جنيت ثمرات هذه المساعى فيما بعد أثناء الحروب التى نشبت بيننا وبين الادريسى فى عسير وبعد وقوع الحصار ، إذ أصبح القسم الجبلى من البلاد مطيعاً لأمرى ومحباً للدولة . وأن الأهالى الذين كانوا يقاتلوننا مع الادريسى عادوا عندما نشبت الحرب الطرابلسية إلى الانضواء تحت راية الخلافة متألبين على أعوان الادريسى . ومن نتائج ذلك أيضا أنه لما انقطعت السبل بجنود الدولة عقب إعلان الحرب العظمى حافظ الأهالى على جنودنا فى عسير بكل احترام . وعلى ذلك فقد كان أول ما اهتممت له تصحيح أفكار الناس من جهة الدولة ، وتمكينهم من مباشرة أمورهم بأنفسهم .

وقد علم القراء من مقالاتى السابقة أننى عقب وصولى إلى عسير جريت على تنفيذ رغبة الشعب فى العمل بأحكام الشرع وتنشيط المحاكم الشرعية ، وانتخاب أحد علماء البلاد ممن نال ثقة الأهالى لتوليته القضاء فى عسير ـ وكان القضاة يعينون من الاستانة ـ وبذلك توصلت إلى اكتساب رضى الشعب بتحقيق ميوله وجعل جميع رجال المحاكم الشرعية ممن هم موضع ثقته ، ومعنى ذلك أن الحكومة صارت غير مسئولة ـ من الوجهة المعنوية ـ عن الأحكام التى تصدر من تلك المحاكم ، إذ كنت أحيل كل قضية صغيرة كانت أو كبيرة على المحاكم الشرعية وأجيز بالنيابة عن مقام الخلافة العظمى الأحكام التى يصدرها القضاة الشرعيون ، ولم يعد لصديق أو عدو حق بالاعتراض علينا من هذه الجهة أو أن يشكو من سير العدل فى حكمنا .

وأردت أن أختار لمنصب قاضى المحكمة الشرعية فى عسير الشيخ محمد بن عبدالله بن خضرة قاضى قبيلة بنى مالك الذى نشرت كتابه لي آنفا ، لأنه اشتهر بعلمه وفضله وعدله ، وعينت له راتبا خمسين جنيها عثمانيا ذهباً فى الشهر ، وكتبت إليه أبلغه فى التعيين . ولكن الرجل أبى أن يقبل هذا المنصب وكتب إلي يعتذر بعدم كفاءته لتولى هذا العمل ، ويقول : أنه ما برح عائشا عيشة العزلة عن الناس . وهذا نص كتابه فى هذا الباب :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبدالله ، إلى حضرة الرشيد الفاضل ،

السديد العاقل ، المصلح العادل ، سليمان باشا أصلح الله أمره ، وأعظم أجره ، وغفر وزره آمين .

السلام عليك ورحمة الله وبركاته . وبعد وصلنا جوابكم . من جهة ما ذكرتم من هذه الوظيفة الشامخة الرفيعة الطاهرة ، أصلح الله بكم الرعية ونجاكم من كل سوء وبلية ، إنما أنا مقصر جهد التقصير ، والله ما معى علم ولا صبر يسترنى من الله فى هذه الرتبة الرفيعة ، وأنا رجل فقير صاحب عول ـ خمسة عشر أطفالا ومرضى ـ وصاحب عزلة عن الخلق : مقدار أربعين سنة ما أمسيت فى المركز غير ليلتين فى زمن أحمد فيضى وليلة فى زمن محمد أمين . ولي عشرون سنة ما نزلت السوق . وأيام المحاصرة ما خرجت من بيتى صاحب عزلة عن الخلق مقصر عاجز عن أداء حقوق هذه الوظيفة . فأنا لائذ عائذ بوجه الله ثم بوجه رسول الله ثم بوجه سلطان الاسلام ثم بوجهك . لا تجبرنى على ما لا قدرة لي به . فوالله وبالله مالى قدرة ولا صبر ولا معى علم يسترنى من الله . ولولا عولى لفررت حين بلغنى جوابكم . ثم تذكرت قوله ﷺ : كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » وإن زعلت علينا هربت إلى الحرم أو إلى قطعة من الأرض حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله فلا يروع مسلما » ، وكثير من جلسائك من يعرف تقصيرنا وطبيعتنا . نستغفر الله العظيم ونتوب إليه . ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم ، الأمان الأمان الأمان وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ، والسلام .

الختم : محمد بن عبدالله

والغريب فى أمر محمد بن عبدالله خضرة قاضى بنى مالك أنه رجل فقير ، واعتذاره عن رفض وظيفة مهمة مثل قضاء عسير براتب شهرى قدره خمسون جنيها ذهباً ليس ناشئا عن عجزه العلمى أو اختياره العزلة كما يقول ، وإنما سببه الحقيقى أن الرأى العام فى سكان عسير كان ينظر إلى الحكومة العثمانية حتى ذلك الوقت بأنها قوة مسلحة وسلطة على الخلق ، وأن خدمتها مما لا يلائم مصلحة الوطن ، فكان يرى محمد بن عبدالله بن خضرة أنه إذا قبل المنصب الذى

عرضته عليه سيسقط من نظر الناس ويزول حسن ظنهم به . ولما علمت ذلك بادرت إلى كتابة الكتاب الآتى إليه « سنة ١٣٢٧ » محاولا إزالة هذه العقيدة الباطلة من ذهنه ، وهذا الكتاب يتضمن الجواب على رسالته الأخيرة والتى قبلها :

« الحمد لله الواحد المطلق . والسلام على سيد الأولين والآخرين سيد الأنام وخاتم النبيين » .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد وصلنى كتابكم البليغ المختصر . وأن العلماء العاملين هم عماد الدين ومسند المسلمين وآل بيت الرسول مفخر الموحدين . وإذا لم يكن منهم للأمة ما تستند إليه ، ولم تر فيهم ما تفتخر به ، فانها تبقى فى ظلام بينما العلم والتقوى سراج منير أحسن الله بهما إلى من اختارهم من عباده ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور . فكيف تخفى أنت هذا السراج الوهاج عن اخوانك فى الدين وهو وديعة الله عندك بينما هم فى ظلمات الضلال ، وترضى بأن يسقطوا فى هوة الفساد . أن مثلك كمثل غنى ملأ مخازنه بالمئونة وجلس فى نافذة بيته ينظر إلى بنى قومه يموتون من الجوع ويبخل بحبة من خيراته المخزونة . وأن مثلك كمثل رجل يرى الطفل يسقط فى الهوة وفى امكانه انتشاله فيتركه يتّردى فى الهلاك مدعيا أنه يموت بقضاء الله وقدره .

« إن غرضى الوحيد هو سعادة البلاد وسلامتها واتحاد المسلمين وصلاحهم وللوصول الى هذه الأمنية أضحى الدنيا وما فيها وأضحى حياتى أيضا عند اللزوم وقد نصحتم لي بالاجتماع بالسيد الادريسى ، فإذا كنت تكتب لى مؤكدا أن فى مقابلته فائدة لأخوانى فى الدين فإنى أسير إليه ماشياً على الأقدام .

وأنا إنما حضرت إلى هنا من جانب الخلافة العظمى لتحقيق راحة عبادالله ورفاهيتهم ، فأنا خادم هذه المقاطعة . وعلى ذلك فإنى لا أملك الاختيار فى الحركات المتعلقة بشخصى . غير أنه لا يجوز للمسلم أن ييأس . وفيما أنا أعمل بصبر وثبات أخشى أن أبقى فى هذا البلاد بلا معين . »

والنبى ﷺ مع أنه فى غنى عن كل الناس قد أيده الله بأصحابه الكرام فنشر بهم الدين وأعلى كلمة الله ، ليرشدنا إلى هذا الطريق فى التماس الأسباب . وجميع عظماء المسلمين أمضوا حياتهم بالاجتهاد وكثير منهم شرب كأس الشهادة فى هذا السبيل . أما العزلة والأنزواء فمما لا يرضى به أحد .

وإن موقفنا المقلق الذى نحن فيه يخشى أن تكون عاقبته والعياذ بالله حدوث الشقاق والانقسام بيننا وخروج البلاد كغيرها إلى يد الأعداء . فإذا كان العلماء يمتنعون فى مثل هذا الوقت الرهيب من أن يجاهدوا فى سبيل العمل وإذا كان رؤساء المشايخ يلجأون إلى طريق التزوير فى تنفيذ أحكام الشريعة الأحمدية فماذا تكون عاقبة أمة محمد البائسة ؟ وكيف يتخلصون من مسئولية ذلك المعنوية! ومن لعنة التاريخ والأحفاد فى الدنيا ؟ .

تقول : أنك لم تكتب لأحد غيرى ممن تولى الحكم قبلى . وقد تكون على صواب فى ذلك فيما مضى ، وأما الآن فإن الخلافة العظمى قائمة بالحق ، فإذا أنت لم تنبهنى فيما بعد إلى كل شىء فانك لا تكون مخطئا فقط بل تكون مذنبا .

وأختتم كتابى بتقبيل يديك المباركتين المحترمتين ملتمساً منك أن تكون ظهيرا لهذا المخلص فى أمور الخير لأن التعاون على الخير من واجب الذمة .

سليمان شفيق كمالي متصرف عسير

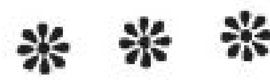
وقائدها فى ٥ تشرين أول ١٣٢٥ هـ .

ولما وصل هذا الكتاب إلى محمد بن عبدالله بن خضرة حضر حالا إلى أبها لزيارتى ، فنزل ضيفاً على . وقال لى عندما اجتمع بى : أنه قد أثر كتابى فى نفسه تأثيرا عظيما وعجز عن مقابلته بالكتابة .

ثم قال : وان ما جاء فى كتابى من أن السعى لخير الأمة واجب الناس هو صحيح ولكنه هو يشعر فى نفسه بالعجز عن القيام بهذه المهمة ويخشى أن يسأله الله عما يخطىء به من الأحكام ومع ذلك فهو لا يضن بالمعاونة والمساعدة قولاً وعملا وكتابة على قدر استطاعته وأقسم بالله على أنه مستعد لخدمة الدولة بأحسن الوجوه . فقبلت اعتذاره عن قبول منصب القضاء وأعربت له عن شكرى له

وأهديت له بعض الهدايا ، ومن ذلك اليوم صرت أتلقى منه كل أنواع المساعدة والمظاهرة . وأما منصب القضاء فكان يولاه مفتى أبها بالوكالة فاستمر على القيام به . وبعد مرور زمان حصل فيه بعض التفاهم بينى وبين الأهالى استطعت أن أقنع الشيخ محمد بن عبدالله بن خضرة ـ الذى رفض راتبا قيمته خمسون جنيها ذهباً ـ بأن يقبل راتبا صغيرا دائما طول الحياة قيمته مائتا قرش . وعينت مثل هذه الرواتب لغيره من علماء الجبال على أن يقوموا بوظائف النصح والارشاد فى قراهم .

ومما يؤسف له أن مقاطعة « رجال ألمع » [1] بعد أن كانت فيما مضى معهدا علميا لتخريج الأفاضل لكل بلاد عسير انقرضت فى العهد الأخير فقل العلم فى تلك البلاد ، وعم الجهل بين الأهالى . فجعلت أرغب بقية العلماء فى أن يرسلوا أولادهم إلى الأزهر فى مصر واقترحت على الباب العالى أن يخصص لهم مساعدات مالية لهذا الغرض . ولكن بينما كنا نسعى لذلك نشبت الثورة ثم أعلنت الحرب الايطالية في طرابلس الغرب فانقطعت طرق البر والبحر ولم أنجح فى تحقيق هذا المسعى .



(١) كان لآل الحفظى مقام محمود وسعى مشكور فى القيام بنشر العلم وتعليمه فى بلاد رجال ألمع وتلك الجهات وكانت مدرستهم منار هدى للعلم والتعليم والارشاد وقد حفظ لنا التاريخ وكتب التراجم أسماء علماء من هذا البيت الكريم لهم مواقف مشكورة ومؤلفات مذكورة ، تغمدهم الله برحمته ورضوانه .

المنافسة بين شريف مكة والادريسي وأسبابها

كان أمير مكة الشريف حسين باشا قد صمم فى ذهنه على فكرة استقلاله بالحجاز، ولذلك كان يعد المعدات لتأسيس نفوذ له فى مقاطعتى عسير ونجد، إلى أن يأتى الوقت المرهون لاظهار فكرته، وكان من مظاهر سعيه للوصول إلى هذه الغاية الحملة التى جهزها على نجد حوالى سنة ١٩٠٩، وقد نال يومئذ فوزا صغيرا دعاه إلى التوسع فى خياله والنشاط فى مساعيه. وظهرت فى خلال ذلك حوادث عسير من جراء خطة الادريسى الذى كان عاملا على لفت أنظار القبائل إليه، فرأى الشريف أن الفرصة سانحة للاستفادة من ذلك، فمد يده من بعيد للعبث فى شئون عسير. غير أنه كف يده عن ذلك عقب وصولى إلى تلك الديار بسبب تقاريرى التى كنت أوقظ بها الباب العالى كما أشرت إلى ذلك فى مقالاتى السابقة.

أما الادريسى فظهر للناس بصفة الناصح الهادىء موطنا نفسه على احتلال عسير بتحريض من بعض الأيدى الخارجية، ومؤملا أن يستولى بعد ذلك على الحجاز أيضا.

إن صاحبى هاتين الشخصيتين المهمتين كان كل منهما عارفاً بمقاصد الآخر حق المعرفة، ويرى كلاهما أن الآخر عدوه اللدود.

ومن الغريب أننى لم استطع اقناع عاصمة السلطنة بأن الشريف ينطوى على هذه المقاصد الخفية المريبة، كما أن الادريسى نجح فى اقناع اللجنة المركزية

لجمعية الاتحاد والترقى بمعلومات كاذبة أدلى إلى الاتحاديين بها لمقاصد مخصوصة لذلك كانت العاصمة تحمل ما أكتبه من التقرير - عن مقاصـد شريف مكة والادريسى - على خطأ فى النظر والتقدير ، بل أن المرحوم محمود شوكت باشا الذى كان صدرا أعظم ووزيرا للحربية أرسل إليه فى أواخر سنة ١٩٠٩ برقية بالأرقام السرية قال فيها :

إن الحكومة الدستورية هى التى اختارت الشريف حسين باشا لإمارة مكة ، والحكومة مضطرة لجعل مفاوضاتها مع اليمن وعسير بواسطة الحجاز ، لذلك يجب عليك أن تشترك معه فى السعي والعمل . إذا كان بينكما تنافر أو إذا كان نال من عزة نفسك فيجب عليك أن ترضى بشىء من التضحية فى سبيل سلامة الدين والدولة ، وهذا ما ننتظره من حميتك وحماستك » . فأجبت على برقيته قائلا : « أن عزة نفسى لم يمسسها سوء يوما ما ، وكل المناقشات إنما وقعت فى سبيل مصلحة الدولة . وأما مساعدة الحجاز لنا فى عسير فإنما هى خيال فما يلزمنا من العاصمة يأتينا من طريق البحر إلى القنفذة ، وأنا أستطيع إيصال ما أحتاج إليه من القنفذة فى الساحل إلى الداخل ، فلست فى حاجة إلى مساعدة من الحجاز » ثم أكدت لزوم كف يد أمراء مكة عن التدخل فى شئون البلاد العربية الأخرى .

وكان الشريف حسين باشا أمير مكة أشار بتعيين سعيد بك فائز - من أسرة العسابلة وأشراف قضاء « بنى شهر » فى شمال عسير - قائمقام « حاكما » على بنى شهر ، لأن سعيد بك الفائز ذو علاقة صهرية مع الأشراف ذوى عون أمراء مكة ، وهذه القرابة آتية من جهة جدته .

وقاعدة بنى شهر بلدة تسمى «النماص» مبنية فى الجبل على قمة « عقبـة سـنان » بارتفاع ألفين وخمسمائة متر عن سطح البحر وواقعة شرقى القنفذة تماما وفى الشمال الغربى من أبها قاعدة عسير على مسافة مائتى كيلو متر منها .

ولما كان زعماء عسير ومشايخها يذهبون أفواجاً لمبايعة السيد الإدريسى وتوثيق عهودهم له ، كان فيمن ذهب إليه سعيد بك فائز حاكم بنى شهر دون أن يستشير شريف مكة بكتاب خاص ودون أن يستأذن رسميا من رئيسه متصرف عسير

وقائدها ، فكان ذهابه إلى صبيا سبب انحراف الشريف عنه ، ولعل الشريف كتب فى ذلك من مكة إلى الآستانة لأن طلعت بك الذى كان وزير الداخلية أرسل إلي برقية سرية بالأرقام قال لي فيها :

« أن ذهاب سعيد فائز بك إلى الادريسى فى صبيا بلا استئذان ، موجب لمعاقبته ، فبادروا إلى عزله من وظيفته وأخذه تحت المحاكمة » .

وعلى أثر ورود هذا الأمر من وزارة الداخلية عزلت سعيد فائز بك ،وقد عينت لقائمقامية بنى شهر بدلا منه عبدالله ظافر باشا من المنسوبين للشريف على باشا أمير مكة السابق ، وقد رأيت أن لا أغضب العسابلة وأن أحافظ على التوازن فى بنى شهر فعزمت على تعيين فراج بك بن سعيد فائز بك نائبا عن بنى شهر فى مجلس المبعوثان .

* * *

اجتماعى الثانى بالادريسى

فى أواخر شهر مارس سنة ١٣٢٦ عثمانية ـ « أوائل يونيو سنة ١٩١٠ » أذاع الادريسى رسائل سرية [١] على جميع مشايخ عسير يقول لهم فيها : أن جهادا سيعلن فى الشمال عما قريب ، فيجب أن تكون القبائل كلها على قدم الاستعداد بأسلحتها وعتادها ومؤونتها . وقد علمت بخبر هذه الرسائل السرية فى حينها ، وفهمت أن الادريسى عازم على أن يهاجم الحجاز فى عيد الأضحى بجميع قبائل عسير وأن يستولى على مكة مثيرا الأجانب للتدخل فى أمر الحجاج الذين أكثرهم من رعايا دول أوروبا ، وغرضه إخراج الأشراف ذوى عون من الحجاز وبسط سلطته عليها .

ولما علمت بذلك عرضت الأمر فى الحال على الاستانة طالبا إمدادى بقوة عسكرية صغيرة ، وإرسال بعض السفن لخفارة السواحل واتخاذ « جيزان » و « الوسم » و « القنفذة » مراكز بحرية منعا لدخول الأسلحة من البحر إلى بلاد عسير . وقلت : أن هذه التدابير كافية لمنع الادريسى من إجراء الحركات التى هو عازم عليها .

فجاءنى الجواب من العاصمة بأن الدولة مشغولة الآن بثورة حوران فى سوريا ولا تستطيع قط الآن أن ترسل قوة الى عسير . وعلى ذلك فيجب أن أذهب إلى « صبيا » وأجتمع مرة أخرى بالادريسى فأعمل على تأخير حركاته ولو إلى حين وأن أربط الحوادث بخيط من القطن إلى أن يأتى الربيع .

---

(١) راجع منشورات الادريسى إلى أهل سراة عسير فى جـ ٢ ص ٧٨٧ من كتابنا المخلاف السليمانى الطبعة الثانية .

وعلى أثر ورود هذا الأمر اضطررت إلى زيارة الادريسى للمرة الثانية . ومما ينبغى ذكره أنه لا توجد أسلاك برقية بين أبها والأستانة . فكنت أرسل برقياتى إلى القنفذة براً ، ومن القنفذة ترسل البرقيات بالسفن الشراعية إلى جدة ثم تطير على أسلاك البرق من جدة إلى الآستانة . فالاتصال بين عسير والآستانة لم يكن يوميا ، بل تبادل الرأى مع العاصمة فى حادثة تقع فى عسير لم يكن ممكنا فى أقل من شهر .

واتفق أننى عزمت على الرحلة الثانية إلى الادريسى فى موسم القيظ حيث يكثر المطر ، ومن عادة الادريسى فى هذا الموسم أن ينتقل من صبيا إلى محل اسمه « النظير » على مسافة خمسين أو ستين كيلو مترا [1] من صبيا شرقا ، وهو موضع جبلى مزين بصنوف الأشجار المثمرة وغير المثمرة وفيه المياه الجارية وهو ذو هواء عليل وماء سلسبيل . فكتبت للادريسى قبل سفرى إليه كتابا قلت له : أن كثيرا من المسائل المعلقة بيننا لا يمكن حلها بالمراسلة ، لذلك عزمت على زيارتك لمفاوضتك فيها والتفاهم معك عليها ، وسأحضر إلى « النظير » فأرجوك أن ترسل إلي من رجالك من يقوم بدلالتى على الطريق ، وبعد أسبوعين وصل إلي جواب على كتابى من الادريسى وفيه الموافقة على هذه الزيارة ، وجاء مع الكتاب إلى أبها ثلاثة من أشراف تهامة ليكونوا معى فى هذه الرحلة .

وبعد بضعة أيام بارحت أبها أنا ورفاقى الثلاثة ومعى عشرة فرسان وطبيب وصيدلى وصيدلية وجراح بقصد معالجة المرضى فى الطريق ، واستمالة قلوب الناس والاتصال بهم .

وكنت فى زيارتى الأولى للادريسى اخترت طريق « وادى ضلاع » ، أما الآن فاخترت طريقا أخرى أطول من الأولى وهى طريق لم تطأها قدم تركى قبل ذلك اليوم . وصحبت معى أحمد بن حامد شيخ مشايخ « علكم » قاصدا « شعاف » وعند وصولى إليها استصحبت حمودا وهو شيخ مشايخها حتى بلغت « عقبة

---

(١) راجع الحاشية فى جـ ٢ ص ٦٨٤ من كتابنا المخلاف السليمانى على قول المتصرف سليمان شفيق باشا أن من عادة الادريسى أن ينتقل فى هذا الموسم من صبيا الى النظير .

الحموض » الصعبة المرتقى فنزلت فى « وادى ركان » . وعقبة الحموض ترتفع عن سطح البحر ألفين ومائتين وتسعين مترا وهى الطريق الوحيد إلى وادى ركان الكثيرة المياه والأشجار ، وهذا الوادى منزل قبيلة « الجهرة » التى مر ذكرها فى مقال سابق ، وهى قبيلة فى حالة بدائية تسكن تحت الأشجار . وبعد أن تقدمنا فى جوف الوادى خمسة عشر كيلو مترا نحو الجنوب الغربى اجتمعنا بالشيخ محمد غابى زعيم هذه القبيلة ومعه رجاله فخرجوا لاستقبالنا ، وكان أول شيء خاطبنى به محمد غابى بعد تبادل التحية : ـ يا سليمان ، كنا نظنك كبيرا كالجبل ، فاذا بك رجل مثلنا .

فأجبته : ـ أنا صغير مثلكم ولكن محبتى لكم كبيرة . وكنتم ترون تمثال محبتى فترون ذلك كبيرا .

فسرّ كثيرا بهذا الجواب ثم دعونى إلى موقع اسمه « جهينة » فجلسنا تحت الأشجار . وصار الرجال والنساء يأتون من كل حدب وصوب لمشاهدتنا .

أمّا أنا فكنت ألبس ملابس الصيف العسكرية وفوقها ثوب عربى وعباءة وعلى رأسى كوفية وعقال . فكان مظهرى هذا يدعوهم الى الاستغراب .

فسرنا متوجهين نحو الجنوب الغربى إلى أن طلعت علينا الشمس ونحن عند ملتقى وادى « بيش » الآتى من قحطان بنهاية وادى ركان الذى اجتزناه وموضع اجتماع الواديين مساحته خمسمائة وعشرة أمتار .

وفى وادى ركان ماء جار قطره أربعون سنتيمترا يكون فى أيام الأمطار وقد يبقى أو ينقطع فى الأيام الأخرى . وأما فى وادى « بيش » فيوجد ماء يجرى دائما بلا انقطاع وعرض هذا الماء بين عشرة أمتار وخمسة عشر مترا وعمقه عشرون سنتميترا ، وهذان الواديان قد يتسعان الى عرض مائة وخمسين مترا ويضيقان الى عرض ثلاثين أو أربعين مترا ، فالسيول التى تقتحمها زمن الأمطار تكون مدهشة جدا وترتفع فى الأماكن الضيقة إلى عشرين مترا كما هو ظاهر من آثارها التى شاهدتها .

لبثنا عند ملتقى الواديين من شروق الشمس إلى العصر نستريح تحت الأشجار ونشاهد الألوف من قطعان القردة تلعب بين الأشجار والصخور، ومن هنا تكون جهة الوادى نحو الجنوب الغربى.

وبعد صلاة العصر سرنا فى طريقنا فوصلنا إلى بلدة « مسلية » وقت العشاء. وكنت أثناء هذه الرحلات أستعمل الآلات الهندسية البسيطة مثل البوصلة والبارومتر لأخذ خريطة الطريق. وانى أحاول الآن الاستفادة مما خططته يومئذ لأرسم خريطة عسير التى وعدت بعرضها على أنظار القراء.

وبقينا فى بلدة « مسلية »[1] الى عصر اليوم الثانى، حيث سرنا قاصدين « أم الخشب »[2] فاستقبلنا أهلها بالطبول والمشاعل، وبعد الاستراحة فيها بضع ساعات وصلنا فى الصباح إلى « صبيا ».

وإنما أردت أن أذهب من « وادى ركان » إلى « النظير » لا إلى « صبيا »[3] غير أنى علمت عند وصولى إلى المسلية أن الادريسى عاد من النظير إلى صبيا فاضطررت إلى تغيير وجهتى والحضور إلى المكان الذى يوجد فيه الادريسى.

والسبب الحقيقى الذى حمل الادريسى على العودة إلى صبيا قبل الوقت المنتظر هو أنه لا يريد أن أشاهد تلك الأراضى ولا أن أجتمع بأهلها بل أنه حنق علي الرجال الذين أرسلهم لمرافقتى فى الطريق لأنهم وافقوا على مجيئى من وادى ركان، فلم يمكنهم من الدخول عليه والاجتماع به. وقد ظن هؤلاء المساكين أن الادريسى غضب عليهم لشكوى صدرت منى فى حقهم فجاؤونى وطلبوا منى العفو على ما يمكن أن يكون بدر منهم من التقصير نحوى وطلبوا منى أن أشفع لهم عند السيد. أما أنا ففهمت الحقيقة وجبرت قلوبهم بكلمات طيبة وأكرمتهم ببعض الهدايا.

وعند اجتماعى بالادريسى أطلعته على خرائط الطريق التى رسمتها أثناء رحلتى وذكرت له المعلومات التى حصلت عليها من هذه الرحلة، وقلت له : ـ إذا شئتم فانى مستعد لإعطائكم صورة من هذه الخرائط.

(١ و٢ و٣) راجع كتابنا المعجم الجغرافى عن هذه البلدان.

المفاوضة بلا برقع : أجابنى السيد الادريسى على ما ذكرته له بشأن الخرائط :

« أشكركم : ولكن لماذا أتعبتم أنفسكم بهذا العمل ، وما هى الفائدة التى تتوقعونها منه » ؟

وقد أدركت من لهجة الادريسى ونبرات كلماته أنه يعتقد بأن ما رسمته من الخرائط وما جمعته من المعلومات إنما أرمى به إلى مقصد عسكرى وقد ساءه ذلك وهاجه . فقلت له جوابا على أسئلته : أن بلاداً تظل أحوالها الجغرافية والأرضية مجهولة لا يمكن القيام بإعداد وسائل أعمارها وإصلاحها . وهذه البلاد مجهولة من الناس جميعا ومن أهلها أنفسهم .

فقال : ـ نعم . وقطع الحديث .

ومن المسائل التى كان ينبغى معالجتها فيما بيننا وحل مشكلتها مسألة السفن الشراعية التى تسمى « السنابيك » وتنظيم سفرها فى البحر الأحمر .

فقد قال الادريسى : أن السنابيك التى تسافر من سواحل عسير إلى مصوع وعدن لنقل حاجات الأهالى وبضائع التجار تعترضها سفن الخفر العثمانية بحجة تفتيشها فيلحق أصحابها من جراء ذلك أضرارا عظيمة ، والتجار يلقون من ذلك مصاعب يشكونها فليتنا نجد لذلك طريقة حل مرضية .

قلت : أرى أن تحل هذه المسألة فيما يتعلق بالثغور التى ليس للحكومة فيها موظفون ، مثل « القوز » و « الشقيق » و « الوسم » و « البرك » بأن يجعل مشائخ هذه الثغور موظفين رسميا من جانب الحكومة بوظيفة مديرين لها ، ويخصص لهم رواتب من خزينة الحكومة ، ونجعل عندهم ختما رسميا باسم الحكومة ، فالمراكب البحرية التى تقلع من أحد تلك الثغور يفتشها الشخص الذى نعينه مديرا ويعطى صاحبها ورقة رسمية مختومة بالختم الرسمى يشهد فيها بأن هذه السفينة لا تحمل أشياء مهربة . فإذا قابل المركب وهو فى البحر سفينة من سفن الخفر يبرز صاحب المركب لقائد سفينة الخفر الشهادة الرسمية التى

يحملها مختومة بالختم الرسمى التى تكون صورته محفوظة فى سفن الخفر فلا يحتاج القائد حينئذ الى تفتيش المركب ، ثم أننا نضع فى كل واحد من تلك الثغور عساكر « جندرمة » ونعطيهم سلاحا رسميا يستعملونه فى تقرير الأمن ، فيسود السلام ولا يبقى محل لشكوى التجار والأهالى من تفتيش مراكبهم أثناء سفرها فى البحر ، إذا أنا فعلت ذلك يكون للمشايخ منفعة ذاتية من هذا الترتيب ، فيصيرون أنصارا للحكومة . ومع ذلك فإن فى إمكانهم أيضا الاستفادة من تهريب السلاح كما كانوا يفعلون .

ولما سمع الادريسى كلامى هذا قفز من مكانه ونزع عن وجهه البرقع الذى كان متبرقعاً به وقال : وماذا تريد منى يا سليمان باشا ؟ أنا لا أرضى قط بأن يصبح زعماء السواحل من رجال الحكومة وتبعا لأوامرها . إننى مدرك ما تريد انك تريد من هذه المقدمة أن تتدرج قليلا قليلاً نحو السواحل وان تضع الجنود فى الثغور . أنا لا ثقة لي بالدولة . ولا أوافق قط على مثل هذه المساعى . اجلس أنت فى الجبل . ولكن لا تمد أصبعك إلى السواحل أبدا .

قال لى ذلك فى هذا اليوم . وفى العام الماضى كان قال لى : امسكوا السواحل ، ولا شأن لكم بالجبال .

قلت له : ولكن للحكومة فى ثغر جيزان وهى على مقربة من صبيا موظفون وجنود فأى ضرر رأيتموه من ذلك ؟ .

قال : وهذا أيضا لا أريده . لقد وقع مرة فيما مضى ولا أريد أن يتكرر . وفضلا عن ذلك فإن جيزان على مقربة منى ولى فيها رجال يطيرون إلي فى الحال الخبر عن كل ما تعملونه هناك ضدى ، فأستعد لدرء الخطر فى حينه . أما ثغور « الشقيق » و « الوسم » و« البرك » . وأمثالها فإنها فى مواقع مترامية لا يصلنى خبرها فى حينه .

فكنت أسمع أقواله الصريحة بسكينة وهدوء . ثم قلت له : ولكنكم يا حضرة السيد تضطربون بلا موجب ، وأنا إنما قدمت لكم هذا الاقتراح على الاعتقاد أن

فيه تسهيلاً لأوامركم . وما دمتم لا توافقون على ذلك فأنا أسحب اقتراحى وأريد أن أقول لكم من جهة أخرى : أن الدولة تريد أن تعمر ملكها . وليس فى إمكانها أن تدع السواحل فارغة وخرابا إلى الأبد . وهى تنتظر منك خدمة لا شك أنها تقدرها وتكافئكم عليها . أما معارضة الدولة فأى فائدة تأتى منها ، وما دمتم الآن تخاطبوننى بصراحة فأنا أريد أن أعرض عليكم ما أشعر به تماماً : أنا مسلم قبل كل شىء ومسألة الجنسية ثانوية فى نظرى،وإنى أؤكد لكم وأقسم لكم على صحة ما أؤكده أنكم إذا برهنتم لي الآن على أن فى استطاعتكم أن تؤسسوا هنا حكومة توسعون سلطتها إلى الاستانة وأن تكونوا على رأس الخلافة والسلطنة الإسلامية وأن تجمعوا الأمة المحمدية حولكم ـ فإنى فى هذه الحالة أستقيل من وظيفتى فى الحال وأكون عبدا فى خدمتكم . وإلاّ فكونوا على ثقة من أن الدولة الوحيدة المستقلة منذ ستمائة سنة إذا انقرضت فإن المدنية الغربية العاقلة لن تمكن حكومة جديدة كبرى من أن تقوم فى مركز من أهم مراكز الدنيا ، بل أن ذلك سيدعو إلى انقسام البلاد الشرقية ووقوعها فى الاستعباد إلى الأبد . تعال أضع يدى فى يدك بكل إخلاص فنعمل لخير الأمة .

فقال لي والتأثر فى كلماتى ظاهر عليه : ما تقول ؟ وتعال نفكر بجد .

ان الامام يحيى كتب لي رسالة يدعونى فيها للاتفاق معا على الدولة وأنى لم أجاوبه بعد على رسالته . فأعطنى مدفعين إذا شئت وأنا أكتب إلى الامام أدعوه إلى العدول عن فكرته فإذا لم يرجع عنها فإنى مستعد للزحف عليه وتأديبه .

ولما قال لي ذلك أدركت فى الحال أنه يجرنى الى شرك جديد . وأغلب ظنى أن رسالة الامام يحيى لا أصل لها وإنما هو يريد أن يأخذ منى مدفعين وأن يكتب الى الامام يحيى يقول له : أن سليمان باشا أعطانى مدفعين لأحاربك وهذا دليل على ما تنويه الدولة نحوك . فيستميل الامام يحيى أيضا الى القيام معه بالثورة . فقلت له : وماذا يصنع المدفعان . أنا يوجد تحت إمرتى فرقة عسكرية وعشرون مدفعا ، وفى استطاعتى أن أزيد هذه القوة عند اللزوم ، فإذا مست الحاجة أسير معك بكل القوات التى معى فنعمل معاً . قلت هذا وأنا أعلم مناعة اليمن ان

الزيديين أمة حرب وجلاد وأنهم كثيرو العدد وأن الادريسى مهما جد فى الأمر فلا قبل له بحرب الامام يحيى [1] .

فأجابنى الادريسى : هذا حسن ولكنى أرجوك أن تنقل أقوالى هذه إلى وزارة الداخلية .

قلت : نعم سأفعل . وفهم الادريسى انه لم يتمكن من مخادعتى ، فأراد أن تنقل كلماته الى وزارة الداخلية ليوقعها فى الشبه والتردد على الأقل .

من ذلك اليوم فهم كل منا صاحبه تمام الفهم وكنا كالجمبازين يلعبان على حبل واحد : هو يعمل لأجل نفسه وأنا أعمل لما أراه مصلحة عامة .

وفى اليوم التالى نزلت إلى ثغر جيزان وأرسلت تلغرافا الى الباب العالى أوردت فيه ما وقع وأبلغت ولاة الأمور أننا على أبواب ثورة قريبة الوقوع فى عسير وأنها ستتصل نارها باليمن ، وأنه إذا أرسلت الدولة لي قوة كافية ووضعنا أيدينا على السواحل فإن فى الامكان الوقوف فى سبيل التيار والا فستصيب الدولة هنا خسائر عظيمة وستضطر الى سوق مئات من « التوابير » العسكرية وصرف ملايين من الجنيهات وسيسفك فى هذا السبيل دماء ألوف من المسلمين بلا فائدة .

قلت : وأنا الآن على عزم القيام برحلة فى السواحل على إحدى سفن الخفر ثم أعود إلى مركزنا فى أبها لتوطيد النظام والأمن .

وذهبت على سفينة الخفر إلى ثغر « الوسم » فكنت فيه على صلة بمشايخ تلك الجهات وأعطيت كل واحد منهم راية عثمانية ووزعت عليهم المكافآت والهدايا ثم عدت الى « جيزان » فوجدت هناك جوابا من طلعت بك وزير الداخلية على

---

(١) أثبتت الحوادث عدم صحة استنتاجاته ، فالعداء حقيقة بين الامامين الادريسى ويحيى ، وفى الرجوع الى الفصل السابع من كتابنا المخلاف السليمانى جـ ٢ ص ٧٤٤ الى ٧٥٣ وفى الرجوع الى ذلك ما يغنى عن اعادته هنا . لقد حارب الامام الادريسى الامام يحيى كما حارب الملك حسين فكان المنتصر دائما وأحسن شهادة نوردها هنا هى قول الكاتب المعروف أمين الريحانى فى كتاب ملوك العرب جـ ١ ص ٢٩٩ « أن من فضائل السيد محمد الادريسى ثباته منذ بدئه أمره على مبدأ واحد فقد كان عربيا صحيحا جسورا فى سبيل ما يبتغيه يحالف اى دولة كانت على اعدائه الترك ومن حالفهم من العرب عليه فما تذبذب فى مبدئه ولا تحول عن عزمه حارب الأتراك وحليفهم الشريف « حسين بن على » وصديقهم الامام يحيى فكان فى الغالب منتصرا ودائما عزيزا . الخ » .

تلغرافى الذى أرسلته إليه وهو يقول : أن الصدر الأعظم اسماعيل حقى باشا خرج للسياحة وعند عودته سنتذاكر معه فيما يجب عمله ونخبركم بالتعليمات التى يجب اتباعها . ويجب عليكم الآن أن تتلافوا الأمور بالحكمة وذلك ما ننتظره من غيرتكم ورؤيتكم .

ومما يؤسف له أن مركز السلطنة لم يكن مدركا أهمية الموقف فى عسير . وقد حدث فيما بعد كل ما أنذرتهم به ويا للأسف .

وفى اليوم التالى وذلك فى شهر اغسطس ١٩١٠ ، قمت من جيزان فتوجهت إلى صبيا حيث يقيم الادريسى ولما اجتمعت به هذه المرة وجدت فى كلامه وفى أسارير وجهه ما يُدعو إلى الريبة .

فأزمعت الرحلة فى الحال إلى أبها عاصمة البلاد . وبالفعل جئته فى اليوم الثانى وأنا فى ثياب السفر وقلت له : أننى مسافر الآن . فوقع فى التعجب والدهشة وقال : كيف تسافر دون أن تخبرنى من قبل بعزمك هذا ؟ كان ينبغى أن أصحبك برجال يرافقونك وبأدلاء يرشدونك الى الطريق .

فشكرته وقلت : أرجوكم أن تتبعونى بالأدلاء من ورائى . وودعته وسرت فى الحال . ولم يلحقنى الأدلاء .فلا بد أن يكون امتنع من إرسالهم ، .والطريق بين أبها وصبيا يقطع فى العادة بخمسة أيام [١] ، فاستطعت أن أقطع المسافة وهى ١٨٠ كيلا أو ٢٠٠ بثلاثة أيام فقط مواصلاً السير بالسرى دون أن أقف فى القرى . وكنت أحمل معى عشرة آلاف جنيه ذهبا جئت بها من سفينة خفر السواحل فى « جيزان » فلما وصلت إلى أبها علمت أن جميع الطرق التى مررت بها بلغها خبر وقوع الاختلاف بينى وبين الادريسى وذاع بينهما أنى أحمل مئة ألف ريال « اثنى عشر الف جنيه » ولا ريب أن السيد الادريسى تمكن من تطيير هذه الأخبار فى تلك الأصقاع ليغرى القبائل بى ، وكأنى كنت متوقعا ذلك قبل وقوعه فاتخذت كل الأسباب والتدابير لتخليص نفسى ، ومن ذلك أننى كنت

---

(١) ان هذا الطريق - فى وقتنا الحاضر - تقطعه السيارة فى خلال ساعتين ونصف فقط كما تقطعه الطائرة فى خلال ثلث ساعة .

أختار الطرق الوعرة والجهات غير المسلوكة وساعدتنى العناية على الخلاص ، وعلمت أنه لحق بى رجال يتعقبون أثرى غير أن السيول التى سالت بها الوديان من أمطار هطلت فى ذلك الحين وحالت بينهم وبينى فلم يلحقوا بى ، وعند وصولى الى أبها أمرت بجمع المؤن والحبوب استعدادا للطوارىء وجمعت مشايخ القبائل الجبلية فعقدت منهم مجلسا عظيما أبلغهم فيه أمر الاستانة بانتخاب أعضاء عنهم لمجلس « المبعوثان » : وذاكرتهم بعد ذلك فى الموقف الراهن وسألتهم رأيهم فى ذلك .

وقد اعتبرت المشايخ بمقام المندوبين الناخبين وألقيت عليهم الخطبة التالية :

أيها المشايخ : أن مقام الخلافة قرر الآن العمل بالشرع الشريف والرجوع الى إجماع الأمة وهو يطلب نوابا ينوبون عنكم كما طلب ذلك من كل البلاد ، وأنتم الآن أهل الحل والعقد فى مملكتكم وبيدكم سوق بلادكم إلى الخير أو الشر وعليكم أن تفكروا فى مصالح قومكم وعلى ذلك فان فى أيديكم أمر انتخاب اثنين ينوبان عن بلادكم فى مجلس « المبعوثان » ويكونان وكيليكم اللذين فى أيديهما أعراضكم وشرفكم وحياتكم المادية والمعنوية والمطلوب منكم الآن اختيارهما ثم وزعت عليهم الأوراق ليكتب من يحسن الكتابة اسم المنتخبين ، ومن لا يحسن الكتابة يسر باسم الشخصين اللذين يختارهما إلى كاتبين ندبتهما لهذا العمل ، وقد انجلت النتيجة عن انتخاب اثنين الأول الشيخ عبدالله بن احمد آل مجثل الذين كانوا أمراء عسير قبل آل عايض والثانى سعيد نجل عبد العزيز بن مشيط شيخ مشايخ شهران غير أن هذين المبعوثين رفضا الذهاب الى الآستانة فحاولت إقناعهما بكل صعوبة ولا سيما الأول منهما حتى رضيا .

وطلبت من قائمقام بنى شهر أن يحرر مضبطة بانتخاب فراج بك بن سعيد الفائز عضوا عنهم فى مجلس المبعوثان وأرسلت المبعوثين الثلاثة عن طريق « النماص » ليصلوا الى ثغر القنفذة فيسافروا منه إلى الآستانة ولكنهم لما وصلوا الى « النماص » رأوا أمارات الثورة قد ظهرت والطريق بين النماص والقنفذة قد انقطع ، وفهم المبعوثون انهم سيقبض عليهم ويرسلون الى الادريسى فاضطر عبدالله بن

احمد للعودة الى أبها وأما فراج بك الفائز فإنه تزيا بزى بدوى ونزل الى القنفذة سراً ثم سافر الى الآستانة بطريق جدة .

وعقدت مجلسا ثانيا من المشايخ ذاكرتهم فيه فى أمر الثورة التى يبدو مقدماتها وسألتهم ماذا يجب أن نفعل إذا تحقق نشوب الثورة ؟ وكلفتهم بأن يقسموا لي يمينا على القرآن بأنهم يظلون فى جانبى مخلصين للدولة فى تلك الحال ، ولما كلفتهم بذلك امتعضوا جميعا واصفرت ألوانهم ولم يجيبونى على سؤالى بلا ولا نعم . أما أنا ففهمت من ذلك ما أردت أن أفهمه وعلى ذلك أعلنت تأجيل الجلسة الى اليوم التالى ، وفى المساء حضر إلي بعض من أثق فى صداقتهم من المشايخ وقالو لى : أن المشايخ الذين اجتمعوا عندى لا يبلغ عددهم عشر عدد مشايخ عسير وأن الاستعداد للثورة جار فى كل أنحاء البلاد وإذا لم ينضم هؤلاء المشايخ إلى الثائرين فقدوا مراكزهم ونهبت أموالهم وصودرت أملاكهم ولذلك لا يستطيع أحد منهم أن يقسم اليمين التى كلفتهم بها وختموا كلامهم بالدعاء لي بأن يكون الله فى عونى ، وكانوا يقولون لى ذلك بصدق وإخلاص ! فأثر ذلك فيّ تأثيراً بليغاً وأجبتهم : أعاننى الله وإياكم حتى تزول أسباب هذه المحن ، وفى اليوم التالى صرفت جميع المشايخ الى قبائلهم وصارت بوادر الثورة تبدو من كل مكان وانقطع البدو عن جلب الحبوب والمواشى الى السوق .

* * *

الثورة والمحاصرة

أذاع الادريسى فى خلال ذلك منشورات (١) دعا فيها كل قبيلة إلى الزحف بسلاحها : وذخائرها إلى « أبها » قاعدة المتصرفية ومركز القيادة . وأعلن الجميع بأن سليمان باشا سيضحى به فى عيد الأضحى الآن ، وأن ألوف الجنيهات الذهبية المدخرة فى أبها ستكون غنيمة للثائرين ، وأن المشايخ سيستقلون ببلادهم ، وسيكون رصاص الترك برداً وسلاماً على الثائرين .

لبى الجميع هذه الدعوة ، فزحفوا إلى أبها أفوجاً أفواجا ، وكان بين القادمين العجائز من النساء على أمل الاشتراك فى الغنيمة .

وأتتنى الأخبار بأن حمود أحد مشايخ قبيلة « ربيعة » رفيدة وعبدالله بن مرعى مفتى تلك القبيلة موجودان على مقربة منا فى جوار « أبها » يحرضان الشعب ويبلغانه أوامر الادريسى . فأرسلت رجالى فى الليل فقبضوا عليهما وجاءوا بهما إلى المركز . وكتبت إلى زعماء قبائل الجبال رسائل أقول لهم فيها : أنى لا أدرى ثمة سببا معقولاً ومشروعاً لهذه الثورة ، وإنى ألقى تبعة الدماء التى تسفك فيها على مسببيها . أما أنا فسأدافع إلى أن لا يبقى معى غير جندى واحد ، وأن الفتك

---

(١) راجع المنشور الادريسى فى كتابنا المخلاف السليمانى جـ ١ ص ٧٨٧ . ان سليمان شفيق سجل هنا خواطره وانطباعاته وأفكاره قبل وبعد حصاره فى مدينة أبها فهو لم يستقص أسماء القادة الذين حاصروه وتحركاتهم لأن ذلك كان خارج نطاق الحصار وشاء الله أن نؤلف كتاب المخلاف السليمان عن تاريخ الحركة الادريسية بعد انتهاء ما يقارب عشر سنوات من زوال الامارة الادريسية فى منطقة جيزان والكثير من قادة الادريسى ورجال إمارته كان لا يزال على قيد الحياة فاستقينا من اولئك الرجال الثقات أخبار حصار أبها وأسماء القادة وما أوردناه خلاصة افاداتهم فى جـ ٢ ص ٦٧٤ وما بعدها .

والتمزيق الذى سيلحق إخوانى الأهالى من مدافعى ورشاشاتى وبنادقى لا تعود مسئوليته المعنوية علي بل على الذى دفعهم إلى الثورة التى لن يكون لها نتيجة غير الخراب والضرر للأهالى وأن محاربة الحكومة غير جائزة لا شرعاً ولا عقلاً ، وفضلا عن ذلك .فإنْ الانتصار على الحكومة غير ممكن كما رأيتم فى الثورات السابقة .

أما بلدة أبها فإنها معلقة فى رأس وادى ضلاع بين الجبال والآكام على ارتفاع ألفين ومائة وتسعين مترا ، وتتألف من ثلاث قرى منفصلة فى كل منها سبعون أو ثمانون منزلا وهى واقعة عند بداية وادى شهران وليس لها سور . ولأجل الدفاع عنها توجد حولها فى محيط طوله ثمانى كيلو مترات ثمانى قلاع حجرية صغيرة يجلس فى داخل كل منها عشرة جنود ، فحفرت بين هذه القلاع خنادق وأقمت الجدران والسدود فى منافذ الأسواق الخارجية فأصبحت البلدة نفسها عبارة عن قلعة . وبعد ذلك أخذت أطوف حول منطقة الدفاع أترصد اقتراب القبائل نحو أبها ، وبعد بضعة أيام من انتهاء استعدادنا جعلت أستعمل النظارة فى ترصد الأفق فوجدت الثوار قادمين براياتهم وقد استولوا على الجبال الغربية وعلى مسافة خمسة أوستة كيلو مترات من أبها ، فأمرت بإخراج بطارية مدفعية إلى أقصى نقطة يمكننى التقرب منها إلى تلك الجبال . وسبب ذلك أن الثوار كانوا كثيرى العدد وقد قيل لي فيما بعد أن عددهم عشرون ألفاً أو ثلاثون ألفا بين رجال وأطفال . وأردت من إخراج البطارية المدفعية أن أصليهم نيرانها حتى يعلموا أنها ليست برداً وسلاماً كما قال لهم الإدريسى ، ثم اننى كنت أخشى أن يهاجمونا فى الليل فأردت أن أمنعهم من ذلك من أول الأمر ، لأنهم إذا استطاعوا أن يكونوا على مقربة منا فلن يردهم رصاص البنادق وإن لم يكن برداً وسلاما ، وحينئذ يدمرون خط الدفاع الذى أنشأناه وتسقط أبها فى الحال .

وكانت مدافعنا جبلية ترمى قذائفها إلى مدى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر فخرجت أنا عن المقرر فنيا ، وحفرت فى الأرض وغرست فى الحفر مؤخرة المدافع لتتسع زاوية المرمى فتذهب القذائف الى مدى أبعد ، ثم أصدرت الأمر باطلاق

النار من جميع مدافع البطارية بسرعة واستمرار ، فظلت المدافع تقذف قنابلها على القوم ربع ساعة وهى تتساقط وسط تلك الجموع العظيمة فتفرقها ، وكنت أراقب تلك الجموع بنظارتى حتى تأكدت أنه زال الخوف من قيامهم بهجوم ليلى عام .

وكنت بثثت عيونى بين الثوار فجاؤونى بالأخبار بأن نحو نصفهم أزمع العودة الى بلاده .

وبعد ذلك اليوم أصبح الثوار محيطين بنا من كل جانب ، فيقومون هم بحركات الهجوم ونقوم نحن بحركات الدفاع ، وكثيرا ما كنا نتغلب عليهم فنرد هجومهم ، حتى إذا رأيناهم شرعوا فى الهزيمة والانسحاب نكف نيراننا عنهم .

وقد اعترض على بعض زملائى من رجال الجيش وبعض مشايخ العرب الذين تخلفوا عندى فى أبها فقالوا : لماذا لا تأمر الجند باللحاق بالمنهزمين ، ولماذا لا تستمر فى إطلاق النار عليهم ؟

فكنت أجيبهم : إن الغاية التى نرمى إليها هى الدفاع عن أنفسنا لا قتل إخواننا هؤلاء ، فقتل المسلم بلا لزوم من النقائض ، ثم إننا إذا أسرفنا فى قتل الأهالى تزداد الضغينة فى قلوبهم نحونا وأنا أسعى لملاشاتها وإحلال المحبة محلها . أما اللحاق بهم فالى أى حد يجب أن يكون ؟ ولماذا أضطرهم الى الارتداد علينا واستئناف مقاتلتنا ؟

وكنت فى ليالى الحصار أتخابر - بواسطة الضباط - مع الثوار الذين يقتربون من خط الدفاع والمواقع المحيطة بالمركز .

وكانت الطريقة التى اتبعتها فى إرسال « التلغرافات » الى الآستانة هى أن أخيط بالابرة على الفوطة التى يلبسها سعاة البريد المحليون الاشارات التلغرافية « الخطوط والنقط » وأرسلها من القنفذة لترسل الى الآستانة وكل الرسائل التى أتبادلها مع القنفذة كانت بهذه الطريقة .

وكنت أعطى الأمان لكثير من المشايخ الثائرين وأدعوهم للاجتماع بى فيأتون إلينا بأسلحتهم وأتفاوض معهم فى منزلى ساعات طويلة ، وكانوا إذا عاتبتهم على

قيامهم بالثورة يقولون لي : أن الأمة كلها قائمة ، ونحن لا نستطيع أن نكسر بيضة الإسلام بمخالفة جمهور الشعب .

ثم يدعون الله أن يزيل هذه المحنة عما قريب وكان يأتينا رجالهم حاملين معهم ما نحتاج إليه من تبغ وملح وغير ذلك فيبيعونه لمخافرنا .

وفى صباح يوم من أيام الثورة والحصار كان الضباب مالئا الجو فاستطاع رجال مخافرنا الأمامية أن يقبضوا على شابين مسلحين حضرا من رجال ألمع حاملين بعض الحوائج لأبيهما الذى يحارب مع الثوار . ولما جىء بهما إلي اعتقدا أنى سآمر بإعدامهما حالا . أما أنا فعلى العكس من ذلك طيبت خاطرهما ودعوتهما لضيافتى وأطعمتهما ثم أعطيت كلا منهما رغيفين من خبز القمح الذى لا يزال ساخنا وأكرمت كل واحد منهما بخمسة ريالات وأرجعتهما بسلاحهما الى خارج خط الدفاع وأمرت رجالى أن ينادوا الثائرين : أننا أرسلنا إليهم اثنين من رجالهم ، وقد فعلت ذلك فى وقت قلت فيه مؤننا حتى أنقصنا جراية الجند الى النصف .

ولما رأى أحد الضباط هذين الشابين وهما يتناولان لذيذ الطعام قال لي ممازحا : وددت لو أننى أحد الثائرين ، لكرمتنى بهذا الطعام .

ووافق أحد الأيام ذكرى المولد النبوى الشريف فأمرت الجيش أن لا يستعمل فى ذلك اليوم أسلحته ، ولو استمر الثائرون على إطلاق رصاصهم . ولما كان الليل عملت زينة أوقدت فيها أكراً من الرماد الممزوج بغاز البترول وأطلقت مدافع الاحتفال .

ولم يفهم الثائرون القصد من هذه الحال فاقتربوا فى الليل من خط الدفاع وسألوا رجالنا عن سبب امتناعنا عن إطلاق النار عليهم وعن الزينة التى أقمناها وقالوا : قد سمعنا إطلاق المدافع ولم تصل إلينا قذائفها . فأجابهم رجالنا : بأننا نحتفل بعيد المولد النبوى . فدهشوا لذلك .

دامت المحاصرة سبعة أشهر وبضعة أيام . وفى طول تلك المدة لم يأتنى خبر من الاستانة مباشرة غير أن قائمقام القنفذة أرسل إلي يخبرنى بأن الإمام يحيى

أيضا ثار على الدولة فى اليمن[1] ، وان عزت باشا قادم الى اليمن بقوات عظيمة . أما بشأن عسير فلم نعلم ماذا قررت الدولة أن تفعل ، غير أن أمير مكة الشريف حسين يقال أنه قادم الى عسير على رأس فرقة عسكرية .

وفى الليل سمعنا صياحاً من جهة الثوار بأن اليمن أيضا رفعت لواء الثورة وأن طريق البحر أصبح مسدودا وأنه لم يعد فى إمكان الدولة أن ترسل جيوشا لإمداد قواتها التى فى هذه الديار ولا ريب أن الادريسى أمر بأن ينادى بهذه الأخبار ليسمعها جيشنا فييأس من الوصول الى نتيجة .

إن المؤن التى ادخرتها من قبل كانت تكفى لمدة أربعة أشهر فقط ،وقد أعلمت الآستانة بذلك من أول الأمر ، ثم حسبت حسابا لما قد يقع من إهمال الآستانة لأمرنا وتقاعسها عن إمدادنا فأنقصت الجراية التى تعطى للجند وجعلتها توزع بحسب عدد النفوس لا بحسب الرتب ، بمعنى أن الضابط والقائد يأخذ من القوت ما يشبعه فقط . وزرعنا الأرض داخل منطقة الحصار شعيرا وقمحاً وذرة ومنعت الشعير عن الحيوانات وصرت أوزعه على الجنود ، وصرنا نقلع العشب من الأرض ونأخذ جذوره فنجففها ونطعمها للحيوانات .

وكان هجوم الثائرين علينا يقع يوميا غير أنه لا يكون عاما . ووقع الهجوم العام عدة مرات بصورة مهمة فشاهد الثائرون فيها ثبات المدافعين وشجاعتهم ومروءتهم ، فاستللنا بالمروءة ضغينة القبائل من قلوبهم ولولا ذلك لكان من السهل على الثائرين أن يستولوا على أبها بهجمة عامة صادقة .

* * *

---

(١) راجع ص ٦٠ .

محاولة الصلح مع الادريسى

فى الشهر السادس من المدة التى كنا فيها تحت الحصار ، سقط فى يد الثائرين موقع عسكرى يسمى « شعار » وهو قائم على عقبة تسمى « عقبة تيه » وكان فيه مدفعان و« بلوك » وأحد من الجنود ، وعند سقوطه كانت حاميته فى حالة الجوع . وفى الواقع أن الدولة لم يكن لها فى مقاطعة عسير غير ثلاثة معاقل عسكرية الأول فى العاصمة « أبها » ، والثانى « موقع شعار » [1] الذى ذكرناه ، والثالث فى « القنفذة » على ساحل البحر .

وفى خلال ذلك كنت على صلة ببعض أشخاص من رجال القبائل أستطلع منهم طلع الأحوال ، وأراسل القنفذة بواسطتهم . وكان آخر ما علمت منهم أن الدولة عينت رجلا غيرى متصرفا على عسير أو قائد لجنودها ، وأنه وصل بالفعل إلى « جيزان » ومعه بعض أشخاص غير مسئولين ، وقد حضروا جميعا للدخول فى مفاوضة مع الادريسى لعقد الصلح معه ، غير أن الادريسى أعرض عنهم ورفض مقابلتهم ومفاوضتهم وطردهم ، فقررت الحكومة إبقائى فى القيادة . فلما سمعت هذا الخبر أحزننى وآلمنى ؛ كيف لا وعقلية « الاتحاد والترقى » تقضى بأن تباشر أمور الدولة بواسطة أشخاص غير مسئولين . وأن تعمل بالباطل من آراء وملاحظات فريق من المتشردين ، لذلك لم تدرك ويا للأسف أن الادريسى الذى أثار مقاطعة عسير من أقصاها إلى أقصاها وضرب نطاق الحصار على عاصمتها ، لا يمكن أن يرجع عن ذلك لأجل خاطر فلان أو فلان . وقد استفاد الادريسى من

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٦٧٥ من كتابنا المخلاف السليمانى الطبعة الثانية .

هذه الفرصة أيضا فأذاع منشورات قال فيها : أن سليمان باشا رجل عاص علي وعلى دولته ، وقد عزلته الدولة ، فيجب على الثائرين أن يعجلوا فى الاستيلاء على أبها . وقد صدق الثائرون هذا القول بطبيعة الحال .

* * *

حملة الشريف حسين

كنت أنا فى ذلك الحين أرسل « التلغرافات » إلى الآستانة بلسان شديد ولهجة مرّة ، ولعل ذلك الذى حمل مركز السلطنة على إرسال المدد إلى عسير بقيادة الشريف حسين باشا فبلغنى خبر وصول طلائع تلك القوة الى « القنفذة »

أنا لم أكن موافقا على فكرة إرسال الشريف لامداد عسير ، ولم يكن من رأيى أن تحل مشكلة الثورة برفع الحصار عن « أبها » بل كنت أرى المسألة تحل بتجييش جيش لضرب الادريسى نفسه فى « صبيا » وعلى ذلك فقد كان من الصواب أن تنزل قوات المدد فى « جيزان » على مقربة من صبيا لا فى القنفذة . وكنت كتبت ذلك إلى الباب العالى ونبهتهم إلى أنه لا يوجد فى جيزان ماء عذب وأن الآبار بعيدة عنها خمسة « كيلو مترات » أو أكثر وهذه الآبار عبارة عن حفائر يستطيع الثائرون أن يردموها فى كل وقت فمن الواجب أن يكون مع حملة المدد التى تأتى الى جيزان ماكنات تقطير للمياه وأن تكون المستشفيات ومخازن المؤن وسط السفائن فى البحر . ولما كانت المسافة بين صبيا وجيزان لا تزيد على خمسة وعشرين كيلو مترا وهى عبارة عن سهل أملس فيجب أن يؤتى مع الحملة بسيارات مدرعة كبيرة تعادل قوتها قوة فرقة من الجيش . أن حملة مجهزة بهذا الاستعداد تستطيع أن تستولى على صبيا فتحل مسألة الادريسى من أساسها .

كتبت هذا كله الى الباب العالى فارتكب الباب العالى غلطة ثانية بأن جعل الحملة بقيادة الشريف وبأن جعل وجهها الفنفذة لفك حصار أبها ولم يجعل وجهتها جيزان للاستيلاء على الادريسى نفسه فى صبيا .

وفى اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٣٢٧ بالتاريخ العثمانى « ١٣ مايو سنة ١٩١١ » جاءنى بخطاب خاص « رسول يحمل البريد والأخبار » قادم من طريق « بنى شهر » يقول : أن أمير مكة الشريف حسين باشا وصل من الحجاز الى القنفذة يوم ١٩ نيسان سنة ١٣٢٧ « ٤ مايو سنة ١٩١١ » عن طريق البرومعه سبع « أورط » من الجنود وبطاريتان من المدافع وقوة من البدو وقبل وصول الشريف بيومين وصل إلى القنفذة من البر عشر « أورط » مجهزة بجميع تجهيزاتها أما مسألة اليمن فرأت الدولة أن تحلها صلحا مع الامام بواسطة الفريق عزت باشا وقد تم الصلح بين الفريقين بالفعل .

وذلك ما علمته بصورة خصوصية . وفى ٤ مارس « ١٧ مايو سنة ١٩١١ » تلقيت رسالة رسمية كتبها قائمقام القنفذة يوم ٢١ نيسان « ٤ مايو » يقول فيها : أن حضرة الأمير شريف مكة وصل الى القنفذة وبعد بضعة أيام سيتوجه الى أبها ، وأن الدولة قررت إرسال فرقة من الاستانة الى جيزان لتضرب الادريسى فى « صبيا » وقد سافرت الفرقة فى الطريق وستصل قريبا .

وبعد ذلك جاءنى كتاب من حضرة الأمير تاريخه اول مارس « ١٤ مايو ١٩١١ » يذكر خبر وصوله إلى القنفذة وأنه على عزم القيام بالحركات العسكرية قريبا .

فأجبته على كتابه بكتاب هنأته فيه بقدومه ورجوته أن يسرع فى التقدم وذكرت له أننى ثابت فى الدفاع عن أبها إلى آخر جندى يبقى عندى ، وقلت أن القوة المعنوية فى الثائرين انكسرت ولو أن عندى أكثر من ألفى جندى لكان فى استطاعتى اختراق خط الحصار وأن الدولة أهملت أمرنا فلم ترسل لنا مددا منذ سبعة أشهر فازداد الادريسى بذلك سلطة ونفوذا وأنه أذاع الآن بين الثائرين : أن أمير مكة جاء الى عسير ليتوسط فى الصلح بينى وبين الدولة . وعلى ذلك ينبغى عند حركة القوة من القنفذة الى الداخل أن تظهر للقبائل سطوة الدولة وهيبتها ثم بعد ذلك يمكن إعلان شفقتها وعفوها وإحسانها لأن رجال القبائل قد تسممت

أفكارهم وهم عازمون على مقاومة سيادتكم . وفى الختام أكدت له لزوم إسراعه فى التقدم نحو الجبال بعزيمة وبصيرة .

وعلمنا من أخبار الثائرين أن أمير مكة تحرك من القنفذة وهاجم مكاناً على مسافة ثلاثين كيلو مترا منها اسمه « القوز الشاهد » فنشبت بين قواته وقوات الثوار معركة انكسر فيها الشريف واضمحلت قواته وغنم الثائرون كل ما معه من سلاح ومؤن .وظننت أن الثائرين لم يصدقوا فى إشاعة هذا الخبر ، ولكن ما لبث أن وصلنى كتاب رسمى من القنفذة يؤيد صحة ذلك .

إن أمير مكة لما قبل أن تكون له قيادة الحملة العسكرية المجهزة لأجل عسير لم يخطر على باله أنه إذا دخل الى عسير ومعه القوات العثمانية سيشهر الثائرون سلاحهم فى وجهه . وفى الواقع أنه لا يعرف شيئا من أحوال عسير وطبائع أهلها ولم يسبق له القيام باستكشافات عسكرية فيها ولم يحصل على المعلومات اللازمة عن الثوار ومقدار قواتهم . فتقدم من القنفذة الى « القوز » دون أن يتخذ الاستعدادات والترتيبات اللازمة ولم يحمل المياه اللازمة للجيش . فلما التقت قواته بقوات الثوار لقى منهم شدة ، وكانت قرب الماء على الجمال فألقاها أصحابها عن ظهور جمالهم طالبين النجاة بها ، فبقى الجنود بلا ماء فى ذلك الحر الشديد ، واضطروا للعودة الى القنفذة أمام شدة هجوم الثوار وكثرة عددهم .

وشهد هذه المعركة من أبناء الشريف عبدالله بك « أمير شرق الأردن الآن » والشريف فيصل بك « ملك العراق الآن » وقد برهنا على شجاعة فائقة ، غير أنهما لم يخرجا من المعركة إلاّ بعد أن نزع الثوار عنهما ثيابهما فرجعا إلى القنفذة عريانين .

أن هذه المعركة أفهمت أمير مكة أن المهمة التى أخذها على عاتقه ليست بالأمر الهين ، وأن سوء التدبير تعقبه النكبة حتماً ، وأن الأهالى معارضون له وغير ميالين إليه . لذلك اضطر الى إطالة مدة إقامته فى القنفذة ليجمع شمله وينظم أموره ولينتظر وصول القوات القادمة لإكمال حملة عسير .

وكان الشريف لما أزمع الحركة من الحجاز استأجر ألفا وخمسمائة جمل لمدة أربعة أشهر بأجرة قدرها خمسة عشر جنيها عثمانيا ذهبا لكل جمل على أن تستعمل هذه الجمال فى نقل مهمات الحملة ، وأخذ من الحكومة لكل واحد من اصحاب هذه الجمال بندقية « ماوزر » وما يلزمها من الذخيرة . وعلى ذلك فقد كان معه الفرقة العسكرية المؤلفة من خمسة آلاف جندى مجهزين بلوازمهم ، ومن الجمالة ألف وخمسمائة رجل مسلح ، وبين مائة وخمسين الى مائتين من البدو الهجانة ، وفضلا عن ذلك فقد كان معه « الجندرمة » الهجانة التى كان منوطا بها حفظ الأمن فى الحجاز ، وفى معيته ومعية ولديه حاشية وخدم وطباخون يبلغ عددهم ستين رجلا . هذه هى حقيقة الحملة التى كان يقودها الشريف الى عسير ، خلافا لما كانت تزعمه جميع صحف الآستانة يومئذ من أن معه عشرين ألف بدوى وفرقة عسكرية تامة ، وهذه الأخبار المبالغ بها جعلت للشريف مكانة خاصة فوق ما تستحقه مهمته .

وبعد حين كان الشريف قد انتهى من تنظيم حملته فتقدم من القنفذة إلى « القوز » ثم إلى « سوق الجمعة » و « البارك » وبعدها صعد الى « بنى شهر » من عقبة تنومه ، ومر فى الجبال بين قبائل « بلسمر » و « بلحمر » حتى وصل الى أطراف أبها فاستقبلناه واتحدت القوتان ورفع الحصار عن أبها .

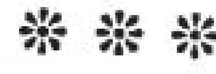
أن المسافة بين القنفذة وأبها بالسير المعتاد تقطع بخمسة عشر يوما وقد استطاع الشريف أن يقطعها حربا بخمسة وثلاثين يوما أو أربعين يوما .

ونشبت بينه وبين الثائرين فى الطريق خمس عشرة معركة أو عشرين معركة ولم يكف عن القتال حتى وصل إلى أبها حيث كان بقية الثائرين قد تفرقوا .

أما الطريقة التى سار فيها فكانت مقتصرة على شق طريق له ليمر إلى الامام ثم لا يهتم بالمحافظة على خط الرجعة وامتلاك الأماكن التى يمر بها . أى أن الثائرين كانوا يعودون فيستولون على الأماكن التى اجتازها . فكانت حملة الشريف أشبه شيء بالسفينة فى الماء يشق حزومها عباب الماء من أمام فيعود الماء

الى الالتئام من خلف ، ولا تترك السفينة وراءها غير أثر ضعيف لا يلبث أن يبيد .

نعم إن وصول حملة الشريف إلى أبها زادت قوة الدفاع حتى صار لا يخشى أن يهاجمها الثائرون ولكن هؤلاء الثائرين لم تظهر عليهم أمارة من أمارات الخضوع والميل الى التسليم ، وظلت القبائل فى تهامة وفى الجبال معتمدة على فوهات بنادقها منتظرة ما يأتى به الغد . ولم يذعن لأمير مكة غير القبائل التى تحت مرمى مدافعنا فى نفس جبل عسير وهى قبائل « علكم » و « بنى مغيد » و « ربيعة رفيدة » و « بنى مالك » و « شهران » ، فقد جاء مشايخ هذه القبائل الى الشريف بعد بضعة أيام من وصوله إلى أبها فعرضوا عليه الطاعة ، وكان فيمن حضر الشيخ حسن بن على آل عايض حفيد الأمير محمد بن عايض آخر أمراء عسير السابقين فقد أذعن للطاعة ودخل فى أمان الشريف . (١)



(١) لقد أوردنا ما جاء فى مذكرات سليمان شفيق باشا عن حملة أمير مكة الشريف الحسين ، وبطبيعة الحال أنه أورد وسجل ما لديه عن رؤيته وتصوره .
وها نحن إنصافا للحقيقة نورد ما سجله صاحب الرحلة اليمانية الذى رافق الحملة ونعلق عليها بما ذكر فى مذكرة الأمير عبدالله بن الحسين ـ راجع تلك الحاشية فى ص١٩٩ .

مع الشريف فى عسير

فى اليوم التالى لتشريف حضرة أمير مكة إلى « أبها » أرسل يقول مع ابنه الشريف عبدالله بك : إنه سيرسل إلى الأستانة ـ بطبيعة الحال ـ البرقية الأولى عن وصوله إلى « أبها » ظافرا ، وسيتضمن تلغرافه طلب الانعام علىَّ ، وعلى ذلك أتى يسألنى عن نوع الانعام الذى أرغب فيه . فأجبته شاكرا عناية حضرة الأمير ، وقلت :

ـ إنى أرغب فى أن لا يكتب حضرته أى شىء من أجلى أنا شخصيا ، وأن الدفاع عن أبها يعود شرفه إلى جميع الذين تشرفوا بالاشتراك فيه من إخوانى المقاتلين ، فإذا قامت العاصمة بمكافأة هؤلاء فإنى سأكون مسرورا بأى شىء ترى الدولة أنه صالح لمكافأتى به على خدماتى الصغيرة . وبعد قليل أرسل حضرة الشريف يدعونى إليه ، وبعد أن قمت بواجب التحية والاحترام قال لى : لماذا لا ترغبون فى أن أكتب إلى الآستانة بشأنكم ؟

قلت : إنى شاكر لالتفاتكم . إن مقام دولتكم عظيم جدا عند الدولة ولشخصكم احترام كبير فى قلوب الأمة ، فلو أنكم طلبتم الدولة أى إكرام لجمال عادى لم تسبق له أية خدمة للدولة فإنها لا تتردد فى إجابة طلبكم ، بل تبادر فى الحال إلى إنفاذه . فالذى أريده أنا هو أنه إذا كانت لى خدمة فى هذه الدولة أن تقدرها الحكومة المركزية بنفسها وتكافئنى عليها ، والمكافآت التى أحصل عليها من هذا الوجه تكون لها فى نفسى لذة عظيمة . لذلك أرجو من سيدنا أن لا يتوسط قط فى طلب أية مكافأة لأجلى .

قال : أنا سأكتب على كل حال .

فساءنى إصراره على ذلك ، فقلت له : إذا أصر سيدنا على طلب المكافأة لي على غير رضى منى ، وأجابت الدولة طلبه فكافأتنـى بشىء فإنـى سأرد لك المكافأة ردا قطعيا مهما كانت .

أدهش الشريف سماعه هذا الجواب منى ، فقال :

ـ حسن . أننى لن أكتب بشأنك إجابة لرغبتك .

والأسباب التى حملتنى على التزام هذه الخطة التى ربما كانت مخالفة لأساليب الرقة ، هى التى ـ كما قلت لحضرة الأمير ـ أرغب فى أن أنال المكافـأة بلا واسطة ، وفضلا عن ذلك فإننى من أول الأمر معارض لتدخل الشريف فى شئون عسير ، وإنى مُوَطِّن نفسى على تقديم جميع الأدلة والبراهين لعاصمة الدولة على الضرر والخطر الذى سينشأ عن هذا التدخل ، لذلك كنت لا أريد أن أسجل فضلاً لرجل أنا عازم على مقاومته . فالمسألة كانت ناشئة عن اختلاف يتعلق بالمصلحة العامة وليس بيننا أى اختلاف شخصى . وفى الواقع نحن بوجه عام نحترم العرب ونعظم أشرافهم وساداتهم تعظيما كبيرا ، ومن المألوف تقبيل أيدى أطفال الأشراف والسادات وهم فى الخامسة من عمرهم .

ولما وصل الشريف إلى أبها احترمته احتراما فوق العادة لأنه من الأشراف الكرام ، ولأنه فى مقام سام وهو إمارة مكة ، ومعدود من وزراء الدولة العثمانية ولم يكن قط يخطر بالبال أن يبدر منه ما يخالف رضا الحكومة، لذلك كانت عاصمة الدولة تحمل ما أكتبه عن الشريف على خطأ فى النظر وغلط فى التقدير فلا تجيب مقترحاتى .

بعد وصول الشريف إلى أبها ببضعة أيام أذاع رسائل على المشايخ الذين فى جوار أبها ـ بلا علم منى ـ وهذه الرسائل تتضمن معانى مستترة يرمى هو إليها . فجاءني بعض هؤلاء المشايخ وأطلعونى على الرسائل التى جاءتهم منه وسألونى : هل أعطت الدولة بلاد عسير إلى ذوى عون أشراف مكة ؟

وهذه صورة إحدى تلك الرسائل :

« ليعلم من يراه أننا أبقينا الشيخ سعيد بن عبدالله بن عقران على ما كان عليه من أسلافنا الأمراء الكرام . وللعمل بموجبه تحرر هذا بيده »

حرر فى ٢٩ رجب سنة ١٣٢٩
أمير مكة ـ الختم الحسين بن على

وسننشر الصورة «الفطوغرافية » لهذا الكتاب عما قريب ، أما أنا فلم أبطىء فى فهم المعنى المستتر وراء هذه الرسالة . ولكنى اكتفيت بأن أجبت الشيخ الذى سألنى : إن حضرة الأمير جاء إلى هنا بمهمة من جانب مقام الخلافة . وهو ينبئكم بهذه المذكرة أن مشيختكم باقية باسم الخلافة . ولا يفهم من هذه المذكرة شىء آخر .

ذلك ما قلته له . غير أنه فى الواقع يوجد معنى آخر على غاية الأهمية والخفاء فى هذه المذكرة التى يدل ظاهرها على أنها على غاية من البساطة . فالشريف يريد بهذه المذكرة أن يذكر المشايخ بحوادث سابقة ، أن القراء يعلمون أنه لما حدثت حوادث الوهابية [1] فى زمن رأس العائلة الملكية ـ المصرية ـ ونجح ابنه ابراهيم باشا فى القضاء على تلك الحركة يومئذ ، تولت الحكومة المصرية أمر الحجاز وعسير واليمن وقتئذ ، حتى أنه كان للمصريين جنود فى عسير ، وقد ندبت مصر بعض أشراف ذوى عون ـ الذين منهم شريف مكة ـ للادارة فى عسير ولكن العسيريين ثاروا بعد ذلك على القوة العسكرية المصرية التى اتخذت يومئذ موقع « طبب » مركزاً لها وهو واقع فى جبل عسير على مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا من « أبها » فى الغرب الجنوبى ، وكانت نتيجة الثورة إبادة الحامية ، أما

---

(١) يقصد الدعوة السلفية والنهضة الاصلاحية التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الدولة السعودية الأولى فى عهد الامام محمد بن سعود ومن بعده .

الشريف من ذوى عون فقد اكتفى الثائرون بصلم أذنيه وأعادوه الى مكة .[1] ومن هنا يعلم القراء أن مراد الشريف حسين باشا من كلمة « أسلافنا الأمراء الكرام » أن يذكر العسيريين بالأشراف من ذوى عون الذين جاءوا إلى عسير فى ذلك الحين .

وبما أننى أنا وحدى الشخص المسئول عن الادارة فى عسير فقد استأت من قيامه بهذه الاعمال المستترة ومن إذاعته هذه الأوامر بلا علم منى ، غير أنى كظمت غيظى وبت أنتظر ما سيكون بعد ذلك .

قلت فى احدى مقالاتى السابقة : إننى قبضت فى بداية الثورة والحصار على الشيخ حمود شيخ قبيلة « ربيعة رفيدة » وعلى القاضى عبد الله بن مرعى قاضى تلك القبيلة لأنهما كانا يحرضان على الثورة . ولما انتهى الحصار وعادت المحكمة الشرعية الى استئناف عملها أحلت أوراق هذين الرجلين عليها لتحاكمهما وتحكم عليهما بما يقضى به الشرع . وفى أحد الأيام شرف إلى منزلى دولة الأمير ومعه نجلاه النجيبان وعدد كبير من مشايخ عسير . فاستقبلتهم استقبالا لائقا ورحبت بهم ثم اقتربت من دولته وقلت : اننى مستعد لتلقى أوامركم . لأننى شعرت بأنه لم يحضر الاّ لغرض يريده ، فقال لى بعد أن سألنى عن صحتى وأحوالى : إن هؤلاء المشايخ الذين حضروا معى إليك يطلبون منك أن تعفو عن القاضى عبدالله بن مرعى وعن الشيخ حمود .

---

(١) من المعروف تاريخيا انه بعد ما بايع العسيريون الحسن بن خالد الحازمى فى سنة ١٢٣٤ قام بغزوة إلى جنوب الطائف أثارت مخاوف سلطة الحجاز فصدرت أوامر محمد على بتجريد حملة للقضاء على تلك الامارة الناشئة لعسير ، صارت الحملة بقيادة محمد بن عون وفهد بن سالم الشكبان والقائد التركى سليمان سنجق ودارت المعركة حول جبل شكر التى انتهت باستشهاد الحسن بن خالد الحازمى رحمه الله فى شعبان سنة ١٢٣٥ وتولى محمد بن عون أمر بلاد عسير ، وبعد أن استقرت الأحوال أناب محمد بن عون أخاه هزاع وتقدم يقود الحملة الى وادى الدواسر وقد سار معه مجاهدو عسير ما عدا مجاهدى بنى مغيد بقيادة سعيد بن مسلط الذين وافوه فى السليل فغضب محمد بن عون من تأخرهم وأنب سعيد بن مسلط الذى انسحب بقومه عائدا إلى عسير وهاجم حامية بلدة طبب وأخرجها من البلدة مع قائدها هزاع بن عون واستولى على إمارة عسير ، وبالرغم عن معاودة محمد بن عون ومحافظ الحجاز احمد باشا لغزو عسير إلاّ أن سعيد بن مسلط أرغمهم على التراجع وظل فى إمارة عسير إلى أن توفى سنة ١٢٤٢ .

ولما قال ذلك قام مشايخ القبائل رفع كل منهم عقاله ووضعه بين يدى ، وهى عادة العسيريين عندما يطلبون العفو عن أحد . وعلى أثر ذلك نهضت واقفا وقلت مخاطبا دولة الشريف : إن أمر دولتكم مطاع عندى ، غير أننى ألتمس منكم أن تسمحوا لى بعرض سؤال على المشايخ ثم احكموا بما تشاؤون .

قال : سلهم ما تريد . فقلت لهم : أيها المشايخ . إننى لما وصلت إلى عسير كانت الحكومة لا تعمل بأحكام الشرع الشريف وكان رؤساء الحكومة يتدخلون فى احكام المحاكم الشرعية ، فحضرتم أنتم عندى وشكوتم لى ذلك . وبعد سماع شكايتكم كتبت الى الحكومة وحصلت منها على أمر بأن تكون المحكمة الشرعية مشكلة من رجالكم فقط ، وأن أحيل عليها جميع القضايا وأن أنفذ الأحكام الصادرة منها وأن لا أتعرض لشىء من أحكامها .

والآن فإن الشخصين اللذين تطلبون العفو عنهما قد أحلتُ أوراقهما الى المحكمة الشرعية وبعد أيام سيصدر حكم المحكمة فى شأنهما . فهل تريدون منى أن أتدخل فى شئون المحكمة الشرعية قبل أن يصدر حكمها فى هذا الأمر ؟ إذا رضيتم بأن أدس اليوم اصبعى فى شئون المحكمة الشرعية فان الذين سيأتون بعدى من الحكام سيدسون ذراعهم ورجلهم . إن كنتم ترضون بما سيكون غدا فإنى مستعد لاجابة طلبكم اليوم .

فلما سمع المشايخ كلامى بادروا فى الحال إلى سحب اقتراحهم وقالوا : نحن راضون بالحكم الشرعى مهما يكن .

فالتفت إلى دولة الشريف وقلت له : أرأيتم يا سيدنا ؟

فقال : ما دام الأمر كذلك فلا بأس .

أما المحكمة الشرعية فرأت أن المدة التى كان الرجلان موقوفين فيها طول زمن الحصار تعد عقوبة كافية ، وحكمت بإطلاقهما . وقد حضرا بعد خروجهما من السجن وشكرانى ووعدانى بأن يكونا صادقين للدولة بعد الآن وقالا بأنهما كانا مخدوعين واعتذرا عما صدر منهما ، فأهديت إليهما الخلع والعطايا وأعدتهما الى مكانهما .

إنما ذكرت كل هذه الأمور وعرضتها على أنظار القراء ليعلموا أن الاموركانت جارية على مقتضى المصلحة ، ولم تكن هنالك أغراض شخصية . وأن ما ذكرته لا مأرب لي فيه .

وأن عندى الآن معظم المستندات المتعلّقة بمدة وجودى فى بلاد العرب غير أنى لا اجد متسعا من الوقت لجمع هذه المستندات وتصنيفها لتكون فى شكل مذكرات منظمة . غير أن الحوادث الأخيرة العظيمة الأهمية التى وقعت فى بلاد العرب ، والترغيب الذى لقيته من بعض الأصدقاء ومن القراء جعلنى استمر فى نشر قطع من مذكراتى اعتمادا على رؤوس أقلام مدونة عندى أكملها من ذاكرتى .

وإنى اعترف بعُدم مقدرتى فى صناعة الانشاء والتحرير ، لأن صناعتى هى الجندية ، وأقول هذا طالبا العفو من القراء عما يرونه من عدم الارتباط بين أجزاء مقالاتى . أما عن المعلومات نفسها التى أوردها فى هذه الفصول فإنى أرجو من كان عنده تفصيل أوسع أو بيانات تفيد الحقيقة والتأريخ فيما يتعلق بالحوادث أن يتفضل بنشرها على الناس . وإنى ألتزم الاختصار فى كل ما اكتبه فى هذه المقالات اجتنابا لملل القارىء ، فإذا جاء الاختصار مخلا بالمعنى فى بعض الأوقات فأرجو ممن يلاحظ ذلك أن ينبهنى إليه لاتوسع فى البيان .

* * *

خطة الشريف فى عسير

وفى خلال ذلك أعلمنى حضرة الشريف - بطريق غير مباشر - رغبته فى اعلان عفو عام عن أهالى عسير . فأجبت على ذلك : إن قبائل عسير لم تطلب بنفسها العفو والآن يكون إعلان العفو عنها من الأمور المضحكة . وغاية ما يمكننا عمله أن نعفو عمن يأتى إلى أبها طائعا من رجال القبائل . فاذا كان دولة الشريف موافقا على ذلك فإن من المناسب أن نعقد له مجلس شورى نتداول فيه بهذا الأمر .

وافق دولة الشريف على اقتراحى ، وانعقد مجلس شورى برئاسة حضرته أنا وجميع قواد الجيش . وقد ابتدأ هو الكلام فذكر نجاحه فى الوصول إلى أبها ورفع الحصار عنها وقال : إن أهالى جبل عسير عرضوا طاعتهم فيحسن أن نعلن عفوا عاما يشمل سائر القبائل . فطلبت أنا الكلام فى المجلس وقلت : إن الذين عرضوا الطاعة هم القبائل التى على مقربة منا ، وهؤلاء يبلغ مقدارهم نحو جزء واحد من خمسين جزءا من قبائل عسير أو أقل من ذلك ، وها أن القبائل التى مررتم دولتكم عليها بين القنفذة وأبها لم يعرضوا طاعتهم ولا كتابة ؟ بل أنهم استولوا على البريد الوارد الى دولتكم من القنفذة ، فإعلام هؤلاء القبائل بالعفو عنهم من قبيل اعترافنا بالعجز أمامهم ، وذلك مما يزيدهم ثباتا وإصرارا على ما هم فيه .

وعلى ذلك ينبغى لنا بدلاً من إعلان العفو العام أن نعلن أن كل من دخل فى طاعة الدولة فهو آمن .

فقال دولة الشريف جوابا على كلامى : أنا قررت إعلان العفو العام ، وقد حضرنا الآن للكلام فى إنفاذه . فأجبته : إننى لم أتلق من الباب العالى تعليمات فى هذا الموضوع ، لذلك أنا معذور فى عدم تنفيذه ، لاسيما وأنا مقتنع بنتائجه المضرة ، ثم أن دولتكم ستعودون الى مكة بعد بضعة أيام ، فتقع الأمور على رأسى أنا . وأنا لا استطيع أن أفتح على نفسى أبواب مشاكل جديدة يصعب علي اقتحامها . وتعلمون سيادتكم أننى هنا أمثل الحكومة الملكية والقوة العسكرية على استقلال ، وأنا المسئول عن كل خير أو شر يقع فى ادارة البلاد .

فقال الشريف : تقول أنك لم تتلق من الباب العالى تعليمات فى هذا الشأن . وأنا أقول . أفرض أنى أنا ممثل الباب العالى هنا فأنا أكلفك بانفاذ فكرة العفو العام ، قلت : إن مقام دولتكم عظيم ، وهو فى نظرى أعظم من مقام الباب العالى . ولكننا الآن فى حكومة دستورية لا يستطيع فيها أى آمر أن يجبر أى مأمور على عمل مخالف لضميره واقتناعه ، وغاية ما فى الأمر أن المأمور يستطيع أن يقول لآمره : أننى غير مقتنع بصواب ما أمرتنى به ، ويستقيل من وظيفته . وأنا الآن فى مثل هذا الموقف لأنى أرى ما تأمروننى به مخالفا لاجتهادى ، ولا استطيع تنفيذه لذلك أقدم استقالتى ! فاختاروا من بين القواد الحاضرين أى شخص ليحل محلى فينفذ أمركم . قال : ليس من شأنى أن أقبل استقالتك وأعين غيرك فى مكانك . قلت : إذن .. فإنى بكل أسف لا استطيع أن أنفذ إرادتكم .

فغضب الشريف ونهض من مجلسه وقال : إن المشاق التى اعترضتنى فى سبيل الوصول الى هنا هى لأجل الدولة . ولولا ذلك لقرعت طبلى ووصلت الى الهند دون أن أجد فى طريقى ما يمنعنى ، وها أنا عائد الى مكة بعد بضعة أيام .

فتغلبت على عواطف الثأر قلت : أنا لم تكن لى سلطة تخولنى دعوة دولتكم للحضور الى هنا ، ولا أتجاوز حدى فأدعوكم الى العودة . وانكم بصفتكم سائحا مسافرا تستطيعون أن تذهبوا الى أى جهة من جهات الأرض دون أن يعترضكم مانع .

فغضب وخرج من المجلس ، وبطبيعة الحال باتت فكرة العفو العام عقيمة .

ولا أرى أن الشريف طلب إعلان العفو العام عن القبائل لاعتقاده أن ذلك سيقع منهم موقع الرضا فيذعنوا طائعين ، ولا هو يعتقد أن مسألة عسير انتهت وانجلت بفك الحصار عن أبها ، لأن حل مسألة عسير إنما يكون باختراق « وادى ضلاع » أو « رجال ألمع » حربا الى « وادى مرابة » ثم التقدم الى « صبيا » واحراز النصر أمامها وإجبار الادريسى على الفرار منها وحينئذ تكون القوة القادمة من « جيزان » قد وصلت فتتحد القوتان وتستوليان على « صبيا » .

أما الحالة الراهنة فهى أن قبائل تهامة جميعا من « القنفذة » إلى « أبى عريش » الواقعة فى جنوب صبيا كلها ثائرة متمردة وفى حالة الخضوع للادريسى و « رجال ألمع » فى جملتها . ثم أن الطريق بين القنفذة وأبها لا يزال مسدودا كما كان من قبل حضور الشريف ، فالمواصلات مقطوعة بين مركز عسير وبين البحر .

إن الشريف ذاق صعوبة الحرب فى هذه البقاع مما لقيه من المقاومة الشديدة بين القنفذة وأبها ، فنزع من نفسه فكرة التقدم إلى صبيا وقرر العودة الى مكة . وقد أراد باعلان العفو العام أن يوهم الباب العالى أن مسألة عسير انحلت وأن القبائل أذعنت للطاعة ، وعلى ذلك فإن مهمته فى عسير انتهت ثم هو يريد أن يلقى على عاتقى مسئولية ما يحدث بعد عودته الى مكة ، وإذا سئل من الاستانة عن ذلك يجيب « أن القائد فى عسير لم يحسن التصرف » .

وإذا أبعدتنى الدولة من هناك يسعى هو لاحلال واحد من ذوى العلاقة به فى هذا المنصب الخطير وتنطلق يده فى تأسيس النفوذ لنفسه فى عسير بلا معارضة .

هذه المقاصد المستترة والمآرب الخفية كانت كلها معلومة عندى فوطنت النفس على الوقوف فى طريقه وعرقلة مساعيه مهما كانت نتيجة ذلك .

وطلب منى الشريف وهو فى أبها أن أعين حسن بن على بن عايض معاونا لمتصرفية عسير بدلا من عبدالله بن عايض الذى كان فى هذه الوظيفة ومات أثناء حصار أبها وهو قائم بالخدمات الصادقة ، ولما رأيت هذا الاقتراح فى محله

وافقت على ذلك وكتبت إلى الباب العالى فى الحال طالبا تعيينه فأجيب طلبى .

انتهت أعمال الشريف فى أبها فأخذ يستعد للرحيل . ومعلوم أن الطريق بين أبها والقنفذة مسدود بالثوار ، فاختار الشريف طريق « شهران » و « بيشة » الى « الطائف » .

وفى ذات صباح جاءنى سعيد بك الفائز ـ الذى كان قائمقام فى بنى شهر وبقى عندى فى أبها أثناء الحصار ـ وقال لى : إنه عازم على السفر إلى وطنه « النماص » وهى مركز قضاء بنى شهر وقد استأذن من دولة الأمير فجاء يودعنى فقلت : حسن اذهب بسلامة الله .

قال : وإن لى معروضات أخرى ، إن دولة الأمير تفضل بتعيينى قائمقام على قضاء بنى شهر ، وأمرنى بالسفر إليها حالا واستلام زمام الادارة فيها فجئت اليكم لتأمروا باجراء المعاملة الرسمية الخاصة بهذا التعيين .

قلت : كنت أود أن أنتخبك أنا لهذه الوظيفة وأكتب بذلك الى الآستانة لتوافق على تعيينك . وإذا كان لحضرة الشريف رغبة فى ذلك فكان ينبغى أن يعلمنى بها رأساً وأنا أقوم بما يلزم . أما الآن فأقول لك بصورة قطعية : إنك لست قائمقاما على بنى شهر ، واذا توجهت الى هناك وتوليت هذه الوظيفة بلا أمر منى فإنى سأنفذ فيك حكم القانون بكل شدة . وقائمقامية بنى شهر يتولاها اليوم عبدالله ظافر باشا . فاذهب أنت إلى وطنك ولا تتعرض قط لشئون الحكومة والزم بيتك .

فقال : الأمر لكم .

وجاءنى بعد ذلك ياور دولة الأمير وهو أميرلاى الدكتور عزيز بك ، وأفهمنى أن الشريف مستاء من عملى هذا فقلت له : اعرضوا على دولة الأمير انه إذا كان يريد تعيين الفايز بك قائمقاما فينبغى أن يستقيل ابنه فراج بك الفايز من النيابة فى مجلس المبعوثان فنعين عبدالله ظافر باشا نائبا بدلا منه وبذلك نحافظ على التوازن بين الاسرتين فى بنى شهر ، واستطيع أنا أن أحافظ على نفوذى ما دمت ممثلا للحكومة هنا وما دمت أنا القائم باعباء العمل .

بعد بضعة أيام من هذه الحادثة سافر دولة الأمير ومعه ابنـاه الشريف فيصل بك والشريف عبدالله بك وابن أخيه الشريف جميل بك تصحبهم حاشيتهـم وبلوك الهجانة الحجازى والألف والخمسمائة جمل ومعها أصحابها .

وبقيت القوة العسكرية التى حضرت مع الشريف فى عسير منضمة إلى قواتنا الأولى . فخرجت القوات العسكرية كلها للقيام بمراسم الوداع لدولته ، فكان وداعا شائقا جدا ، وقد سرت مسافة أربع ساعات ، ثم ودعته ورجعت إلى أبها .

* * *

بعد رجوع الشريف الى مكة

لما وصل دولة الأمير إلى مكة كتب الى كتابا ومع الكتاب صورة برقية وردت إليه من محمود شوكت باشا وزير الحربية ، ويظهر أنها جواب على برقية شكوى أرسلها دولة الشريف،من الباب العالى يتذمر فيها من معارضتى فى اعلان العفو العام ، ومن رفضى الموافقة على تعيين سعيد بك الفائز قائمقاما « أى حاكما » على بنى شهر . وفى كتاب الشريف تعريض لى بأنى لا اعمل بما يقوله وزير الحربية فى برقيته ، وهذه صورتها :

إلى حضرة أمير مكة المكرمة فى الطائف .

لما كان من اللازم أن توافق الدولة على الأمان المعطى من جنابكم الهاشمى أثناء الحركات العسكرية فقد أرسلت قبل الآن برقية الى متصرف عسير وقائدها تتضمن الوصية بالعمل بذلك ، بأن يهتم باستمالة الأهالى وتأليف قلوبهم . ثم أنه يقصد الاعراب للأهالى عن زيادة شفقة الدولة وانعطافها ، وبناء على أن اللازم أن توافق الدولة على الأمان المعطى من جانبكم الفخيم فى أبها بعد فك حصارها لكل من راجعكم فى ذلك منذ كنتم فى القنفذة ، بشرط أن يعيدوا كل ما فى أيديهم من الأسلحة الأميرية والمهمات والأشياء المأخوذة من الجيش ، بشرط أن لا يشمل هذا العفو الأشخاص الذين اتخذهم الادريسى رؤساء لحركات الثورة ، فقد كتبنا بذلك الى قيادة عسير بصورة التأكيد بناء على قرار مجلس الوزراء القاضى بذلك والمتضمن وجوب إبلاغه إلى القيادة المشار إليها . أما بشأن تعيين سعيد الفائز قائمقاما لقضاء بنى شهر فاعرض لدولتكم أننا أحلنا الأمر من قبل على وزارة الداخلية .

فى ٣٠ أغسطس سنة ١٣٢٧ وزير الحربية : محمود شوكت .

أما أنا فقد كنت عرضت على الباب العالى بالتلغراف أثناء عودة الشريف الى مكة ما كان قد دار بينى وبينه بشأن إعلان العفو العام وعدم موافقتى عليه والأسباب التى حملتنى على ذلك ، كما أنى عرضت مسألة سعيد الفائز بالتفصيل والذى يقرأ بامعان جواب وزير الحربية الذى نشرته آنفا على الشكاوى التى رفعها الشريف الى الباب العالى يتبين له أن مركز السلطنة هو أيضا غير راض عن الشكل الذى يقترحه الشريف لاعلان العفو العام . وقول وزير الحربية للشريف : أن مسألة تعيين سعيد الفائز لقضاء بنى شهر أحيلت على وزارة الداخلية يفيد معنى أن الشريف لا حق له بالتدخل فى مثل هذه المسألة وقد أدهشنى أن الشريف لم يتنبه الى هذه النكات الدقيقة ، فأرسل لي صورة « تلغراف » وزارة الحربية ظانا أنه يتضمن تأييده فى رأيه .

ولما جاءتنى صورة ذلك « التلغراف » من الشريف بادرت فى الحال إلى إرسال تلغراف الى الباب العالى قلت فيه : أننى عرضت من قبل أن من المضحك إعلان العفو العام عن قبائل لم تتنازل حتى الآن إلى أن تطلب هذا العفو فضلا عن أن تعيد الى الدولة الأسلحة والذخائر والأشياء الأميرية ، ولذلك لم أوافق على هذه الفكرة . وأما مسألة عزل أو نصب القائمقامين فانى أراها من حق المنصب الذى أشغله وبديهى أنى لا أوافق قط على تدخل الآخرين فى هذا الأمر لأن الموافقة على ذلك مخالفة للقوانين المعمول بها فى الدولة . أما استمالة الأهالى وتأليف قلوبهم فذلك أقصى ما أؤمله وأعمل له .وسأقوم عما قريب بسياحة فى جبل عسير ورجائى فى أننى أتوصل إلى استمالتهم دون أن يحتاجوا إلى اطلاق بندقية واحدة وألتمس بكل تأكيد أن لا يتدخل فى شئون عسير من ليس هم وقوف على أحوالهم ومن هم لهم غايات مستترة ومرام خفية يرمون إليها .

وبعد ارتحال الشريف عن عسير أصبحت مطلق اليد فى أبها فنظمت أمورها ثم عزمت على القيام بسياحة بين القبائل القريبة منا لأكون على صلة بها ولأزيل من نفوسها الأوهام والوحشة ، وبالفعل ذهبت الى القبائل الموجودة فى المنطقة

المجاورة لنا وهى قبائل بنى مغيد وعلكم وربيعة رفيدة وبنى مالك فاختلطت بهم وصحبت معى مشايخهم وكان معى فى هذه الرحلة حسن بك بن علي بن عايض الذى كان فى وظيفة وكيل المتصرف ومعى أيضا ست « أورط » عسكرية وبطاريتان من المدافع و « بلوك » واحد من المدافع الرشاشة فعرجت فى الشرق الجنوبى على قبيلة بنى يزيد فاستقبلنى شيخها وعقالها .

***

استطراد عن حفلات الاستقبال فى عسير

من عادة العسيريين إذا زارهم أحد ينبغى الاحتفال باستقباله أن يخرج أهل الحى الى مسافة إربعمائة أو خمسمائة متر ، وهم متقلدون أسلحتهم الحربية ، ويجلسون صفاً كهيئة الحرب على احدى الركبتين . فإذا اقترب الزائر منهم ، يحيط هؤلاء به بشكل نصف دائرة ويتقدمون هم أيضا نحوه بهيئتهم المذكورة . فإذا حياهم الزائر ردوا له التحية والترحيب ، ثم يوجهون فوهات بنادقهم الحربية نحوه معا ، ثم يرفعونها الى الهواء ويطلقون رصاصها فى الجو تماما للتحية .

وقد يبطئون فى رفع فوهات البنادق إلى الهواء لاطلاقها ، ويبقون مسددين فوهاتها نحو الزائر حتى تلمس كتفه ، ثم يرفعونها عن كتفه فيطلقونها فى الهواء .

ولا يحسبن القارىء أن هذه البنادق المسددة نحو الزائر فارغة من الرصاص بل هى ملأى به . وهذا العمل من اعظم مظاهر الترحيب والتكريم عند أهالى عسير . أما اذا كان الزائر ممن يجهلون عادات البلاد فانه يظن هذا العمل حركة عدائية ويخيل إليه أن القوم يريدون قتله وقد يحدث فى أثناء ذلك بعض الحوادث قضاء وقدرا فتنطلق الرصاصة من البندقية قبل أن توجه فوهتها إلى الهواء .

ولما وصل دولة الشريف إلى أبها خرجنا لاستقباله استقبالا عسكريا ، وكان هو قادما علينا بجيشه وموكبه .

واتفق أنه لما كان فى الطريق بين القنفذة وأبها كنت أتبادل معه المراسلة بواسطة رجل عسيرى من جنود « الجندرمة » اسمه حمود ، ولأن هذا الرجل كان يؤدى مهمته بنجاح جعلته « جاويشا » وأهديته جوادا . وعند وصول موكب الشريف إلى أبها أحب الجاويش أن ينال مكافأة من الشريف أيضا ، فخرج فى

الاستقبال راكبا جواده وجرى به نحو الشريف مسددا بندقيته إلى صدره حسب عادة العسيريين . ولم يكن الشريف يعرف هذه العادة فظن أن الرجل يريد اغتياله فصاح بفرسانه ، وسرعان ما استل فرسان الشريف سيوفهم وهجموا جميعا على الجاويش حمود . ففهمت أنا المسألة وأسرعت بتنبيه دولة الشريف إلى أن الرجل يحتفل باستقباله على عادة البلاد ، فأسرع الشريف فيصل بك بجواده نحو الفرسان الهاجمين على الرجل وصاح بهم بأن يكفوا عن الجاويش حمود الذى اعتراه الذهول والدهشة مما رأى فسقط عن ظهر جواده على الأرض وكان الشريف فيصل بك قد ادركه فرد عنه الفرسان الهاجمين عليه وأنقذه منهم .

وبالرغم من ظهور حقيقة المسألة فان الشريف أمر بسجن الجاويش ، ولم استطع إخراجه من السجن إلاّ بعد رجاء وإلحاح شديدين .

* * *

رحلتي في جبل عسير

إن مدينة « أبها » التى هى مركز الحكومة فى عسير واقعة فى جبل سراة عسير داخل أراضى قبيلة بنى مغيد . فاذا ابتعد الانسان عن أبها مسافة ثمانية كيلو مترات الى الشرق الجنوبى يصل إلى أراضى « شعاف » التى تسكنها قبائل آل يزيد ورفيدة اليمن ، وتمنية . وفى الجنوب الغربى من هذه المنطقة يوجد وادى ركان والردوم . وفى الشمال بنو قيس ، وفى الشرق شهران ، وفى الجنوب أراضى بنى مغيد .

ولما وصلنا الى قبيلة آل يزيد فى منطقة شعاف كما ذكرت فى المقال السابق وجدت هذه القبيلة فى حالة السكينة والاستئناس ، وقد زارنى مشايخها وتعهدوا لى بموالاة الدولة ولم أجد منهم نفرة ووحشة . وسبب ذلك أن حسن بن على بن عايض الذى عين وكيلا للمتصرفية كان رفيقى فى هذه الرحلة . وقد فاوض القوم قبل حضورنا إليهم وطمأن خواطرهم .

* * *

آل عايض (١)

وآل عايض هم فى الأصل بيت من بيوت قبيلة آل يزيد . ويقال فى أصل آل يزيد إنهم من سلالة معاوية بن أبى سفيان الأموى ،وقد انتقلوا خفية من الشام إلى عسير عقب زوال الخلافة من بنى أمية وانتقالها الى بنى العباس ولست أعرف درجة هذه الدعوة من الصحة ، ولا يحفظ آل يزيد عندهم حجة أو مستندات مكتوبة تؤيد نسبهم الى بنى أمية ، وغاية ما فى الأمر أنهم يعلمون ذلك ويتناقلون ويتوارثون الأسم الذى تسمى به قبيلتهم . وقد بحثت عن تاريخ لعسير فلم أجد . وقد علمت أن أحد علماء رجال « ألمع » وهو الشيخ محمد بن حسن بن عبدالرحمن الحفظى كتب تاريخا لعسير ذكر فيه أبناء آل مجثل الذين كانوا حكام هذه البلاد قبل آل عايض وفيه أخبار آل عايض أيضا وتاريخ دخول المصريين

---

(١) عائض بن مرعى من آل يزيد من قبيلة بنى مغيد خلف فى إمارة عسير على بن مجثل المتوفى سنة ١٢٤٩ ، وقد استطاع الأمير الجديد عائض بن مرعى التغلب على قوات محمد على وأمير مكة ، ومن ثم توسعت إمارته بعد حوادث يطول شرحها ، واتسعت إمارته من غامد وزهران إلى ظهران اليمن ، ودامت إمارته ٢٤ عاماً حتى ادركته الوفاة عام ١٢٧٣ .

بوفاة الأمير عائض خلفه ابنه محمد بن عائض وفى أول عهده بل بالأصح عام ١٢٨٠ هـ . صار إلى المخلاف السليمانى ففر أميرها الثائر عليه فضم المخلاف الى إمارته ، وفى عام ١٢٨١ هـ جرد الاتراك حملة أخرجت حاميته من أبى عريش ، وفى عام ١٢٨١ تخلى عن بلاد غامد وزهران لامارة مكة ، وفى عام ١٢٨٥ هـ تمكن من القضاء على ثورة رجال ألمع ، وفى عام ١٢٨٨ زحف على تهامة اليمن فوصل إلى الحديدة وضرب عليها نطاق الحصار وانهزم من تحت اسوارها متراجعا وعاد إلى عسير فى ٥ شوال من السنة المذكورة وبعدها زحفت الجيوش التركية بقيادة « رديف » و « مختار باشا » ووالوا الزحف إلى أن اضطروا الأمير محمد بن عائض إلى الاستسلام فى أواخر شهر محرم عام ١٢٨٩ هـ وفى مساء ذلك اليوم قتل مع ٣٥ من رؤساء قومه غيلة ، تغمدهم الله بواسع رحمته وأسكنهم فسيح جنانه .

الى عسير وخروجهم منها . والشيخ الحفظى كان قد ذهب الى الاستانة وصار معروفا فيها . وفى مدة وجودى فى عسير كان منعزلا عن الناس فى منزله فى رجال « ألمع » ولما انتقل الى رحمة الله كتبت إلى أولاده وأخوته تعزية وعرضت عليهم المساعدة واستدعيتهم إلى أبها فكانوا فى ضيافتى ثم فاتحتهم وهم عندى فى مسألة التاريخ الذى كتبه الشيخ لبلاد عسير وطلبت أن يعيروه لى لأنسخه، فوعدونى بذلك غير أن الحوادث التى وقعت حالت دون ارساله وهذا التاريخ يتضمن أخبار قرن كامل .

وآل عايض تبتدىء إمارتهم بالأمير عايض أحد آل يزيد ، وهو والد محمد بن عايض أمير عسير الذى قتله رديف باشا غدرا . ولم يكن أبوه من سلالة الأمراء بل كان رجلا عاديا من الرعاة ، غير أن الله تعالى وهبه الذكاء والشجاعة فاستطاع أن يؤسس لنفسه مكانة فى قومه . وفى خلال الثورة التى قامت بها عسير لاخراج المصريين من ديارهم برهن عايض على شجاعة فائقة فى المعارك التى نشبت فى بلدة « طبب » وكانت مركز المصريين فى عسير فكانت نتيجة ذلك أن عايضا أصبح أميرا على قبائل « عسير السراة » ولما خلفه ابنه محمد بن عايض وسع دائرة نفوذه فبلغ فى الشمال الى بنى شهر ، وغامد ، وزهران وبيشة أى الى حدود بلاد الحجاز ، ووصل سلطانه فى الجنوب الى صبيا ، وأبى عريش واللحية ، أى أنه ضم إلى عسير تهامة اليمن الواقعة فى سواحل البحر الأحمر . ثم استولى على ثغر «المخا» ـ وهو على مسافة خمسين ميلا بحريا من باب المندب الى الشمال ـ فدمر بلاد تهامة يومئذ ـ وهى « مخا » و « الحديدة » وتوابعها ـ تحت الحكم العثمانى أما داخلية البلاد وهى قسم الجبال من اليمن فكان الحكم فيها للأئمة الزيدية . ولما فشلت حركة ابن عايض فى تهامة اليمن انسحب الى عسير غير أن الدولة العثمانية ظلت خائفة منه ، وكان خليج السويس قد فتح حديثا فجهزت الدولة عليه حملة عسكرية بقيادة المشير رديف باشا فنزلت قوة من هذه الحملة فى ثغر القنفذة وقوة أخرى فى ثغر الشقيق . وتقدم المشير رديف باشا الى جبل عسير . ولذلك تفاصيل سأذكرها فيما بعد فى مقال خاص .

لبثت فى آل يزيد ليلة واحدة وفى اليوم التالى أخذت اتنقل فى أطراف تلك الجهات وأختلط بالمشايخ والعقال . ثم اخترت موضعا مناسبا أنزلت فيه « أورطة » واحدة من الجيش .. وسرت بسائر القوة العسكرية التى معى قاصدا نجود « تمنية » الواقعة فى منطقة شعاف ولم أصعد فى ذلك المساء الى صحن « تمنية » بل بت تحته فى قرية آل القزع المرتفعة ألفين ومائة وثلاثين مترا عن سطح البحر . وفى الصباح تحركت من هذه القرية فمررت بمضيق صخرى مكسو بالغابات طوله مسيرة ساعة ونصف ساعة صاعدا الى نجود صحن « تمنية » وارتفاعها عن سطح البحر ألفان ومائتان وتسعون مترا وفى أعلاها قرية آل الينفع « ويلفظونها آل مينفع » .

* * *

نجد تمنية

يرتفع نجد تمنية عن سطح البحر ٢٢٩٠ مترا كما تقدم وتحيط به ذرى يبلغ ارتفاع الواحدة منها عشرين الى ثلاثين مترا ، وهذا النجد بشكل مستطيل طوله ثمانية كيلو مترات وعرضه بين ألفين وثلاثة آلاف متر وينتهى فى الجنوب الغربى بوادى ركان والردوم حيث تبدو فى آخره هوة صخرية سحيقة عمقها أربعمائة أو خمسمائة متر ، وأما الغرب والغرب الشمالى فعبارة عن حزون ذات غابات ، وفى الشمال آكام عريانة منقطعة ، وتمتد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى خمس قرى وهى « دار عمان » و « الينفع » و « المعلى » و « القرن » و « القاع » وبين القرية والقرية نحو كيلو متر ونصف أو كيلو مترين ملأى بالمزارع اللطيفة ، وفيها صخور رملية نقبت فيها آبار من بقايا القرون الأولى فى قاعتها مياه عذبة براقة يسقون مزارعهم منها ، وهذه الآبار تدل على حضارة سابقة ، لأن الأهالى ليس عندهم الآن الآلات الحديدية التى يستطيعون أن يحفروا بها مثل هذه الآبار فى الصخور .

لبثت بضعة أيام أطوف فى انحاء هذه الجهات وأطرافها ، فاستكشفت غير المضيق المشار إليه آنفاً ـ مواقع كثيرة صالحة لحركات عسكرية يقوم بها المشاة فرسمت خرائطها بيدى . وقرى هذه الجهات مبنية بالحجارة وفيها أزقة ضيقة ومنازل متصلة بحيث تشبه القرية بمجموعها قلعة قائمة بذاتها ومنازل القرى ذات طبقتين أو ثلاث طبقات وهى مطلية من داخلها بالجير وذات منظر جميل .

وقيل لى أن فى الشمال الشرقى من هذه الجهة مضيقا يسمى « مضيق الصفراءة » وهو طويل غير أنه أجرد وقليل الحزون . ولما علمت بذلك فى أواسط

شهر أغسطس سنة ١٣٢٧ رافقت مشايخ القبائل واخترقت ذلك المضيق معهم حتى انتهيت منه الى صحراء رفيدة اليمن وأتيت إلى مركز قبيلة رفيدة اليمن وهو بلدة تسمى « آل عامر » ولكن الأهالى لما بلغهم مجيئنا استوحشوا منا ورحلوا بنسائهم وأطفالهم تاركين مزروعاتهم ومواشيهم وجميع ما يملكون وقد اختاروا الانسحاب الى صحن « تمنية » . فلما علمت ذلك اخترت من بين المشايخ الذين معى جماعة من ذوى التأثير فى القوم وأرسلت معهم كتاب الأمان الى الأهالى الذين نزحوا عن ارضهم وتعهدت لهم بأن يكونوا فى وجهى وبعد أن ذهب اولئك المشايخ بكتاب الوجه والأمان إلى اولئك الأهالى أذعت على قواد الجيش الذين معى الأمر الآتى :

أن الأهالى استوحشوا من الجند فتركوا مزارعهم وبيوتهم وانسحبوا إلى الجبال ، ومن المصلحة أن يبرهن الجنود بسلوكهم على أن الدولة عادلة وعلى أننا لم نجىء إلى هذه القرى لننهب أموال الخلق ونختلس حقوقهم بل لوقايتها والمحافظة عليها . فأبلغوا الجنود أن كل من يمس سنبلة من زرع الأهالى أو إبرة من متاعهم فانى سأقتله رميا بالرصاص .

القائد ـ سليمان شفيق

وأن الأحوال الخاصة بجزيرة العرب ، وطريقة الحرب المألوفة عند سكانها تضطر القائد الى العدول عن بعض القواعد العسكرية أو التعديل فيها . ففى هذه البلاد يجب أن تكون الطليعة والساقة قويتين ، وأن تكون مؤنة الجيش وأثقاله وذخائره فى قلب الجيش مع سواده الأعظم ، لأن الهجمات على الجيش تكون عادة فى المقدمة والساقة ، ففى حالة قيام الجيش بهجوم تكون الصدمة على مقدمته وفى حالة انسحابه تكون الصدمة على ساقته . وعلى ذلك يجب أن يكون القائد دائما فى المقدمة وقت حركات التقدم وفى الساقة عند حركات الانسحاب ، وذلك ليستطيع القائد أن يدير الحركات حسب الأحوال التى تبدو له . أما إذا ابتعد عن النقطة التى يجب أن يكون فيها واعتمد على الأخبار المضطربة التى يحملها إليه المرافقون « الياورية » فانه يبنى أحكامه على الخطأ فتسوء النتيجة ، وفى بعض

الأحوال بينما يكون الموقف داعيا إلى المفاوضة مع القوم واعطاء الوجه والأمان وتبادل الضمانات لمنع القتال ، يعتمد القائد على أخبار غير حقيقية فيجلب على جيشه حربا كان فى غنى عنها . وفى حالة الانسحاب إذا لم يكن القائد فى الساقة وتركت ضعيفة فإن ذلك يطمع القوم فى مهاجمتها والاغتنام منها وتحدث بذلك غوائل كان يمكن اتقاؤها . لهذا ولأسباب أخرى غير هذه كنت دائما التزم السير فى المقدمة أو فى الساقة ومعى مشايخ القبائل الموالية وكتيبة من الجنود الفرسان . فإذا اقتربنا من قرية لم نتفاهم مع أهلها كنت أفضل أن أكون فى المقدمة ومعى المشايخ والفرسان كما تقدم .

وأن « اعطاء الوجه » (١) هو من المسائل المهمة جدا فى بلاد العرب ، واذا عرف قائد عندهم بأنه صادق فى أمانه ثابت فى الوجه الذى يعطيه فان ثقتهم به تزداد وميلهم إليه يشتد . وقد حرصت أنا على أن أكون صادقا فى الوجه الذى أعطيه للأهالى . فلما وصل المشايخ الذين أرسلتهم الى الأهالى المنسحبين إلى صحن « تمنية » وأبرزوا لهم ورقة الوجه والأمان أخذوا يعودون لواذا واحدا بعد واحد ، فأحسنت مقابلتهم وأكرمتهم وقلت لهم : أنهم غير مسئولين عن حوادث الثورة لأنهم لم يكن فى إمكانهم أن يخالفوا جمهور الشعب فى القيام العام . فاطمأنوا لذلك وزالت وحشتهم وأخذوا جميعا يعودون الى منازلهم ومزارعهم ، وانضم محمد مريع شيخ مشايخ رفيدة إلى من معى من المشايخ .

***

(١) راجع صورة ورقة تاريخية اعطاها احد أمراء المخلاف السليمانى لشخص قبل ١٣٠ سنة فى ص ١٠٠ جـ ١ من كتابنا الأدب الشعبى فى الجنوب ، وراجع ص٦٤٠ جـ١ من المصدر نفسه عن عادات وتقاليد القبائل ، وراجع ص ١٠٢ - ١١٢ جـ ٢ عن تقاليد البادية .

الحاكم فى عسير

ومما قمت به فى رحلتى - التى هى موضوع بحثى فى المقالات الأخيرة - أننى صحبت معى محكمة سيارة لتفصل فى شكاوى الناس وقضاياهم هى محكمة شرعية بطبيعة الحال .

وللمحكمة التى كانت تصحبنى سرادق خاص بها ينصب لها كلما نزلنا فى حى من الأحياء فيخرج مناد ينادى فى الناس بأن كل من كانت له قضية أو دعوى فليحضر بين يدى القاضى .

وأن القاضى الذى استصحبته معى فى هذه الرحلة هو القاضى عبد السلام بن خضرة شقيق محمد بن خضرة قاضى بنى مالك المشهور بصلاحه ، وقد أطلقت على القاضى عبد السلام عنوان « قاضى الجيش » .

ومن عادة القاضى فى عسير أن يجلس وفى يده مخصرة « عصا رفيعة » ويجلس أمامه المتقاضيان ومن ورائهما المستمعون يجلسون القرفصاء بشكل نصف دائرة ، وإذا كان مجلس القاضى متوسطا يكون المستمعون بشكل دائرة فيشير القاضى بالمخصرة إلى ألْمدَّعي ليشرح دعواه ، فينهض هذا واقفا فيصلى على النبى ﷺ ثم يذكر دعواه ، حتى إذا انتهى يشير إليه القاضى بالمخصرة أيضا فيجلس ثم ينهض المدَّعي عليه بإشارة من القاضى فيذكر دفاعه . ثم يتقدم الشهود وتعرض البينات .

وإذا كان بين السامعين شاهد يريد أن يعرض على المحكمة شهادته يشير بيده اليمنى ويمد سبابتها مصليا على النبى ﷺ فيدعوه القاضى إلى أداء الشهادة

بإشارة من مخصرته أيضا فيؤديها ، فإذا اكتفى القاضى بأقواله أشار إليه بأن يجلس ، ثم يصدر القاضى حكمه فى الحال وإذا كان للمدعيين أو لأحدهما أو لغيرهما اعتراض على الحكم يصغى إليه القاضى ويقدره قدره ويجيبهم عليه وإذا أصبح الحكم قطعيا يبلغ إلى المحكوم عليه وتنتهى القضية بالصلح بين الفريقين .

أن من أعظم العار عند القبائل أن يقول الرجل الكذب أو أن ينكر أمراً وقع . وعلى ذلك كان من النادر جداً أن يحيد أحد المتقاضين عن الحقيقة فى تقرير دعواه . وحكم القاضى محترم جدا ومطاع من الجميع حتى أنه لا حاجة إلى قوة إجرائية فى تنفيذه .

إن شعبا هذه أخلاقه الفطرية وهذا مبلغه من الإخلاص والصفاء لا شيء أسهل من إدارته إذا عرفت حكومته مزاجه ، وليس أصعب منه مراسا وأقوى شكيمة لمن يجهل ذلك العدل ، وصدق القول ، والإخلاص ، والثبات فى الوعد ، والمروءة - هذه الصفات هى أمضى من الأسلحة فى جزيرة العرب .

ولما كنا فى هذه الرحلة أبصر أحد جنودنا حمامة فى أرض « جارمة الخطاب » فأطلق عليها من بندقيته رصاصة أصابت من بدوى مسن مقتلا فمات ، فبادرت فى الحال الى توقيف الجندى القاتل . وجاءنى عقب ذلك أصحاب دم القتيل فاستدعيت القاضى وعقدنا مجلس الحكم فسمع دعواهم ، فحكم القاضى بأن الجندى قتل الرجل خطأ وغير متعمد ، ولذلك تلزم دية القتيل ، وبما أن الجندى فقير لا يملك الدية فيجب على الحكومة بصفتها ولية أمره أن تدفع عنه الدية من خزينتها ، فأخرجت لهم حالا قيمة الدية من خزينة الحكومة حسبما قدرها القاضى ، وبذلك انحل المشكل وكان لهذا العمل تأثير حسن فى الأهالى .

ولما كنا فى قرية « آل عامر » أثناء هذه الرحلة طلبت من أبها « أورطة » أخرى وطنتها فى قرية آل عامر وقرية «سر » وكلاهما من رفيدة اليمن .

وقبل أن أخرج من أبها إلى هذه الرحلة وضعت « أورطة » من الجيش فى كل من القرى الواقعة فى وادى عوص وعقبة القضاء المنحدرة إلى محايل وهذه القرى فى أراضى السوداء « ويلفظونها أمسودا » وربيعة رفيدة ورجال ألمع ، وتسكنها

قبائل علكم ، وفى أراضى السوقة « ويلفظونها أمسوقة » وهى خاصة ببنى مغيد . وهذه القرى يبعد بعضها عن بعض مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات وهى واقعة فى غرب أبها ومشرفة على رجال ألمع وارتفاعها عن سطح البحر ألف وستمائة متر أو ألف وسبعمائة متر . وبهذه « الأورط » التى وضعتها فى تلك القرى أصبحت آمنا على أبها من جانبها الغربى . أما الأورط التى تركتها فى آل يزيد وفى تمنية ورفيدة اليمن أثناء هذه الرحلة فقد أمنت بها على خط رجعتى ، ومع ذلك كنت أتخابر معها بألة المخابرة بالأنوار « هيليوسته » .

وفى ٢٠ اغسطس سنة ١٣٢٧ « ٢ سبتمبر سنة ١٩١١ » رحلت عن بلدة آل عامر فوصلت بعد ساعة إلى أول مضيق العقيرة المنحدر إلى وادى بيشة حيث تسكن قبيلتا « ذعى » و « بنى قيس » ، وهذا المضيق يرتفع عن سطح البحر ألفين ومائة متر ، وهنالك عقبة مبسوطة طولها ألف متر صالحة لسير العربات ومرور المدافع منها ، فانحدرنا من هذه العقبة إلى قرية اسمها المضيق ارتفاعها عن سطح البحر ألف وتسعمائة وسبعون مترا . وفى هذه القرية منزل حسين بن حيف شيخ مشايخ الجارمة وخطاب ، وهو من الثوار كان متغيبا عند مجيئنا . ومنزله ذو خمس طبقات وصالح للاعتصام فيه والدفاع ، وحسين بن حيف هذا لم يأتنى قبل محاصرة أبها ولما نشبت الثورة كان على رأس القبيلة فى محاصرتنا . ولما اقترب الشريف من أبها عند قدومه من القنفذة خرج حسين بن حيف لمحاربة الشريف ووقف فى وجهه . لهذه الأسباب تغيب الآن عن قرية المضيق لما علم بمجيئى إليها مع قوة عسكرية . أما أنا فإنى أرسلت له ورقة الأمان مع حسن بن على بن عايض معاون المتصرفية لم أدع الجنود يقيمون فى منزله لئلا يخربوه .

وبعد قرية المضيق تبدأ حدود قحطان ،وأن قبائل بنى قيس وجارمة وخطاب كلها معدودة من قحطان .

وقرى ذعى واقعة فى وادى بيشة الذى دخلناه . ولما كان هذا الوادى عبارة عن مجرى سيل فان تحت طبقة أرضه الرملية مجرى ماء دائم يجده الإنسان اذا حفر مترين فى الأرض أو ثلاثة أمتار . ويمتد الوادى من الجنوب الشرقى إلى الشمال

الغربى مسافة ثلاثين إلى خمسة وثلاثين كيلو مترا وفى جانبه الشرقى والغربى آكام ارتفاعها بين ثلاثين وخمسين مترا وبين كل بضعة كيلو مترات قرية من القرى الآتية : « المضيق » و « آل قفيع » و « بنو نجم » و « آل مدير » و « آل ماشى » و « آل كامل » و « آل مفرج » و « آل زيد » . وفى جنوب هذه القرى شعاف جارمة وشعاف خطاب وفى غربها مضائق العقيرة وشعب وصفق وأكمة أبى صلام وأكمة ضمك وعرض الوادى بين ألفين وألفين وخمسمائة متر .

وفى المضيق وزعت قطعات الجند التى معى على القرى المذكورة ، ووضعت فى ذرى الجبال هناك آلات المخابرة بالنور « هيليوسته » . ثم ذهبت إلى قرية آل ماشى ونزلت ضيفا على الشيخ حسين بن عبود شيخ ذعى .

وعلمت فى اليوم الثانى أن فى تلك الجهة شريفا صالحا اسمه الشريف احمد ، يرجع إليه الناس فى مشاكلهم وأقضيتهم ، وينزلون على قضائه ويميلون إليه ، فذهبت لزيارته وطلبت منه المساعدة الأدبية وعينت له مائة قرش راتبا شهريا طول حياته .

وجاء فى مساء ذلك اليوم جماعة من بدو بنى قيس يدعون أن الشيخ حسين بن عبود يأخذ منهم الزكاة زيادة على النصاب فأجبتهم أن النصاب يرجع إلى الحدس والتخمين . وأردت أن أحيل أمرهم الى القضاء غير أن الشيخ عبد السلام بن خضرة قاضى الجيش هو غريب عن هذه الديار ، فرأيت أن أحيلهم على الشريف أحمد وقد رضوا به فحل الشريف احمد هذا المشكل على أحسن حال .

وكانت القوة التى معى لما وصلت إلى هذا الموضع عبارة عن أربع « أورط » وبطارية جبلية واحدة ذات أربعة مدافع ومدفعين رشاشين ومعى موسيقى عسكرية و « بلوك » لنقل الأثقال وبلوك الصحة وكتيبة فرسان صغيرة ومجموع عدد الجنود ألفان وخمسمائة وثلاثة جنود غير المشايخ والحاشية .

وفى اليوم الثالث حضر حسين بن حيف شيخ مشايخ جارمة وخطاب من

قبائل منطقة قحطان ومعه مشايخ قبيلته وعقالها فأحسنت مثواه وأمنته فانضم إلى من معى من المشايخ .

ولما كنت أرغب فى التقدم الى داخلية أرض قحطان فى الجنوب الشرقى فقد أعطيت « البكباشى » زكى بك مدفعين ورشاشا وثمانمائة جندى ووجهته الى الجارمة وخطاب وأعطيته كتاب أمان إلى سعد بن سليم شيخ قبيلة عبيدة والى أحمد بن عبدالله شيخ بنى بشر ، وأرفقته بحسين بن حيف ليكون عونا له فى هذه المهمة .

وبعد يوم ذهبت إلى النقطة التى يتصل فيها وادى بيشة ووادى عنقبه فى الشمال ، وهناك أطلال بلد قديم زرتها فعلمت منها أن البلد كان مبنيا بالآجر على خلاف عادة الأهالى الآن ، فان البناء الحاضر ليس فيه آجر ولا يصنعونه قط . وفى الشمال الشرقى من هذه الأطلال على مسافة ألف متر وجد أكمة بركانية اسمها « الحمومة» ارتفاعها مائة وعشرون مترا . والظاهر أنها كانت فى القديم بركانا يقذف الحمم وأن خراب المدينة القديمة الباقية أطلالها إنما كان بحادثة بركانية .

وفى طول مدة الرحلة كنت أرسم خرائط الأماكن التى أمر بها ، وهذه الخرائط لا يمكن نشرها إلاّ عند جمع هذه المذكرات فى كتاب . أما الآن فسأكتفى بالخريطة العمومية التى وعدت القراء بأنى سأرسمها .

* * *

المقصد من رحلتى فى عسير

كان الغرض من هذه الرحلة التى قمت بها فى هذه الجهات ينحصر فى أمرين : الأول تأليف قلوب الأهالى ، والثانى تحصيل الزكاة منهم برضاهم لأتمكن من جمع مقدار من الحبوب والمواشى - قليلا أو كثير - وإرسالها إلى أبها ليعيش بها الجيش . وسبب ذلك أن الشريف لم يحضر لنا معه مخصصات جنودنا ، وعند عودته إلى مكة وعدنا بأنه سيهتم بإرسالها .

وقد جاءنى الخبر بعد بضعة أيام بأن شيخ قبيلة بنى بشر وشيخ قبيلة عبيدة وافقا على أن يكونا مواليين للدولة ، فتركت فى المضيق كتيبة صغيرة ومعها آلة للمخابرات بالأنوار وتوجهت إلى جارمة وخطاب وهما فى الجنوب الشرقى فاجتمعت بالقوة التى كنت أبقيتها هناك وذهبنا جميعا إلى عبيدة فوصلنا إليها فى المساء ، وجاء مشايخها لاستقبالنا فذهبنا معهم إلى قريتهم التى تسمى « آل داحس » وهى تعلو عن سطح البحر ٢٥٠٠ متر ، فوزعت جنودى على القرى المجاورة لها واستدعيت المشايخ والعقال فألفت قلوبهم . وبقيت هنا ثلاثة أيام فتشت فى أثنائها حالة الجنود فعزلت الضعاف والمرضى عن الأصحاء وأعدتهم إلى أبها ، ثم انضم مشايخ بنى بشر إلى المشايخ الذين معى وتوجهنا إلى قرية عسران مركز قبيلة بنى بشر وهى واقعة فى الشمال الشرقى ، وبعد استراحة قليلة تحركنا نحو « آل عابس » الواقعة فى سفح سلسلة جبال شفاذ التى تعلو عن سطح البحر ثلاثمائة متر إلى أربعمائة وتمتد من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، وقرية آل عابس واقعة فى أقصى حدود قبائل بنى بشر .

ومررنا بعد ذلك من مضيق « بنى طلق » إلى أراضى شريف وسنحان التى تؤدى إلى « الحرجة » وهى منتهى أرض قحطان والمسافة إليها مائة وخمسون كيلو مترا يجتازها الجند فى خمسة أيام ، وترى منها فى الجانب الشرقى سودة وسوقة اللتين تقدم ذكرهما . ومع ذلك فان المخابرات من هنا بالأنوار لم تكن ممكنة بسبب طول المسافة فكنت أتبادل الأخبار بواسطة نجابين من الأهالى يذهبون ويعودون بين محلنا وبين آلة مخابرة بالأنوار وضعتها فى قرية المضيق ، ولو كان معى آلة نور كهربائى للاستكشاف لاستطعت أن أخابر بها مباشرة ، بل لو كان عندى مثل هذه الوسائل لكان فى الإمكان أن نتخابر من أبها مع القنفذة بواسطة آكام ربيعة رفيدة التى تبعد عن أبها ست ساعات غربا ، فان هذه الآكام ترى منها سواحل البحر الأحمر بواسطة النظارة إذا كان الجو صافيا . ومما يؤسف أن الجيش العثمانى لم يكن إلى ذلك الحين يستعمل « التلغراف » اللاسلكى السيار .

بقيت فى آل عابس بضعة أيام واستسلمت منطقتها لولاء الحكومة دون أن نطلق بندقية واحدة . وكنت أريد أن أعود إلى أبها من هذا الموضع وأخذت أبحث عن طريق أرجع منه لأنى لم أرد أن أكلف القبائل نفقات غذائنا مدة طويلة ولكن مشايخ عبيدة وبنى بشر سألونى :

ـ ألا تريد أن تتقدم إلى الأمام ؟

لذلك ولأسباب أخرى سأذكرها فيما بعد اجتزت مضيق بنى طلق متقدما الى الحرجة .

وقد علم القراء من بيانات سابقة أن آل عابس واقعة فى سفح جبل شفاذ عند مدخل مضيق طوله أربعون كيلو مترا ينتهى عند بنى طلق وشريف .

وآكام جبال شفاذ هى خط تقسيم المياه لصحراء عسير ، وهذه الجبال تقسم المياه غربا وشرقا . فمياه الغرب تجتاز تهامة وتنصب فى البحر الأحمر ومياه الشرق تجتاز القسم الجبلى وينتهى بعضها فى النفوذ والبعض الآخر فى نجد .

لما وصلت إلى هنا أصبحت فى موقف أقلقنى لأن المضيق طويل جدا ، ووسائل النقل عندنا ناقصة و« البقسماط » الاحتياطى الذى معنا لا يكفينا الا

يومين أو ثلاثة وليس عندنا غذاء غيره ، ومشايخ قبائل بنى طلق وشريف التى فى مدخل المضيق ومخرجه رفضوا أن يجيبوا دعوتنا ، فلم يحضروا إلى بلدة آل عابس عندما كنا فيها ، ومن هؤلاء المشايخ ابن دليم ـ الذى كان مُنَصَّبا من طرف الحكومة بوظيفة مدير لناحية الحرجة فى قحطان ، فإنه أرسل يعتذر بأعذار واهية شفاهاً ولم يجب دعوتنا للحضور .

وفضلا عما تقدم فإنى إذا رجعت من هنا سيحمل الناس رجوعى على محمل الخوف والعجز وحينئذ لا يستبعد أن ألقى فى عودتى مقاومة ، وإذا بدأ إطلاق السلاح فان كل المساعى التى قمت بها تذهب هباء وينهدم جميع ما بنيته .

من أجل ذلك استأنفت الكتابة إلى ابن دليم مرة أخرى فأرسلت له رسالة أؤكد له ما قلته سابقا وأدعوه إلى الحضور بأمانى ووجهى ، ثم قلت له : وإذا أصررت على عدم المجيء فإنى سأحرق منزلك بلا تردد .

❊ ❊ ❊

حملة جديدة على الادريسى

وفيما نحن فى هذا الموقف جاءنى البريد من أبها ، وفيه بلاغ لى بأن عزت باشا قائد القوات العمومية فى اليمن أرسل إلى جيزان حملة جديدة ـ بقيادة أميرلاى راغب بك وفيها أربعة آلاف جندى من المشاة ومعها مدافع ورشاشات وجميع التجهيزات الحربية وقد نقلت من اليمن إلى جيزان فى البواخر .

وأنه سيتولى قيادة هذه القوة محمد على باشا الذى لا يزال فى الحديدة مشغولا بسوق الجنود . ولكن الحملة التى وصلت بقيادة راغب بك لما خرجت إلى جيزان لم تجد ماء فأخذت تستعمل المياه الاحتياطية التى فى البواخر إلى أن انتهت هذه المياه ، فتقدمت الحملة لاحتلال الآبار الموجودة على مسافة خمسة كيلو مترات شرقى جيزان ووقعت هناك معركة شديدة انكسرت فيها الحملة انكساراً مدهشاً ، وقد قتل فى خلال نحو ثلاث ساعات فقط ألفان وخمسمائة من جنود الحملة فرجع باقى الحملة إلى جيزان ، وقد مات كثيرون منهم عطشاً .

وبسبب فقدان الماء ألقيت بغال الحملة فى البحر فاختنقت فيه ، وقد ازداد الادريسى بسبب هذا الانكسار نفوذا جديدا وقوة على قوته ، وتجدد نشاط الثوار فى تهامة وإزدادوا جرأة[١]

(١) راجع تفاصيل حوادث تلك الحملة والتى تعرف بمعركة الحفائر فى كتابنا المخلاف السليمانى جـ ٢ ص ٦٧٣ الطبعة الثانية وما بعدها أما عن تقدير عدد قتلى الأتراك لتلك المعركة والتى قدرها المتصرف بألفين وخمسمائة وقد يكون فى ذلك التقدير بعض المبالغة ـ راجع صورة خطاب الادريسى فى المصدر نفسه ص ٦٦٣ والادريسى بحكم انه المنتصر يستدعى موقفه زيادة فى التقدير بينما ان انشودة الشاعر الشعبى والتى اوردناها فى كتابنا الأدب الشعبى ص١٨٦جـ١ يقدرهم بألف وقد وأمنا بين الثلاث التقديرات وقدرناهم بألف وخمسمائة وهو المعدل الأوسط فى نظرنا .

فلما تلوت هذه الأخبار أسفت كثيرا وحزنت ، ومن الغريب أننى لم أعلم بكل ما وقع إلا بعد مرور نحو وعشرين يوما على وقوعه ، ويخيل إلي أن ابن دليم وصلته الأنباء قبل أن تصلنى ، فحمله ذلك على سلوك مسلك التردد فى إجابة دعوتى ، عندئذ قررت فى نفسى أن أتقدم إلى الأمام مهما كانت النتيجة .

يعلم القارىء مما ذكرته فى مقال سابق أننى كتبت إلى وزارتى الحربية والداخلية عند قيام الثورة وفى أثنائها « تلغرافات » سرية قلت فيها : أن الثورة لا تسكن حقيقة إلاّ إذا أرسلت الدولة قوات عسكرية إلى جيزان التى هى ميناء صبيا مركز الادريسى ، وأن تكون هدف حركات هذه القوات هى مدينة صبيا ، وأخبرتهم أن بين جيزان وصبيا خمسة وعشرين كيلو متر فقط وليس فى هذه المسافة شىء من العوارض الطبيعية التى تجعل الحركات العسكرية صعبة . فإذا تمكنت الدولة من ضرب صبيا فإما أن يسقط الادريسى فى يد الدولة أو أنه يفر من صبيا ، وفى الحالة الثانية يسقط سقوطا أدبيا وربما أدركت القبائل حينئذ أنه كان السبب فى قيامهم بعمل غير ناجح فيسلمونه بأيديهم الى الحكومة .[١]

وأن الحركة على صبيا هى أخصر الطرق والدماء التى تسفك فى سبيلها ستكون قليلة وسيتم الأمر بضرر قليل على الفريقين المتقاتلين ، ونبهتهم إلى أنه لا يوجد ماء فى جيزان فيجب أن تكون فى البواخر ماكنات لتقطير المياه الكافية لشرب الجنود .

وبما أن الأرض من جيزان إلى صبيا صالحة لسير السيارات فيجب أن يكون مع الجيش بضع سيارات حربية مدرعة ذات غرفة اسطوانية الشكل محاطة بطبقة من الدرع الفولاذى يليها طبقة أخرى مملوءة ماء . ولئلا تؤثر حرارة الشمس على الماء تلبس باللباد وتسد الغرفة الاسطوانية المدرعة بغطاء مدرع أيضا وذكرت لهم غير ذلك مما لا بد من اتخاذه من التدابير . ومما قلته أيضا أن التغلب على الثوار

---

(١) أنها أمانى اثبت الواقع العملى استحالتها ، لقد نجح الادريسى نجاحا باهرا وانتصر على الاتراك فى الشمال والجنوب ونقل سليمان شفيق من متصرفية أبها بمحيى الدين باشا الذى استسلم لمندوبى الادريسى ورحل . راجع ص ٧٣٦ جـ ٢ الطبعة الثانية من كتابنا « المخلاف السليمانى »

فى مثل هذه الديار لا يكون بكثرة عدد الجند بل بالإكثار من الوسائط والوسائل الفنية .

ومما يؤسف له أن الدولة لم تصغ إلى شىء من كل ما ذكرته لها ، فأنزلت الحملة الأولى التى كانت بقيادة الشريف فى ثغر القنفذة بدلا من ثغر جيزان وتأخرت فى حملة جيزان إلى ما بعد اختراق الشريف طريق القنفذة إلى أبها وعودته إلى الحجاز، فلم تشترك الحملتان فى العمل فى آن واحد ، ولم يعبأ مقر الجيش فى اليمن بشىء من ملاحظاتى التى نبهت إليها ، وأهمل التدابير المهمة التى أشرت بها ولذلك لحق الدولة من جراء هذا الإهمال أضرار عظيمة مادية ومعنوية وكان هذا مصدر قوة جديدة للسيد الادريسى .

وعلى أثر ذلك كتبت فى الحال « تلغرافا » شديد اللهجة جدا إلى محمود شوكت باشا وزير الحربية ذكرت فيه الغلطات التى ارتكبت فى الحركات العسكرية وأعربت عن استيائى من عدم ورود معلومات لى عن تجهيز حملة جيزان وإرسالها ، وأننى فى دهشة من عدم وصول أية إشارة لى عن ذلك من مركز القيادة فى اليمن ، ورجوته أن يأمر القيادة العامة فى اليمن بأن تطلعنى على مثل ذلك فى المستقبل لما لى من العلاقة بذلك . ولقد كان القائد العام للقوات العثمانية فى اليمن يومئذ احمد عزت باشا ، ورئيس أركان حربه البكباشى عصمت بك وهو عصمت باشا رئيس وزارة الجمهورية التركية الجديدة فى هذه الأيام .

وبما أن أحمد عزت باشا كان العامل المؤثر فى جعل حملة عسير الأولى بقيادة الشريف ، فإن ذلك كان أهم الأسباب فى إلاعراض عن معروضاتى التى كنت أرسلها إلى الآستانة ضد الشريف ، بل إن مركز القيادة فى اليمن كان يتلقى آرائى وتلغرافاتى فى هذا الباب بالاستخفاف غير أن الزمان أثبت للأنظار صدق ما كنت أقوله وأنه مبنى على نظر ناقد . ومتى أتيت فى مقالاتى الآتية على نص المراسلات الرسمية التى دارت فى مسألة عسير فان القراء سيرونها برهانا لا يقبل الرد على صدق ما أقول .

فى أواسط شهر سبتمبر سنة ١٩١١ قمت من آل عابس فدخلت المضيق الآنف الذكر ، مجتازا قرى آل بسام ، وبعد أربع ساعات بلغنا المكان الذى تنقسم فيه المياه فى جبال شفاذ ، ثم انحدرنا إلى أرض بنى طلق حيث دخلنا إلى وادى يعود . وهذا الوادى واقع بعد عقبة صغيرة ، استرحنا فيها قليلا قبل انحدارنا إليه . وفيما نحن جالسون مع المشايخ فى ظل شجرة رأينا الرصاص يطلق علينا من أكمة مشرفة علينا واقعة على مسافة أربعمائة متر أو خمسمائة .

ولم يصب الرصاص أحدا منّا بسوء غير أن بعضه مر بجانبنا وبعضه مر فوق رؤوسنا ، فناديت رفاقى بأن يختبئوا وراء الصخور . أما حسين بن حيف شيخ جارمة وخطاب فأخذ بندقيته ليطلق الرصاص على الجهة التى أتانا الرصاص منها ، فقلت له : لا تفعل ، وتعال اختبىء معنا .

ولما حضر إلينا سألنى عن السبب فى عدم مقابلة الرصاص بمثله ، فأجبته : أن الذين تعرضوا لنا لا يزيد عددهم على بضعة أشخاص ، وقد فعلوا فعلتهم بدون تبصر ، أو تفكير . فإذا قابلناهم بمثل فعلهم ، وصل صوت الرصاص الى سمع القبائل فى الآفاق ، فكان ذلك بمثابة دعوة لهم إلى الحرب ، ونكون بذلك قد فتحنا على أنفسنا بابا من الشر نحن فى غنى عنه ، وتسفك الدماء بلا موجب ، ويضيع المقصد الذى قصدته من رحلتى إلى هذه الجهات ، فأنا لم أجىء إلى هنا لأحارب الناس بل لأؤلف قلوبهم وأزيل من أذهانهم ما استقر فيها .

فقال : الحق معك .

وفيما نحن كذلك قرب منى قائد طلائع قوتنا ، فقلت له : ارسل كتيبة من قوتك الى الجهة التى أطلق الرصاص علينا منها ، واحرص على أن لا يطلقوا النار .

ففعل قائد الطليعة ما أمرته ، غير أن الأشخاص الذين أطلقوا علينا الرصاص كانوا قد انصرفوا ، فاستولينا على الأكمة ، وسرنا إلى الأمام دون أن نلقى مانعا حتى بلغنا القرى الواقعة فى نهاية وادى عود . غير أننا لم نجد فى تلك القرى أحدا من الأهالى ، لأنهم انصرفوا جميعا من قراهم واعتصموا بالجبال القريبة منهم .

واستغرقت مدة سيرنا من آل عابس إلى هذه القرى التى فى آخر وادى يعود ثمانى ساعات وكان أمامنا مسافة ثلاث ساعات حتى نصل إلى « الحرجة » وهى أقصى حدود عسير ومركز ناحية قحطان .

وفى حدسى أن امتناع ابن دليم عن المجىء إلينا رغم رسائل الأمان التى أرسلتها إليه ورغم الوجه الذى أعطيته له ، انما هو ناشىء عن الخجل لا عن الخوف ، وذلك لأن الرجل مع كونه موظفا من جانب الحكومة بوظيفة مدير لناحيته فإنه عند ظهور الأدريسى فى عسير انحاز إلى جانبه ، ولما قامت الثورة انضم إليه بجميع قبائل قحطان وتولى قيادتها فى محاربتنا ، بعد أن كان فى الوظيفة المذكورة نحو خمسة عشر عاما . وكان مركزه فى بلدة الحرجة هذه التى نتكلم عليها ، والحق أنه امتاز فى الماضى بخدماته للحكومة ، وكان فى مقدمة المشايخ الذين عرفتهم الحكومة وكانت على صلة بهم .

ووادى يعود معدود من أراضى شريف . ولابن دليم فى منتهى واد صغير يؤدى الى وادى يعود ، منزل خاص به على مسافة ساعة واحدة من قرى « عقدة » التى كنا فى ذلك الحين قد وصلنا إليها . فقررت فى نفسى أن أبت تلك الليلة فى هذا الموضوع . غير أنى رأيت قبل كل شىء أن أعرف حقيقة الحال فى قرية « الحرجة » مركز ابن دليم ، فأرسلت إليها رجلا بدويا من رجالنا فجاس خلالها وعاد يخبرنى بأنها خالية تماما ، وأن أهلها انسحبوا منها فلم يبق فيها غير الشيوخ والعجائز من رجال ونساء ومعهم مفتى البلد .

فلما علمت ذلك بادرت فى الحال إلى تسيير « أورطة » من الجند الذين معى وأمرتها بأن تصل الى بلدة الحرجة فنبيت فيها : وأن ترسل لي حال وصولها رسولا يطمئننى عن حالها .

وبعد وصول « الأورطة » إلى هناك جاءنى رسولها لأنها وصلت فى الليل الى الحرجة دون أن تلقى معارضا . وعلى ذلك نهضت فى الصباح فأمرت بقية القوة التى معى بأن تستعد للسير إلى تلك البلدة ، وسرنا نحن أيضا والمشايخ مع جميع

حملتنا قاصدين الحرجة ، فتراءى لنا عن بعد منزل ابن دليم القائم عند منتهى الوادى الصغير .

ولما وصلنا الى الحرجة خرجت « الأورطة » التى تقدمتنا إليها فاستقبلتنا وكان معها فى استقبالنا مفتى البلد . فدخلت إلى أحد المنازل الخالية ونزلت فيه .

وإنما عجلت فى إرسال « أورطة » إلى الحرجة فدخلتها فى الليل . ولم أنتظر الصباح لأنى خفت أن يحمل الأهالى تأخرنا فى دخولها على محامل أخرى ، فيعودوا الى بلدهم ويحصنوه ويتخذوا فيه أسباب الدفاع ، فيكون تأخرنا فى الوصول إليها سببا فى إحداث حرب نحن فى غنى عنها .

وفى الواقع أن جميع الأهالى الساكنين فى هذه الجهات من قرى « آل عابس » إلى « الحرجة » كلهم انسحبوا من وجهنا وأخلوا أرضهم وديارهم وأخذوا معهم نساءهم وأموالهم ومواشيهم ، فلم نستطع أن نحصل على المؤونة اللازمة لطعامنا و « البقسماط » الاحتياطى الذى معنا لم يعد يكفينا الاّ مدة يومين فقط . فذاكرت مفتى البلد فى الأمر ووصلت بدلالته الى الحصول على ذرة خضراء من المزارع بثمنها فسلقتها بالماء الحار وأطعمتها للجيش ، وأزمعت العودة فى اليوم الثانى الى « أبها » وأنا لا أزال موفور الكرامة . غير أنه كان لا يزال واجبا على أن أنقذ وعيدى لابن دليم الذى رفض أن يلبى دعوتى بالحضور إلينا .

وفى اليوم الثانى ودعت المفتى وأكرمته وأودعت عنده منشورا وديا لطيفا ليقرأه على الأهالى عند عودتهم ، ثم رجعت إلى آل عابس .

وتنفيذا لوعيدى الذى أنذرت به ابن دليم أرسلت « أورطة » من الجيش ومعها حسين بن حيف شيخ جارمة وخطاب وعهدت إليها بأن توقد العشب الجاف على سطح منزل ابن دليم ، وان تلحق بنا بعد الانتهاء من أداء هذه المهمة .

وبينما كنت على رأس وادى يعود مع طليعة جيشنا كنت أرى بالنظارة من بعيد دخان النار يتصاعد من سطح منزل ابن دليم . وظن كل من رأى ذلك أن المنزل احترق ، حتى أن من يوجد فى تلك الأنحاء من الأهالى ذهبوا إلى هذا الظن

فأطلقوا علينا طلقات من بنادقهم ، فأمرت جنودى بأن لا يقابلوهم قط مقابلة جدية . فلما رأى الأهالى أننا لا نقابلهم انقطعوا عن إطلاق الرصاص علينا .

وحقيقة الحال هى أن منزل ابن دليم لم يحترق لأنه مبنى بالحجارة ، وهو منزل كبير حصين ذو أربع طبقات ، صالح للدفاع ، ولا يمكن أن يحترق إلاّ إذا أوقدت النار بالزيت فى داخل غرفه ، أو إذا نسف بألغام البارود . أما النار التى ظهرت ورآها الناس فكانت عبارة عن عشب جاف أوقد على سطح المنزل وليس من شأنه أن يؤثر على بناء ضخم كهذا البناء . وأنا إنّما كنت أبغى تنفيذ الوعيد الذى صدر منى وقد حصل ذلك بما فعلناه .

ولما رأى ابن دليم أننا لم نحرق المنزل مع قدرتنا على إحراقه كان لذلك الأثر الحسن فى نفسه . وأنه وإن لم يحضر إلينا ، ولم يعرب عن ولائه للدولة إلاّ أنه خدمنا من بعيد خدمات حسنة سأعرضها على أنظار القراء إذا جاءت مناسبة ذلك فى المقالات الآتية :

* * *

رجوعي الى ابها

لقد تعجلت الأوبة من الحرجة للأسباب التى ذكرتها فى مقال سابق ، ففى اليوم التالى ليوم وصولنا إليها ، تحركت منها متبعاً نفس الطريق الذى جئت منه ، فسلكت أراضى شريف وبعد الانتهاء من العملية التى أجريت فى منزل ابن دليم عند مدخل وادى يعود ، جعلت قرى قعدة على يسارى وصعدنا العقبة التى تتألف منها شعبة من شعب وادى يعود ، حتى بلغنا منها إلى أراضى بنى طلق ، وهناك استراح الجند برهة واستأنفنا السير بجد واجتهاد حتى صرنا بعد الغروب بساعة واحدة خارج مضيق بنى طلق فنزلنا فى قرية آل عابس الواقعة فى أراضى بنى بشر فى المدخل الغربى من هذا المضيق وقد اخترت للجنود قرى « آل بسام » الواقعة عند مدخل المضيق فأنزلتهم فيها ، وبت أنا تلك الليلة فى قرية آل عابس .

وفى اليوم التالى سرنا ومعنا مشايخ قحطان فتوجهنا بعد الظهر إلى جهة الغرب الشمالى متقدمين فى طريق يكاد يكون موازيا لجبال شفاذ ، وبعد سير ست ساعات تركنا وادى بنى « عايض » و « وقشة » ذات اليمين وذات اليسار ونزلنا فى قرية « قلعة الوهابة » الواقعة عند ملتقى ذينك الواديين اللذين يسميان من بعد ذلك الموضع باسم « وادى السر » الممتد الى الشمال الغربى ، إلى أن يتحد مع « وادى بيشة » فى مكان يدعى « ذعى » على مقربة من أكمة « حمومة » البركانية التى ذكرناها قبل فينصب بعد ذلك فى « وادى عنقا » .

وهذه الوديان وإن تكن لا تسيل بالمياه إلاّ فى زمن الأمطار فإن الماء يوجد فيها تحت الأديم بنحو بضعة أمتار حيثما حفر الإنسان .

وقرية « قلعة » الوهابة » معدودة من أراضي بني بشر ، ولأنها واقعة عند ملتقى الواديين لا تبرح خصبة كثيرة الأشجار والمياه ، جميلة المنظر ، وفيها نحو مائة وخمسين منزلا . وفى الشمال الغربى من هذه القرية قلعة طبيعية ارتفاعها عن الأرض بين ثلاثين وأربعين مترا محاطة بصخور كأنها السور الأملس طول محيطها بين خمسة آلاف متروألفى متر ، وفى أعالى هذه القلعة بضعة أبراج للدفاع من صناعة الأزمنة القديمة ، والقرية تستند عند اللزوم إلى هذه القلعة فيدافع الأهالى منها عن أنفسهم وأراضيهم ، واذا دعت الضرورة فإن جميع أهل « قلعة الوهابة » يعتصمون فى قلعتهم الطبيعية ويتخذونها حصنا لهم حصينا . وقد سميت قريتهم باسم قلعتهم هذه .

أمضينا ليلتنا فى هذه القرية وفى الصباح استأنفنا السير متجهين إلى الشمال الغربى ، فدخلنا أراضى صخرية قفراً تسمى « غفرة » وكلها من صخور الغرانيت التى تجعل المرور صعباً فقطعناها فى خمس ساعات . ولو أن القبائل كانت معادية لنا فى ذلك الحين وأردنا أن نجتاز هذه الأرض بحرب لاعترضتنا فى سبيلنا المشاكل المهمة جدا . بل لو أنى لم أكن قد استملت العربان فى رحلتى هذه ما كنت لأختار هذه الطريق على قصرها وإنما كنت أفضل عليها طريقا أطول منها أطمئن فيها عند رجوعى .

استرحنا قليلا ساعة الظهر ثم واصلنا السير حتى وصلنا إلى جوار « حمومة » فى ساعة المغرب فأنزلت جنودى فيها ، ثم ركبت جوادى وتوجهت بسرعة إلى وادى شهران الواقع فى الجانب الشرقى من حمومة لأكون فى ضيافة عبد العزيز ابن مشيط شيخ قبائل شهران لأن له منزلاً عظيماً فى قرية « ذهبان » ذا خمس طبقات محاطة أطرافه بسور وهو يبعد ساعتين عن المكان الذى أنزلت فيه العسكر ، وإنما آثرت المجىء إلى هنا بسرعة ـ على أن يلحق بى الجند فى صباح اليوم الثانى .

لأن منزل عبد العزيز بن مشيط بسبب علوه تظهر منه مدينة أبها قاعدة

الحكومة ، ويمكن أن ترى من سطحه آلة المخابرة بالأنوار الموجودة فى أبها ، والمسافة بين قرية ذهبان وبين أبها ثلاثون كيلو متراً فقط .

ولما وصلت إلى ذهبان بادرت إلى إرسال كتاب إلى قائد مركز أبها أخبره بعودتنا سالمين إلى شهران وأننا على أهبة الدخول إلى أبها ، وأوعزت إليه بأن يذيع الخبر على جميع المواقع العسكرية التى فى جوار أبها بواسطة آلة المخابرة بالأنوار لتستعد تلك المواقع كلها لمخابرتى .

استغرقت رحلتنا هذه نحو خمسة وخمسين يوما ، ولم أنم فيها باطمئنان إلاّ عندما دخلت منزل عبد العزيز بن مشيط فى قرية ذهبان .

وفى الصباح وصلت كتائب الجند ، فأنزلناها فى المواقع المعدة لها . وجعلنا نتخابر بالأنوار مع أبها ومع السودة وسوقة الاثنين فى جبال السراة ، فتلقيت من جميع المواقع بشرى استقرار الأمن وإخلاد القبائل الى السكينة وعدم حدوث شىء يكدر الخاطر .

ولاحظت عند وصول الجند إلى ذهبان أنهم قد تعبوا جدا من هذه الرحلة الطويلة ، وأنهم لم تدخل جوفهم المآكل الساخنة طول هذا الزمن ، فأمرت ببقائهم بضعة أيام فى منطقة شهران التى تكثر فيها الخيرات ويتوفر فيها كل ما تحتاج إليه .

وفى مدة استراحتنا هنا دعوت مشايخ شهران وتوابعها مثل « تندحة » و « قود » فكافأتهم وطيبت خواطرهم، وقلت لهم أننى لا أريد أن أذهب إلى قراهم ، مع جنودى ، وطلبت منهم أن يجمعوا بقية أموال الزكاة ويحضروها إلى أبها ، ويحضروا هم أيضاً معها ويكونوا فى ضيافتى مدة ثلاثة أيام .

وأراد بعض مشايخ قحطان أن يعتذروا عن المجىء إلى أبها . فقلت لهم أننى كنت ضيفكم فى منازلكم فأريد أن تقبلوا أنتم أيضا ضيافتى وأنى أطلب ذلك منكم بكل إصرار ، وإلاّ فانى أخجل منكم ، وهذا ما لا ترضونه . وأفهمتهم من طرف خفى أن من لا يأتى منهم سأجلبه بالقوة ، فأجابوا كلهم « سمعنا وأطعنا » .

وانما تردد بعض هؤلاء المشايخ فى المجىء إلى أبها لأنهم لم يكونوا مطمئنين للحكومة كل الاطمئنان ، ولما فهمت منهم ذلك أردت أن أزيل هذا الفكر من رؤوسهم ولم أقبل منهم اعتذارا قط .

بعد بضعة أيام توجهت إلى أبها مع جميع المشايخ وأتباعهم ، ومعى عسكرى ، فتحركنا من ذهبان ، وبعد سير دام ست ساعات وصلنا إلى العاصمة فخرج الجند والحكومة والأهالى لاستقبالنا وأطلقت المدافع واحدا وعشرين طلقة من كل جهة . وفى أبها أنزلت المشايخ فى منازل الأعيان والوجهاء وضيفناهم مدة ثلاثة أيام ، ثم أكرمتهم بالخلع والهدايا ، وعند رجوعهم إلى قبائلهم أخرجت الموسيقى لوداعهم وأمرت بإطلاق المدافع تحية لهم .

ومن عادة القبائل العربية فى عسير وفى كل مكان أنها تسر بإعزازها وإكرامها ، وإذا وثقت بالطمأنينة لها والميل إليها تخلص الخدمة باستقامة وجد .

ومسألة إطلاق النار للمشايخ أصبحت عادة جرينا عليها منذ كانت الثورة قائمة ، فانى إذا زارنا شيخ مشايخ إحدى القبائل كنا نطلق له ثلاثة مدافع فإذا زارنا شيخ أطلقنا له مدفعا واحدا . وقد كان لذلك وقع عظيم عند مشايخ القبائل حتى صاروا يعدوننى واحدا منهم ويحبوننى كحبهم أنفسهم وهذه المحبة المتبادلة لا يزول أثرها قط من نفسى ، حتى أننى إلى هذا اليوم لا أنسى عسيرا والعسيريين ، وإنى واثق من أنهم هم أيضا لم ينسونى .

ولما انتقلت من عسير إلى قيادة الجيش العثمانى فى سوريا ثم إلى ولاية البصرة بقيت المخابرة مستمرة بينى وبين مشايخ عسير ولم تنقطع المخابرة بيننا إلاّ بنشوب الحرب العظمى .

* * *

الدولة العثمانية فى بلاد العرب

إن انتهاء رحلتى - بمثل هذا النجاح - فى ديار قحطان من مقاطع عسير يرجع إلى وسيلة التفاهم مع الشعب ، أكثر مما يرجع إلى القوة والسطوة لأنى كنت حريصاً على أن أفهم الأهالى وأقنعهم بأن الدولة إنما تبتغى من وجودها فى بلادهم أن تحافظ عليهم وتحميهم ، لا أن تتخذهم أعداء تعمل على أضرارهم وتعذيبهم . وكنت أرمى من وراء إقناعهم بذلك إلى إيجاد ثقة متبادلة فيما بينى وبينهم .

إن الثورات التى كانت تنشب فى بلاد العرب بين حين وآخر ترجع إلى أسباب مختلفة . فالدواعى التى نشأت عنها الثورة فى اليمن غير الدواعى التى نشأت عنها الثورة فى سوريا ، وثورة العراق ناشئة عن أسباب غير هذه وغير تلك . فالدولة العثمانية لم تدرس بإمعان بواعث هذه الأمراض الداخلية ، وكانت تنظر إلى مظاهرها نظرا سطحيا . فتراها جميعا بشكل ثورة عادية ، من أجل ذلك كانت الدولة تبذل الضحايا فى سبيل ذلك دون أن نصل الى نتيجة .

لما ذهبت إلى عسير لاحظت هذه الأمور فأخذت أدرس الدواعى التى دعت الأهالى هناك إلى إحداث الوقائع الماضية والحاضرة ، معتقداً أنه ما لم يشخص الداء لا فائدة من وصف الدواء .

إن الدولة العثمانية منذ دخلت بلاد عسير إلى أن خرجت منها لم تكن لها فيها قوة راجحة على قوة الأهالى ، وعلى ذلك فإنها كانت غير قادرة على أن تظلمهم . فثورات عسير إذن لم تكن ناشئة عن ظلم الحكومة للأهالى ، بل عن كونها عاجزة ضعيفة إلى درجة أنها لا تستطيع إقرار الأمن العام والمحافظة عليه ، أى

لأن الشعب كان بغير حكومة . فالأهالى لم يكونوا يرون الحكومة بمقام الولي لهم والوصى عليهم ، بل كانوا يرونها أشبه بقوة مسلحة تهمل حقوق الناس وتحاول التسلط عليهم بالقوة .

وفى قبائل عسير - غير سكان القرى - بعض عشائر سيارة تسكن الخيام وتعيش برعى الأغنام . وهؤلاء لا يزالون على الفطرة ، وفيهم صفاؤها وبساطتها ، ولما كنت فى رحلتى متنقلا بين قبائل قحطان اجتمعت بأحد مشايخ هذه القبائل الرحالة فوجه إلي السؤال الآتى :

- أليس فى بلادكم قمح ؟

فلم أفهم غرضه من توجيه هذا السؤال ، وأجبته :

- القمح فى بلادنا كثير جدا ، ولكن الذرة غير موجودة قط ، وقليلون جدا الذين يستعملون خبز الشعير عندنا ، أما جمهور الناس فلا يأكلون غير خبز القمح .

قال : - إذن لماذا أنتم تجيئون إلى هذه البلاد ؟

وكان سؤاله هذا يرمى إلى معنى واسع جدا . فهو يعتقد أن الترك يأتون إلى عسير ليأكلوا خبز القمح فقط ، وأنهم من أجل ذلك أصبحوا بلاء مسلطاً على الأهالى .

وفى الواقع أن الدولة لم تصنع فى بلاد عسير شيئا غير تحصيل الزكاة من الأهالى بين حين وآخر ، ولم تفكر قط فى إيجاد أسباب العمران لإحياء هذه الجهات ، ولم تتذرع بشىء من ورائه نفع للأهالى ، وليس لها برنامج معين يسير عليه رجالها وموظفوها الذين يأتون إلى هذه البلاد ، وهم لم يستطيعوا أن يفهموا الأمور التى يحتاج الشعب إليها ، ولم يدرسوا أسباب ثورة الأهالى وتمردهم على الدولة ، ولم يستطيعوا أن يقرروا الأمن ، بل تركوا الناس وشأنهم يحارب بعضهم بعضا والحكومة واقفة تتفرج عليهم ، وكانت وظيفتها مقصورة على حراسة نفسها

فى الأماكن التى استولت عليها وأقامت فيها ، وقد دفنت من أجل ذلك ألوفاً من أبناء القومية التركية فى ديار الغربة.(١)

ولقد حاولت أن أفهم ذلك الشيخ حقيقة الحال بقدر الاستطاعة ، غير أنى كنت أقرأ فى ملامح وجهه أن أقوالى لم تقنعه لأن البشر مفطورون على الاقتناع بالأعمال دون الأقوال ، وأن ما اقتنعوا به أزماناً طويلة لا يمكن محوه وتبديله فى يوم واحد ، بل لا بد لإزالته من الدأب على البراهين العملية والإجراءات الحسنة ؟ فى الأزمان الطويلة . ولقد سبق لى معاناة المصاعب ومغالبة المشاكل فى مقاومة مثل هذه العقائد المستقرة فى أذهان الجمهور ، لذلك رأيت عند وصولى إلى عسير أن أعالج هذا الأمر بتدابير أخرى . وقد كنت على صواب فى التدابير التى اتخذتها بدليل الحادثة الآتية :

وبعد وصولى إلى عسير بقليل صحبت معى نحو عشرة فرسان وخرجت إلى قرية من ضواحى أبها كثيرة الماء جميلة المنظر تسمى « عثر » واقعة فى لحف واد على مقربة من المركز. فلما بلغت الوادى وجدت هناك على الماء نحو عشرين أو ثلاثين من الصبيان والبنات يرتعون ويلعبون، فلما رأونى قادماً مع فرسانى علا بينهم الصراخ وفروا من كل حدب ، فقلت لنفسى : ويلاه !! إن الشعب يرى الحكومة كأنها الوحش الكاسر فى حين أنها ولية حمايته ورعايته .وحكمت ؟ فى نفسى أن من أصعب المصاعب تأليف قلوب هذا الشعب إلا بعد إزالة هذه الأوهام من رؤوس أفراده . فعزمت على أن أسعى لإرشاد الشبان وتصحيح أفكارهم ،

---

(١) اشرنا فى الحاشية بصفحة ١٣ وفى الحاشية ص ١٧ وفى الحاشية ص ٢٥ الى الاصلاحات التى قامت بها حكومتنا السنية فى المملكة عامة وفى عسير خاصة ، وهنا نعلق على قول سليمان باشا ان الحكومة التركية لن تفكر قط فى ايجاد اسباب العمران لاحياء عسير ..الخ .

وللحقيقة والتاريخ نقول ان الحكومة السعودية احدثت من الاصلاحات فى عسير خاصة والنهضة العمرانية والزراعية والعلمية والاقتصادية مايعجز عن حصره فى هذه العجالة ، فلو بعث الله سبحانه وتعالى سليمان شفيق وشاهد مدينة ابها فى الوقت الحاضر بل عسير على وجه العموم لأخذته الدهشة من العمائر الشامخة واتساع مدينة ابها خمس اضعاف مساحتها فى ذلك التاريخ والشوارع الفسيحة المسفلتة والمشجرة والحدائق الغناء فى ميادينها والكهرباء التى تحيل ليلها نهارا وبردها دفئا والمدارس والكليات والمستشفيات وسد أبها بحيث اصبحت منطقة عسير مصيفا يضاهى ارقى المصايف فى الغرب وليس الخبر كلعيان ..

وأن أعمل لإيقاظ عاطفة الحب للحكومة فى قلوب الأطفال لأنهم رجال المستقبل وسيكون مصير البلاد فى أيديهم بعد خمسة عشر عاما أو عشرين .

وعلى ذلك ترجلت فى الحال عن جوادى وجلست على صخرة إلى جانب الماء . فلما علم المشايخ والعقال وجودى هناك جاؤوا للسلام على وضيفونى بالقهوة وجلسوا إلى جانبى . وبعد أن حييتهم وسألت عن صحتهم وأحوالهم قلت للمشايخ :

ـ لماذا هرب الأولاد منى لما رأونى ؟

قالوا : أنهم رأوا رجلا غريبا فهربوا .

قلت : أنا أبو الأطفال ، وأحب الأطفال فأرجوكم أن تنادوهم لأراهم .

فذهب القوم وجاؤونى ببضعة أولاد يجرونهم من أيديهم جراً . وكان الصبيان يبكون ويجزعون كأنما يساقون الى الموت بالسلاسل . فلما دنوا منى نهضت فاقتربت منهم وقبلت وجوههم وطيبت خواطرهم ووضعت فى أيديهم نقودا ورجعت فجلست .

ومن ذلك جعلت أكثر الخروج الى الفسحة فى الضواحى ومعى بعض الفرسان فاختلط بالأطفال وأعطى الصبيان منهم نقودا والبنات عقودا ومرايات وأمثال ذلك من الهدايا . ولم تمض بضعة أشهر حتى امتلكت نواصى الأطفال فى الضواحى كلها فكانوا يدعوننى « العم سليمان » وبعد ذلك صرت أدعو أطفال كل قرية مرة الى منزلى فى أبها فيأتون لضيافتى مجتمعين ، وقد نصبت لهم فى حديقة المنزل خياما ، وكنت أطعمهم الخبز والزبدة والتمر وآمر الموسيقى فتصدح لهم ، وأضع بينهم « الفونوغراف » فيسمعون أغانيه وألعب معهم صنوف الألعاب فى الحديقة ، وأوزع عليهم الرايات العثمانية ليحملوها فى قراهم وإذا انتهيت من كل ذلك أوزع على كل منهم قطعة من البفتة الأمريكية قدر قميص لتخيطها له أمه قميصا عند عودته إليها . فاستجلبت لهم من الآستانة المصاحف والأجزاء القرآنية فكنت أوزع المصاحف المجلدة على معلمى الكتاتيب الأهلية والأجزاء على صبيان القرى .

وبعد هذه الأعمال صرت أستطيع الخروج فى محيط أبها منفردا وليس معى غير جندى واحد من جنود الجندرمة الوطنيين فأصعد معه جبال الضواحى وأتفسح فى الوديان . فكنت كلما أقبلت على الصبيان والبنات فى الجبال أو الوديان وهم يرعون غنمهم يقولون : جاء عمنا سليمان . فلا يلبث أن يلتف الأطفال حولى فأترجل عن جوادى وأصافحهم وأتحدث معهم فكانوا يسحبوننى من ملابسى ومن يدى إلى قريتهم . فكان المحافظون على فى تلك الأنحاء هم هؤلاء الأطفال ، حتى صار الأهالى يسمون الأطفال : « جيوش سليمان » .

ولما قامت الثورة العامة وصرنا نحن داخل منطقة الحصار ، كنت فى الليل آمر الحرس فى معاقل الخط الخارجى أن يسألوا الثوار عن حال أطفالهم .

ولما انتهى الحصار خرجت لزيارة الضواحى عاد الأطفال إلى سابق عادتهم معى وجعلوا يقبلون يدى ويدعوننى إلى قريتهم . فكنت أقول لهم : أنتم جنودى ، وإنى ما نسيتكم أثناء الحصار بل كنت أسأل عنكم . فقال لى هؤلاء الأطفال : أننا لم نكن هنا أثناء الحصار بل نقلونا إلى أماكن بعيدة عن منطقة الحرب ، ولقد كنا نذكرك يا عم سليمان . فسألتهم عن راياتهم فقالوا : إنهم خبئوها عند أمهاتهم فى الصناديق وذهبوا إلى المنازل فجاءونى بها . ففهمت أن المساعى التى قمت بها فى السابق لم تذهب عبثا وسررت بالنتائج الحسنة التى أنتجتها تلك المقدمات .

إن الحكايات والملاحظات التى أوردتها فى المقالة السابقة ـ وان تكن خارجة عن صدد موضوعنا فى الظاهر ـ فان الغرض منها بيان أن ثورة عسير لم تكن ناشئة عن مطالبة الأهالى بحق قومى لهم ، ولا متسببة عن مظالم ارتكبتها الحكومة هناك ، وإنما هى نتيجة إهمال من الدولة أدى إلى فوضى واختلال فى الأمن العام ، فقام السيد الادريسى فى صبيا مدعيا أنه عامل على إعادة الأمن إلى نصابه ، وأداء وظيفة الوصاية على الشعب حسب المنهج الشرعى ، وإعلاء

الحق فى ديار عسير ، وإدخال الطمأنينة على قلوب أهلها . وقد استطاع الادريسى أن يبرهن بالفعل على صحة دعواه وصدقه فيما يقول ، فاتبعوه جميعا وصارت له فيهم الكلمة النافذة والأمر المطاع .

أما الشعور بالقومية العربية فلم يكن بعد قد وصل إلى جزيرة العرب ولا سيما إلى مقاطعة عسير فى ذلك الحين ، فكانت العاطفة الغالبة على العقول والقلوب هى العاطفة الدينية والجامعة المذهبية .

لقد ولد الناس أحرارا ، فميلهم الى الحرية ميل طبيعى وفطرى . وقد كان الناس فيما مضى فى عهد الجامعات الدينية والمذهبية ، فكانوا يمثلون أدوار سياستهم من وراء ستار الدين والمذهب . ولكن الأمم التى ترتقى فى العلم والثروة والتفكير لا تلبث أن تشعر بثقل نير وصاية غيرها عليها ، وقد نشأت عن هذا الشعور انقلابات فى بلاد الأمم الأوروبية التى قطعت شوطا فى سبيل الترقى والكمال ، فالشعوب نهضت لتكسير قيود الاستبداد فى كل مكان حتى تخلصت من تحكم الأفراد فيها . وليس معنى هذا أنها زهدت بالدين ، أو تهاونت بأموره ، بل إن نهضاتها زادتها تمسكا به لأن الأمم التى تخفق قلوب رجالها بخوف الله عز وجل لا تظل بعيدة عن سعادة الارتقاء والكمال .

غاية ما فى الأمر أن الأمم الأوروبية صارت لا تتخذ الدين والمذهب أحبولة للأغراض والمقاصد السياسية ، فلم يعد فى الامكان تصور حدوث مجزرة « سن برتلمى[(١)] » فى أوروبا هذه الأيام من أجل اختلافات مذهبية ، لأن طفل القومية الذى ولد مع الثورة الفرنسية الكبرى قد بلغ اليوم سن الرشد ، فأصبح عصرنا

---

(١) مذبحة « شن برتلمى » من افظع المذابح التى جر عليها التعصب المذهبى من الكاثوليك ضد البروتستانت .

وخلاصة الواقعة انه لما ظهر مذهب البروتستانت فى المانيا فى اوائل القرن السادس عشر اعتنقه رجال الفكر والعلم والصناعة وغيرهم فى فرنسا فشبت نار التعصب عند الكاثوليك ودبروا تلك المذبحة فى يوم ١٥٧٢/٨/٢٤م الموافق ٩٨١هـ وكان حصاد تلك المجزرة من البروتستانت ٢٥٠٠٠ نسمة ..

هذا يسمى « عصر القوميات » [١] وقد أشرق فجره ولا يزال فى دور إقباله ونمائه ولا يبعد اذا اتسعت دائرته أن يؤدى فى يوم من الأيام إلى الجامعة الانسانية المنشودة التى دعا إليها الأنبياء الكرام توطئة لتعميم المودة والأخاء بين البشر جميعا .

مما لا ريب فيه أن بنى الإنسان أصبحوا اليوم على أبواب انقلابات عظيمة الشأن لأن كل أرض أشرقت فيها أنوار الحضارة ، وهبت فى آفاقها نسائم الحرية ، أضمر أهلها أنهم لا يكتفون بالعاطفة الدينية والرابطة الانسانية بل هم يرون من لوازم حياتهم إعلاء شأن لغتهم ، والتقدم إلى الأمام ببلاغتها ودقائقها ، وتنظيم نكاتها ، وإحياء أمثالها وخصائصها ، وتمجيد اقليمهم ومساعدة الطبيعة فيه على اظهار مجالى جماله . وقد شغفهم حب جبال وطنهم ونجوده ، ومروجه وغاباته ، ومزارعه وبواديه ، وما فيها من أشجار ونبات وبرد وحر وما يجرى فيه أو يتموج تحت سمائه من عذب المياه وأجاجها .

فكل ما ينتسب إلى قومهم ولغتهم ووطنهم محبب إليهم حسنا كان أو قبيحا ، ومجذوبون إليه مهما كانت حقيقته المجردة . ذلك هو الواقع اليوم فى كل أمة خطت خطوات فى سبيل الحياة الاجتماعية ، لا ينكر ذلك إلا جامد أو غافل . من أجل ذلك يسوءنى ألا أجد فى أية أمة من الأمم شبابا تعقلوا بحب قوميتهم ووطنهم ، بل أحتقر الذين لا يشعرون هذا الشعور ، ولا سيما الذين ينصرفون عن مصالح قوميتهم لقاء منافع شخصية خسيسة وفوائد سافلة ، فيتلونون بألوان جاذبة ولكنها كاذبة متوسلين بذلك الى العبث ببساطة الشعب وصفائه ليدفعوه الى هوة الذلة والنكبة فالفكرة القومية بذاتها شريفة محترمة ولكن متاجرة الأفراد بها

(١) عصر القوميات انبثق فجره فى آوروبا مع الثورة الفرنسية ومن بعد ذلك اعتز كل عنصر فى أوروبا بقوميته وتكونت دول القومية الأوروبية بعد ذلك قلدتها تركيا أثناء ثورتها . لقد كانوا العرب فى الامبراطورية التركية ينظرون الى الخلافة العثمانية كخلافة دينية يجمعهم معها الاسلام وانما بعد تلك الثورة اراد قوميو الأتراك تتريك جميع قوميات الامبراطورية العثمانية ومن جملتهم العرب ففرضوا اللغة التركية وتعليمها على العرب وغيرهم وفى المثل على نفسها جنت براقش فهب شباب العرب الى مقابلة ذلك بالمثل والاعتزاز بقوميتهم والسعى الى تحرير انفسهم محاولين ذلك اولا بتأليف الجمعيات السرية والقيام بنشاط الانفصال اعتزازا بقوميتهم وحفاظا على عنصرهم العربى .

لمآربهم الشخصية إنما هي من الأعمال الذميمة التى أنفر منها وأراها قبيحة .

أن أهالى عسير وقعوا بين شخصيتين احداهما شخصية الادريسى الذى حصل على مكانة بينهم بدعوى خدمتهم وإصلاح شؤونهم وكان إنما يعمل لنفسه ، وبين شخصية الشريف الذى تدخل فى شئون عسير بدعوى مقاومة الادريسى أو حل مسألته، وهو يرمى من وراء ذلك الى مطامع خاصة به وآمال ترجع إلى شخصه . فالثورة التى قامت فى عسير وعمت أرجاءه لم تكن نتيجة شعور قومى حيل بين الشعب وبين تحقيقه فانفجر بشكل ثورة ، وإنما هى نتيجة وجود البلاد بلا حكومة ولا صاحب؟ ،فانسلبت ثقة القبائل بعضها من بعض ، وأريقت الدماء فيما بينهم . وكان يظهر فيهم بين حين وآخر أمراء يجمعون شملهم ولكن الحكم الفردى فى هؤلاء الأمراء كان يتحول الى ظلم وعسف اشمأزت منه نفوسهم وسئموا منه وحقهم أن يشمئزوا ويسأموا .

وفيما كان أهالى عسير فى تلك الحالة من إهمال الدولة لبلادهم ، ومن شيوع الفوضى بينهم ، ومن عدم رغبتهم فى حكم الأمراء الفردى ، ظهر بينهم الادريسى بدعوى جذابة متبرئا فيها من كل مسعى لأجل نفسه ومتعففاً عن كل مصلحة شخصية له ، حتى إذا تمكن من إيقاد نار الثورة فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وتوصل إلى تأسيس إمارة له فى منطقة صبيا من بلاد عسير وفى منطقة أبو عريش من بلاد اليمن ، وذلك بالوساطة التى قامت بها ايطاليا بينه وبين الدولة العثمانية فى اوائل حرب البلقان ـ حينئذ نزع عن وجهه النقاب الذى كان يظهر به لأهالى عسير وأعلن نفسه حاكما فيهم متسلطا عليهم ، وحصر فى نفسه وفى ذويه تجارة البلاد . [١] .

---

(١) للحقيقة والتاريخ نقول لم يعرف عن الادريسى اشتغاله بالتجارة لا بالذات ولا بالواسطة لا هو ولا ذويه فقد ثار على الاتراك فى مسقط رأسه كما قام غيره من زعماء العرب فى غير قطر من الأقطار. كان الادريسى ـ كما عرف ممن عاصره متواضعا فى الملبس متقللا فى المأكل بعيدا عن أبهة الامارة ولم يعرف له ثروة فى حياته ـ وكل ما وجد فى خزانته الخاصة ، كما اخبرنى احد خاصته ـ هو مبلغ سبعين الف روبية من العملة الهندية الانجليزية أى ما يساوى خمسين ألف ريال تقريبا ـ وزعت بين ورثته وما عدا أراضى زراعية معروفة الى هذا التاريخ .

وبعد انتهاء الحرب العظمى انضمت إلى ملك الادريسى منطقة الحديدة التى كانت قبل الحرب للدولة العثمانية ، غير أنها فقدت مركزها التجارى وأن حالتها الادارية الآن سيئة جدا .

ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها قام سكان جبال عسير فقطعوا رابطتهم بالادريسى وأظهروا ميلهم الى حكم الشريف . ثم استقر رأيهم على الانضمام الى سلطنة آل سعود وأصبحت جبال عسير وتهائمها جزءا من تلك السلطنة إلى يوم الناس هذا .

بعد انتهاء رحلتى فى الجهة الشرقية بالنجاح الذى أتيت على بيانه فيما سبق شرعت فى تنظيم الأمور فى المركز وما جاوره . وكان من جملة النتائج الناجحة التى توصلت إليها أن أهالى القبائل الذين زرتهم وافقوا برضاهم على إرسال زكاتهم إلينا من مواش وغلال فتمكنت ذلك من تأمين الطعام لعسكرى مدة شهرين آخرين وكان الشريف لم يرسل حتى ذلك الحين ما وعدنى بارساله من النقود للصرف على جنودنا ، فأصبح موقفى حرجاً جداً لولا الزكاة التى صار يوافينى بها رجال القبائل فى الجهات التى زرتها .

ومما يستحق الذكر أننى لما عينت حاكما وقائدا لعسير سنة ١٩٠٩ اجتمعت فى الاستانة قبل حضورى منها إلى عسير بالشيخ محمد سعيد با حيدرة أحد تجار أبها وكان قبل اعلان الدستور متعهدا للدولة بتقديم مؤونة جيشها فى عسير ، وكان متأخراً له دين متراكم فى ذمة الخزينة العثمانية ثمنا لما قدمه للجيش من الميرة . فلما اجتمعت به فى الاستانة قبل ذهابى إلى وظيفتى الجديدة فى عسير التمس منى أن أساعده فى الحصول على حقوقه . فصحبته إلى جاويد بك وزير المالية يومئذ ، ورجوته أن يسهل له عمله . فقال لى جاويد بك :

ـ أننا سننا قانونا جديدا لمثل هذه الديون التى يطلبها الناس من الخزينة ، وهى الديون غير المنظمة فمن العبث محاولة حصول هذا المتعهد على شىء من المتأخر له ما لم تتخذ الدولة قرارا عاما بشأن جميع هذه الديون .

قلت : ـ ولكنى أريد أن أتخذ هذا الرجل متعهدا من جديد للجيش فى

عسير ، وقد وضع رأس ماله فى الميرة التى قدمها للجيش فى السابق فلا يمكنه الآن أن يؤدى هذه المهمة وليس فى يده رأس مال يساعده عليها . والذى علمته أن الحكومة المحلية هناك اتخذت بعد هذا الرجل متعهدا آخر من اليونانيين ، فهو لأنه غريب لا يستطيع أن يخدم الدولة كخدمة هذا الرجل المعروف من جميع التجار لأنه من أبناء البلاد ، وفضلا عن كون ذلك اليونانى من الأجانب فالمصلحة تقضى بأن يقوم محمد سعيد با حيدرة بهذه المهمة ، وهو لا يستطيع القيام بها بلا رأس مال ، فأرجو أن تأمروا باعطائه حقوقه ليتمكن من خدمتنا .

قال جاويد بك : ـ هذا مستحيل ولكن يمكنكم أن تقرضوه من صندوق الحكومة المحلية هناك مبلغا يجعله رأس مال على أن يسدده لكم فيما بعد .

قلت : حسن .

وصحبت معى محمد سعيد با حيدرة عند سفرى من الاستانة الى عسير . فلما وصلت إلى أبها قطعت حساب المتعهد اليونانى وأخرجته من عسير ، ووضعت فى يد محمد سعيد با حيدرة بضعة آلاف من الجنيهات على سبيل القرض ليقدم لنا ما نحتاج اليه من ميرة ومئونة . ومركز عسير التجارى فى مدينة « رجال ألمع » التى كانت فى حالة التمرد على الدولة بسبب ميلها إلى السيد الادريسى ، غير أن الصداقة الشخصية بين متعهدنا محمد سعيد وبين تجار رجال ألمع لكونه فى الأصل حضرميا من مواطنى الشيخ محمد يحيى با صهى[1] المؤيد للسيد الادريسى أولا وآخرا بما له من ذكاء مفرط وثروة طائلة وتجارة واسعة النطاق مع عدن ومصوع ـ ان صداقة متعهدنا مع تجار رجال المع ولا سيما مع هذا الرجل قد سهلت علينا الحصول على الغاز والسكر وغيرهما من المواد الضرورية التى لم يكن فى استطاعتنا لولا هذه الصداقة أن نحصل عليها إلا بطلبها من الخارج رأساً وفى ذلك من الصعوبة ما لا يخفى . فالخدمة التى قام بها محمد سعيد قبل أن يقع الحصار على أبها وبعد الحصار كانت مهمة جدا . وقد علم القراء أن مدة الأربع

(١) راجع ص ٢٤٨ جـ ٢ من كتابنا المخلاف السليمانى الطبعة الثانية

السنوات والنصف التى توليت فيها ادارة عسير من أول وصولى إليها إلى حين خروجى منها كانت زمن ثورات واضطرابات ولم تكن المواصلات سهلة بين الساحل ومركز الحكومة ، فلو بقيت الميرة والمئونة فى يد المتعهد الأجنبى لوقعنا فى مشاكل عظيمة جدا .

وإذا كانت رحلتى الأخيرة قد أفادتنا من جهة الزكاة فإننا لا نزال فى حاجة الى النقود . وقد بلغنى أنه يوجد عند قائمقام القنفذة نحو سبعة آلاف جنيه ، وبما أننا لا نستطيع أن نحضرها بأنفسنا رأسا فقد فكرت فى أن نحصل عليه بتحويل أكتبه لبعض تجار رجال ألمع مقابل خصم قليل ، ففاتحت متعهدنا محمد سعيد فى هذه المسألة فقال : إن ذلك ممكن . وفى الحال كتبت تحويلا على قائمقام القنفذة بهذا المبلغ على أن يدفع الى حامله بمقابل وصل ، وسلمت التحويل إلى محمد سعيد با حيدرة فأرسله هو إلى بعض تجار رجال ألمع فما لبثت النقود أن حضرت إلينا ففرجت علينا بعض أزمتنا .

وفى تلك الأثناء اتصل بى من أخبار القنفذة أن مركز القيادة العامة فى اليمن أراد أن يتلافى كارثة انكسار حملة جيزان التى علمها القراء ، فأرسل من الحديدة إلى جيزان للمرة الثانية حملة عسكرية جديدة على النقالة العثمانية الكبرى التى تدعى « آق دكز » أى البحر الأبيض وعلى بواخر أخرى غابت عن ذاكرتى أسماؤها ، منضما اليها ست سفائن مدفعية حربية ومقادير عظيمة من المؤن والذخائر والمهمات الحربية ، وأن قيادة هذه الحملة قد عهد بها الى قائد الحملة السابقة اللواء محمد على باشا الذى عين واليا على اليمن وقائدا لجيوشها ثم عزل من هذا المنصب ولبث فى الحديدة . فلما عهد اليه بقيادة هذه الحملة الثانية حضر الى جيزان مع كتائبه ومهماته . وهذه الأخبار جاءتنى من قائمقام القنفذة فى كتاب خاص شخصى . أما رسميا فان كلا من وزارة الحربية وقيادة اليمن لم تعلمنى بشىء ، فأدهشنى هذا الإهمال .

وعلى أثر ذلك قمت من أبها لتفتيش ضواحيها والبلاد المجاورة لها ففتشت مراكزنا العسكرية فى « سودة » و« سوقة » ثم انتقلت إلى مركزنا العسكرى الذى

فى « ربيعة رفيدة » وهو المركز الذى جعلناه مشرفا على رجال ألمع فمررت بعقبة الرجم التى تنحد ر إلى وادى تيه ، وأن لتفتيشى هذه العقبة سببا سيعلمه القراء فيما يلى :

إن مخفر شعار الواقع على مسافة ثلاثين كيلو مترا من أبها شمالا هو فى اول وادى تيه ، وهذا المخفر هو أول مخفر يصل إليه المسافر من أبها إلى القنفذة بطريق محايل ، ومن هنا ينحدر الانسان إلى وادى تيه من العقبة الصماء ، حاول المصريون من قبل وحاولنا من بعد إصلاحها بقدر الامكان لتكون صالحة للمرور فلم تتحول هذه المساعى الى طريق صالح لمرور العربات والمدافع ، بل أن الدواب تسير فيه بأحمالها بصعوبة عظيمة ، لأن رأس العقبة مرتفع عن سطح الأرض مقدار ستمائة وسبعين مترا ، فالنزول منها أشبه بالنزول إلى هوة سحيقة .

ولقد اتخذ المصريون فى القرن الماضى موقع شعار مركزا عسكريا أقاموا فيه المبانى العربية غير أنه أهمل بعد أن جلا عنه المصريون فأصبح الآن خرابا لم يبق منه غير آثاره .

ويحصل جنود مخفر شعار على مياههم من بئر تبعد عن المخفر مسافة كيلو مترين ، ونحن نحتمل ذلك لمناعة هذا الموقع وأهميته العسكرية - ويوجد فى جانبه الجنوبى ساحة ممهدة محاطة من جميع أطرافها بآكام تصلح كل واحدة منها لمرابطة عشرة جنود وقد اقيم على كل أكمة قلة حربية تسع هذا العدد من العسكر .

وكان المصريون قد حفروا فى هذه الساحة محاولين الوصول الى الماء فوصلوا إلى عمق خمسة عشر مترا ولم يروا للماء أثرا فحاولنا نحن فى زمن الثورة أن نزيد من الحفر فاشتغل جنودنا فى تعميق البئر الى مسافة ستة وعشرين مترا ، فنبع لنا ماء ولكنه قليل لأن الصخور هناك غرانيتية وليس عندنا أدوات نسف الصخور ولا البارود الخاص بذلك فاكتفينا بما حصلنا عليه .

قلت : أن الذى ينحدر من عقبة شعار يصل إلى مدخل وادى تيه وهذا الوادى يمتد نحو الشمال مسافة سبعة كيلو مترات ثم يلتوى إلى الشمال الغربى فيمتد

خمسة وثلاثين كيلو مترا حتى ينتهى فى موقع يسمى « عيدة » .

وهذا الوادى من عقبة شعار إلى موقع « عيدة » ـ هو من منازل قبائل آل الحارث من بطون ربيعة رفيدة ، فهم يأوون بمواشيهم إلى هذا الوادى فى الشتاء ويخرجون منه فى الصيف الى القرى الواقعة شرق ربيعة رفيدة وهى مشرفة على الوادى ويرعون مواشيهم فى الجبال . وعرض الوادى يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف متر وترتفع أهضامه من الجانبين مقدار ستمائة أو سبعمائة متر ارتفاعا لا ميل فيه وهذه الأهضام من صخور الغرانيت ومدخل الوادى من عقبة « شعار » ومن عقبة « الرجم » الواقعة فى الشمال على مسافة اثنى عشر كيلو مترا من شعار غربا .

وتوجد فى الجهة الشرقية عقبات « آل حسان » و « النخلين » و « الهبهبة » و « بلحمر » ولا تستطيع الدواب أن ترقى من هذه العقبات إلا عقبة النخلين . .

وهذا الوادى يكون جافاً إلا فى زمن الأمطار ، وعلى ذلك فهو من الوديان الحارة . وبسبب مناعة هذا الوادى واعتياد قبائل آل الحارث على التمرد فان من الصعوبة بمكان المرور من هنا إلا بعد اتخاذ التدابير . فأردت من اكتشاف عقبة الرجم أن يكون مرورنا من الوادى قصيراً وأن أكون على رأس آل الحارث فأجاذبهم حبل الملاطفة وحبل التهديد منعاً لما يخشى من هجومهم علينا ، وقد وضعت « أورطة » من الجند فى قرية « الزهرة » احدى قرى آل الحارث الواقعة فى رأس العقبة .

وبعد موقع « عيدة » الذى فى آخر وادى تيه توجد أرض صخرية مؤلفة من بضعة آكام صغيرة تبلغ بضعة كيلو مترات وبعدها أراضى آل موسى الخاصة بسكان محايل ، وهى أراض سهلة تصلح للحركات العسكرية يسار فيها خمس ساعات الى بلدة « محايل » التى هى المرحلة الثالثة من أبها إلى القنفذة .

ومن وادى تيه ينتهى القسم الجبلى من عسير ويبتدىء قسم تهامة . ويتحد تيه أمام محايل مع وادى العوص الممتد من رجال ألمع أى من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، فإذا اتحد الواديان صار اسمهما معا وادى حلى وهو يمتد إلى

الشمال الغربى وفى شماله قبائل المنحجة وفى جنوبه بنو ذنب ؟ وبنو هلال وتنصب مياهه فى البحر الأحمر عند مكان اسمه « حلى » يبعد عن القنفذة ثمانين كيلو مترا إلى جهة الجنوب .

ولأجل النزول من أبها إلى محايل لا بد من المرور بعقبة تسمى « عقبة القضاء » وهى جبال ربيعة رفيدة المشرفة على رجال ألمع وتعد من أراضى آل موسى ، غير أنه عند الانحدار منها يصبح الجند معرضا من الجناح لهجوم قبائل رجال ألمع عليه ، فليس من الجائز القيام بحركة عسكرية فى هذه الجهات إلا بعد التفاهم والاتفاق مع رجال ألمع .

ولما كان فى عزمى أن أذهب إلى محايل متى حان الوقت المناسب لفتح طريق القنفذة وتأليف قلوب القبائل التى بين محايل والقنفذة فقد أردت قبل إخراج هذا العزم من حيز الفكر إلى حيز الفعل أن أكتشف هذا الطريق الذى أنوى أن أسوق فيه جنودى .

وفيما أنا فى ذلك جاءنى كتاب من أبها يتضمن خبر وصول بعض مشايخ بيشة إلى أبها مرسلين من طرف دولة الشريف عن طريق بيشة وشهران وهم يحملون لي أمانة من دولته ، فبادرت فى الحال للعودة من هذا التفتيش الى أبها .

قلت فى المقال السابق أننى رجعت إلى أبها لاجتمع بالاشخاص القادمين من الحجاز يحملون أمانة من دولة الشريف . فلما وصلت إلى أبها وجدت فى انتظارى الشريف شرف بن عبدالله بن سلطان بن شرف ، وابني أخيه الشريف راجح ابن محمد ، والشريف عبدالله بن جعفر . وهم من الأشراف العبادلة « أى من نفس أسرة الشريف حسين باشا » ويسكنون بلدة تربة الواقعة على مسافة مرحلتين من الطائف شرقا . وقد حضروا يحملون لي من دولة الشريف عشرين ألف جنيه ذهبا ، وكانوا حريصين على كتمان خبر هذه الأمانة إلى أن وصلوا وسلموها إلي . فانفرجت بذلك أزمتنا بعض الانفراج .

* * *

الحرب الطرابلسية

وتأثيرها فى عسير والتدابير التى اتخذناها

علمت من كتاب ورد لي من قائمقام القنفذة أن ايطاليا أعلنت الحرب على الدولة العثمانية فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ فدعوت مشايخ الجبل برسائل كتبتها إليهم . وفى النصف الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩١١ اجتمع المشايخ فى أبها فقلت لهم : إن الايطاليين أعلنوا الحرب على الدولة واعتدوا على مقاطعة طرابلس الغرب التى هى من البلاد العربية ولا بد أنكم تعلمون أن للايطاليين تجاه بلاد عسير ميناء اسمها « مصوع » . لذلك ينبغى لنا أن نستعد نحن هنا لدفع غارات الايطاليين إذا وقعت . فهل تعاهدوننى على أن نكون يداً واحدة فى هذا الدفاع ؟

قالوا : نحن لم نخرج قبل الآن خارج بلادنا لذلك لم نألف مثلكم الارتحال إلى الخارج . فاذا اعتدى الايطاليون على بلادنا فنحن مستعدون للدفاع عن الوطن بأرواحنا . أما إذا كنتم تريدون منا أن نترك هذه البلاد لنحارب فى الخارج فذلك شىء لم نتعوده من قبل .

قلت : بل الذى أريده منكم هو أن ندافع هنا إذا وقع أى اعتداء من الايطاليين على سواحل عسير . وان فى مخازن الجيش هنا أسلحة كثيرة وذخائر حربية كافية : وإذا مست الحاجة إلى غير ما هو موجود عندنا ففى إمكاننا أن ننقل ما نريد من الاستانة بطريق الحجاز ، وان نأتى بنقود أيضا للمقاومة . وأن بلاد عسير هى وطنكم وعرضكم وحياتكم ، والدفاع عن هذه الأمور المقدسة من الواجبات الشرعية والعقلية . والجنود الموجودون هنا قد أعددناهم للدفاع عن البلاد .

قال المشايخ : ـ إننا نعاهدك على كتاب الله بأن نكون يد واحدة مع جند الدولة على الدفاع عن هذه البلاد إلى آخر قطرة من دمائنا .

وبالفعل جاءوا بالقرآن الكريم وأقسموا عليه اليمين وصافحونى واحداً واحداً معاهدين على ذلك فقلت لهم :

ـ إذن يا إخوانى قد وافقتم على اقتراحى المشروع فالحمد لله على ذلك . ولكن هنالك مسألة أخرى مهمة يجب أن نتداول فيها وان نتفق عليها . وأنتم تعلمون أنكم جزء قليل من مشايخ عسير ، وليس بينكم أحد من مشايخ تهامة وأن قبائل آل موسى وقنا والبحر ورجال ألمع وصبيا وأبى عريش لا يزالون جميعا حتى يومنا هذا معادين للدولة وموالين للسيد الادريسى الذى هو فى موقف الحرب مع الدولة . فاذا ظل التهاميون خارجين عن هذا الميثاق الذى قطعناه الآن على أنفسنا فلا فائدة من القرار الذى اتخذناه للدفاع عن الوطن .

ولكنى فكرت الآن فى طريقة إذا وافقتم عليها باشرنا تنفيذها . وهى أن أكتب أنا الآن كتابا للسيد الادريسى أذكر له الميثاق الذى قطعته قبائل الجبال على أنفسها بالاجماع فى هذه الليلة بمناسبة الحرب الأيطالية وعن العزم الذى عزمت عليه هذه القبائل . وأخبره بالخطر الذى يتهدد الوطن الاسلامى وأدعوه أن نتناسى بالمرة الاختلاف الذى كان بيننا قبل الآن ، وأن يضع كل منا يده فى يد الآخر لندفع عن عسير ما ربما يقع عليها من هجوم العدو . فاذا وافق السيد على هذا الاقتراح فذلك ما نتمناه فتصبح عسير كلها قوة واحدة ويزول سوء التفاهم الموجود بين الدولة وبين أنصار الادريسى ونكون قد انتقلنا الى دور جديد هو دور السكينة والسلام وإذا فرضنا المحال وهو رفض الادريسى إجابة هذا الاقتراح المعقول والمشروع وجنح إلى الاتفاق مع الايطاليين علينا فما هى خطتكم تجاهه فى ذلك الحين ؟

أجابو ـ أن الادريسى لا يرفض هذا الاقتراح قط ، وأن تصور ذلك مستحيل فضلا عن وقوعه . واذا فرضنا أنه رفض الاتفاق معنا وجنح الى الاتفاق مع الايطاليين فنحن سنكون معكم ألباً عليه فنحاربه قبل غيره ، فشكرتهم على ذلك . ثم أمرت الكاتب العربى فى الحكومة أن يكتب رسالة تتضمن دعوة السيد

الى الاتفاق معنا وقد كتبت الرسالة بأسلوب الاحترام للسيد وبعبارة تؤثر على أعصابه وبعد أن ختمتها قلت للمشايخ : إننى كتبت الرسالة بناء على قرارنا ، وهى تتضمن ما أجمعنا عليه واستحسناه . وإنـى لا أريد أن أرسـل الرسالـة بنفسى ، بل أريد أن أسلمها اليكم وأنتم أرسلوها اليه فى صبيا مع رجالـكم وسنعمل بالخطة التى يقتضيها الجواب الذى يأتينا منـه . وبالفعـل سلمتهـم الرسالة .

وكنت أعلم أن الادريسى لا يرفض إجابة اقتراحى ولا سيا لأن العسيريين أصحاب صلابة دينية فإذا رفض إجابة الاقتراح انقلبوا جميعا عليه . وعقب ذلك بادرت الى إرسال برقية مطولة بالحروف الرمزية الى وزارتى الحربية والداخلية أخبرتهما فيها بكل ما حصل بالتفصيل ، وطلبت منهما أن تأذنا لى باتفاق مع الادريسى عند ورود جوابه الذى لا ريب أنه سيوافق فيه على طلبى .

وقد ارسلت هذه البرقية مع نجاب مخصوص إلى مكة لترسل من هناك إلى الأستانة على لسان البرق .

بعد مضى عشرين يوما على اجتماعى بمشايخ القبائل كانت رسالتى وصلت الى الادريسى وجاءنى الرد عليها منه . وهو يعـرب فى رسالتـه عن سروره بهـذا الاقتراح ويقول : انه وصله فى الوقت الذى كان عازما فيه على أن يقترح هو ايضا شيئا بهذا المعنى . وصرح بأنه كان متألما من الاختلافات السابقة بيننا وبينه . فلما اعلنت ايطاليا الحرب على الدولة احزنه أن يكون بينه وبين الدولة عداء ونزاع وأخذ يفكر كثيرا فى طريقة للخروج من هذه الحال المحزنة فلما وصله كتابى وقع من نفسه موقع نفحات الحياة التى كانت تصدر من سيدنا عيسى عليه السلام . وانه يتلقى بكل سرور واخلاص يد الاخاء والوداد الممدودة إليه وختم كتابه بدعوات كثيرة دعاها لى ثم قال : انه أرسل إلي وفدا مؤلفا من محمد يحيى با صهى الذى يثق به كثيرا وقد تقدم ذكره ومعه اشخاص آخرون .

وبعد بضعة أيام وصلنى كتاب من رجال ألمع بتوقيع محمد يحيى با صهى يقول فيه : إن السيد أمره بمذاكرتى فى أمر الصلح وأنه حضر مع رجال الوفـد إلى الشعبين . فبادرت فى الحال إلى إرسال شخص يدعوه للحضور إلى أبها وبعد

بضعة أيام جاءنى الجواب من محمد يحيى با صهى يعتذر بأن صحته انحرفت وان برد الجبال فى هذا الموسم يضره فلا يستطيع أن يحضر إلى أبها لذلك يرجو أن أنزل أنا إلى رجال ألمع لإجراء المفاوضة فى بلدة الشعبين . فأجبته أننى لا أستطيع أن أفارق مركز الحكومة ورجوته أن يحضر هو إلى أبها وطلبت إليه أن يعيد رسولى إلى لأحمله رسالة شفهية .

فلما وصل رسولى إلى أبها تأكدت منه أن محمد يحيى ليس مريضا ، ولكنه يتحاشى الوصول إلى جبال عسير لئلا يظن الأهالى أن الأدريسى طلب الدخالة من الحكومة وأنه لجأ إليها .وفى الواقع أننى أنا أيضا امتنعت من النزول إلى رجال ألمع لئلا يكون فى ذلك زيادة نفوذ للادريسى فى نظر الأهالى ولأن قبائل رجال ألمع لا تزال متمردة على الحكومة . وقد سمعت خبرا بأن محمد يحيى باصهى يرافقه بعض المصريين والايطاليين .(١)

وبما أن ذهابى إلى رجال ألمع غير موافق كما تقدم فقد أعدت رسولى إلى محمد يحيى با صهى مقترحاً عليه أن يكون اجتماعنا على رأس العقبة الصماء فى ديار ربيعة رفيدة على مسافة أربع ساعات من الشعبين .

وفى ذلك الوقت وصلنى نجاب من مكة يحمل جوابا على تلغرافى إلى وزارة الحربية وهذا تعريب جواب الوزارة :

« جوابا على تلغرافكم إلى أركان الحربية فى ٣ نوفمبر سنة ١٩١١ وعلى تلغرافكم إلى الوزارة فى ٤ منه نؤكد لكم ما كتبناه سابقا وهو أنه ينبغى لكم أن تستفيدوا من النفوذ الأدبى والشخصى الذى لدولة أمير مكة للتعويض عن بعض معاونته التى لا يمكن انتقادها الآن بسبب المشكلات الحاضرة ، وأن تحسنوا المحافظة على الحالة الحاضرة فى بلاد عسير إلى أن يحل الوقت المناسب .

وأن الوزارة تعترف بخدمتكم وبمساعيكم للمحافظة على السيادة العثمانية والشرف العسكرى بحمية . ولما كان من الضرورى أيضا الاستفادة من نفوذ

---

(١) كما اكد لى شخص ممن عاصر الاحداث انه لم يرافق محمد يحيي باصهى احد لا من المصريين ولا من الايطاليين لأنهم ليس لهم وجود فى ذلك التاريخ بالمنطقة وان صبيا لا يوجد بها احد من رعايا الايطاليين غير شخص يسمى (بَاطَوق) يشتغل بالتجارة

دولة أمير مكة فى هذا الباب فإننا نرجو الله تعالى أن يوفقكم إلى العمل معه باتحاد إلى أن تزول هذه الغمرة وتنكشف هذه الغمة . أما توقيف دولة الأمير لبعض الأشخاص من أهالى رجال ألمع وحجزه إياهم فى مكة بصفة رهينة فإن الباب العالى استصوب ما أوجبته الحال فى ذلك والدولة تدرس الآن المسألة .

وأما تجهيز الحملة على صبيا فمتوقفة على فتح طريق البحر ، وما دام أسطول العدو نشيطا كما هى الحال الآن فسوق القوات العسكرية إليكم لا تؤمن مغبته . ومع ذلك فإن عزت باشا يقوم بمساع سرية لدعوة الادريسى إلى الاستانةوبما أن هذه الحالة هى من نتائج الموقف الحاضر الناشىء عن الحرب الايطالية فإن الأمل برويتكم أن تحسنوا المحافظة على الموقف الحاضر مع انتهاز الفرص إلى أن تنتهى الحرب . وقد كتبنا إلى الباب العالى عن بلاغكم بشأن طرز الادارة فى عسير وسنترقب النتيجة .

وزير الحربية : محمود شوكت

وهذا « التلغراف » هو جواب على عدة تلغرافات قدمتها إلي وزارة الحربية كما هو مفهوم من عباراته . وسأشير إلى تلك الأمور فى البيانات التى ستأتى . وأقتصر الآن على ذكر المعنى الذى أرادت الوزارة أن تفهمنى إياه بشأن دعوة الادريسى إلى الاستانة فإن موظفى الحكومة الذين فى مثل مركزى لا يجوز لهم بحسب قوانين الدولة ان يفاوضوا - بلا إستئذان من رؤسائهم - رجلاً يتولى زعامة الثورة على الدولة . وقد تضمن « تلغراف » وزير الحربية منعى بصراحة من أن أفاوض الادريسى فى الاتفاق على الايطاليين لذلك صار من الواجب علي أن أقطع المفاوضة الدائرة الآن مع رجاله . فأردت أن أتذرع بالأعذار الواهية التى اعتذر بها وفد الادريسى عن المجيء إلى أبها فلا سبيل إلى المفاوضة بيننا . وكان ذلك الكتاب قاطعاللمفاوضات وعاد وفد الادريسى إلى صبيا . (١)

---

(١) راجع النص الكامل للمنشور الادريسى فى جـ ٢ ص ٧٦٩ - ٧٧٩ من كتابنا تاريخ المخلاف السليمانى فى ذلك المنشور المطول أورد الادريسى كل ما يراه - من وجهة نظره - عن مبررات ثورته ومواقفه من الدول العثمانية ومعاملتها وقضيته مع متصرف عسير فى نفس هذا الموضوع وغيره .

اطلعت فى ذلك الحين على صحف تركية تصدر فى الأستانة وفيها ترجمة رسالة نشرتها جريدة « الأهرام » يومئذ وهى مرسلة من السيد الادريسى إلى الإمام يحيى ، وقد قال فيها : إنه حاول الاتفاق غير مرة مع الدولة أثناء ثورة عسير فكانت الدولة ترفض مد يد الاتفاق إليه وإنه حاول ذلك ـ للمرة الرابعة ـ أثناء الحرب الطرابلسية فوافقت أنا على الاتفاق معه ، وبناء على ذلك بادر إلى إرسال وفد من رجاله لمفاوضتى فعاد الوفد إليه صفر اليدين بلا نتيجة .

والسيد الادريسى يعتبر ذلك منى مخادعة لأستفيد من فرصة السكينة التى سادت أثناء المخابرة للشروع فى المفاوضة ، وإننى تمكنت يومئذ من توريد بعض المؤن والمهمات الحربية والنقود من القنفذة إلى أبها تحت جناح تلك السكينة المؤقتة حتى إذا قوى عضدى بهذا الاستعداد رفضت الاستمرار فى المفاوضة للوصول إلى الاتفاق المطلوب .

وهذا هو كتاب الادريسى إلى الامام يحيى أنقله عن جريدة « وظيفة » التركية التى قالت أنها ترجمته عن الأهرام :

« من السيد الادريسى إلى الامام يحيى بن محمد حميد الدين : »

« إن مسألة الاتفاق مع الحكومة لم نكن نحن غير راغبين فيها ، ولكننا كلما اقتربنا نحو الاتفاق تعمد الحكومة إليه فتفسده . وقد بدأنا المذاكرة فى ذلك معهم أربع مرات ، وفى كل من ذلك كنا نحن نبدى لهم آثار الملاينة والميل إلى الوفاق فلا يقابلوننا إلا بالكبرياء والجبروت والتحقير .

ففى المرة الأولى جاءنا الخوجة توفيق ، فكانت مطالبنا منهم فى منتهى البساطة والملاينة والذى يسمع تفصيل هذه المطالب لا يتمالك من الضحك لبساطتها حتى لا تستحق أن تسمى مطالب على أى وجه قبلناها .

إننا لم نطلب منهم يومئذ استقلالا ولا شيئا من هذا القبيل . وإنما قلنا لهم أن كل الأراضى تكون للحكومة ، وجميع الواردات تعطى للحكومة ورواتب الموظفين تتولى الحكومة توزيعها . وغاية ما طلبناه أن يكون لى الحق فى دعوة الأهالى إلى أحكام الشرع ، وأن أقوم بوظيفة تبليغ الناس أوامر ربهم وأن يبقى التعامل فى

جيزان على ما كان عليه من قبل ، وأن تكف يد أمير مكة وصالح بن حسن عن التدخل فى شئون حجاج عسير ، وأن تزاد القوة هنا عن مقدارها للمعتاد . ووعدناهم فوق ذلك بالسعى لعقد اتفاق بينهم وبينكم « أى بين الدولة والإمام يحيى » .

وإنما كانت مطالبنا يومئذ بسيطة إلى هذا الحد لأنه لم يكن حتى ذلك الحين قد سفكت بيننا الدماء . ولكنهم بالرغم من بساطة مطالبنا قابلونا بالشدة والجبروت ، فساقوا علينا الحملات العسكرية الكبرى بقيادة محمد على باشا ومحمد راغب بك . فامتلأت جيزان بألوف العساكر ، وأعلن أن حجاج عسير تابعون للشريف حسين بن عون ، وألقيت رجال بلاد ألمع فى غياهب السجون ، وطلبوا الحجاج الذين عندنا أيضا ليسجنوهم . ولما وصلت القوات العمومية كلها أمرونا بأن نفتح لهم الطرق التى يصلون منها إلى بلادنا . أننا لم نحتمل كل هذا فقررنا أن ندافع عن أنفسنا ، وقد انتهت أعمالهم أخيرا بانتصارنا المعلوم .

وفى المرة الثانية أنتم توسطتم بيننا وبينهم . فقلنا حسن جدا ، ووافقنا على اقتراحكم . ولكننا وصلنا فى هذه المفاوضة إلى النقطة التى يستحيل تنفيذها وهى أنهم علقوا الاتفاق على سفرنا إلى الأستانة . وقد فهمتم أنتم يومئذ أن عملهم كان محاولة فقط . والدليل على ذلك أنكم استأنفتم السعى وكررتم المراجعة بعد رجوع عزيز بك الى مصر فكنتم تحاولون عبثا . وبعد ذلك جهزوا علينا حملة مؤلفة من تسع وثلاثين « أورطة » عسكرية وساروا علينا بها فكنا مظهرا لعون البارى والصون الصمدانى .

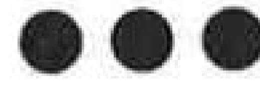
وفى المرة الثالثة توسط بيننا وبينهم السيد شراعى باشا وبعض الاخوان فوافقنا على توسطهم ، ولكن الدولة قابلت ذلك بالسكوت .

وفى المرة الرابعة اقترح علينا المفاوضة فى الصلح سليمان باشا متصرف عسير . وذلك أنه لما وقع الاعتداء من الايطاليين كتب إلينا سليمان باشا كتابا يدعونا إلى الاتفاق ، وترك الشقاق ، وأن نكون يدا واحدة كالأخوان فقلت : على الرأس والعين وأوفدنا من يجتمع به ويفاوضه ووصل الرجل الذى اعتمدناه إلى مكان

قريب من معسكرهم ودعى سليمان باشا للاجتماع به والمفاوضة معه فكان سليمان باشا يماطل فى الأمر أياما اختلس فيها الوقت لتوريد المئونة والنقود إليه فأنقذ نفسه وقوته العسكرية من الحالة السيئة التى وصلوا إليها ،وبعد أن استغنى بما استورده قلب لنا ظهر المجن وتظاهر بالعظمة وأجاب رسولنا جوابا لا يليق به وأخذ يجهز « الأورط » العسكرية التى معه . فلما شاهد معتمدنا هذه الأحوال لم يجد أمامه ما يفعله غير الرجوع إلينا ومع ذلك كله فإننا لما علمنا بما يفعله الايطاليون من البطش والشدة توقفنا عن كل عمل ولم نشأ أن نقوم بأية حركة . وكتبنا إلى كتيبتهم الموجودة فى ميدى نقول لها : إذا كنتم فى حاجة إلى شىء فأخبرونا .

وبينما نحن كذلك مر محمد على باشا من القنفذة ويااليت محمد على باشا حصر أعماله فى شئون العسكر ، بل بادر إلى إحراق جميع منازل السادات والعلماء التى مر بها ، ولما وصل إلى جيزان لم يجد مكانا يختاره ليكون مستشفى غير المسجد .

إن هذه الأعمال قد حملتنا على أن نجهز لهم قوات عظيمة سقناها إلى هناك ، لقد حاولنا فى كل مرة أن نعقد اتفاقا ، ولكننا لم نجد أمامنا من يمد لنا يد الاتفاق » انتهى .



هذا هو كتاب السيد الادريسى إلى الامام يحيى وقد حاول أن يستر فيه دائما النقط التى تتوجه منها المسئولية عليه ، ووجه التهم كلها فى مسألة عسير الى الدولة العثمانية محاولا أن يقنع الامام يحيى والرأى العام بالخطأ .

وإنى سأشرح فى مقالة أخرى النقط الحيوية من كتاب السيد الادريسى ، وأبرهن على بطلان دعاويه بالمستندات والوقائع حتى يفهم القراء الحقيقة .

لقد كنت شاعرا بأننى سأكون تجاه وقائع جديدة بعد الحرب الايطالية بسبب تحريضات الادريسى ، لذلك أردت أن أقوى مدينة أبها وضواحيها ، وأن أزيد القوة التى وضعتها فى ربيعة رفيدة ، لأنها مشرفة على رجال ألمع ومهددة لها ، ورجال ألمع هى المؤخرة فى القوة التى تتألف من قبائل تهامة .

وفى النصف الأول من نوفمبر سنة ۱۹۱۱ تلقيت كتابا من القنفذة جاء فيه أن محمد على باشا الموجود يومئذ فى جيزان علم بأن اسطولا إيطاليا مرّ من مضيق كمران ـ أى من المياه التى بين جزيرة كمران والحديدة فى ساحل اليمن ـ قاصدا جيزان . فلما علم محمد على باشا بذلك جلا عن جيزان وانتقل الى جزيرة « فرسان الكبرى » ليستكشف الحقيقة منها ، فإذا كان الأسطول الايطالى لا يزال بعيدا أى إذا كان لم يدخل مياه « كمران » فإن فى عزمه أن ينسحب إلى ثغر « اللحية » فى الجنوب ليلتحق منها هو وقوته بجيش اليمن .

فلما قرأت هذا الكتاب بادرت فى الحال الى كتابة رسالة الى محمد على باشا قلت له فيها : إن القيادة العامة فى اليمن بعد اتفاقها الأخير مع الإمام يحيى لم تعد فى حاجة إلى قوة أخرى تلتحق بجيشها ، أما حامية القنفذة فإنها ضعيفة ، فيحسن بمحمد على باشا أن يبادر فى الحال للمجىء إلى القنفذة مستصحبا القوة التى تحت قيادته والسفن و غيرها ، ولا سيا أن وجود اسطول العدو فى الجانب الجنوبى متوجها إلى الشمال يجعل من الخطر على قوة محمد علي باشا أن تسير فى ذلك الطريق . ثم أن مرفأ ثغر اللحية غير صالح لالتجاء السفن إليه ، وهى تضطر إلى الوقوف بعيدا عن الساحل مسافة سبعة أميال ، فتفريغ حمولة سفائن الحملة سيستغرق بضعة أيام . وأما البقاء فى جزيرة « فرسان الكبرى » فلا معنى له غير انتظار الوقوع فى الأسر .

وعلى هذا فان الرأى الصواب أن يعود محمد على باشا بقوته وسفائنه إلى القنفذة فى الحال دون أن يضيع دقيقة من الوقت ، فإذا وصل إلى القنفذة أمر السفن بأن تتوجه بأسرع ما يمكن إما إلى السويس أو إلى بور سودان لئلا تكون غنيمة باردة فى يد العدو .

ولما وصل كتابى إلى محمد على باشا فهم صعوبة سفره إلى اليمن بطريق « اللحية » فاضطر إلى المجىء إلى القنفذة ، فوصل إليها يوم ۱۹ نوفمبر سنة ۱۹۱۱ ولم يرسل إلى السويس غير السفينة النقالة الكبرى المسماة « البحر

الأبيض »وسفينة أخرى صغيرة من سفن خفر السواحل ، وأبقى فى مياه القنفذة بقية سفن خفر السواحل ويخت واحد .

ولما انسحب محمد على باشا من جيزان وجلت جنوده عنها كان ذلك على وجه الاستعجال ، ومع أنه حاول أن يحرق بالغاز ألوف الصناديق المدخرة فى جيزان وفيها ذخائر حربية للمدافع والبنادق وفيها المؤن والأرزاق ، فقد كان ـ مع ذلك ـ قسم عظيم من هذه المدخرات غنيمة للادريسى استولى عليها رجاله .

وعند وصول محمد على باشا إلى القنفذة كتبت كتابا قلت له فيه : أن القنفذة يكفيها مقدار قليل من الحامية . أما المركز فانه فى حاجة إلى القوة وإلى الملبوسات والذخائر الحربية ، واقترحت عليه أن يبقى هناك مقدارا مناسبا من الجنود وأن يرسل كل ما عدا ذلك من جنود ، وما معهم من الملبوسات والمدافع والمهمات الحربية إلى أبها ، قلت له : إننى تسهيلا لوصول هذه القوة إلى أبها سأرسل قواتى إلى محايل لاحتلالها وبالفعل أعددت العدة والقوة فى أبها لأجل احتلال « محائل » .

وفى ١٩ نوفمبر سنة ١٩١١ تحركت من أبها أربع « أورط » مشاة وأربعة مدافع واثنان من المدافع الرشاشة تحت قيادة « أمير الاى » حيدر بك بالسير السريع ، فساروا من عقبة الرجم إلى وادى « تيه » حتى وصلوا إلى « محائل » بغتة ووضعنا على رأس العقبة قوة احتياطية ، وحفظنا المواصلة بيننا وبينها بواسطة رسل ينقلون إلينا الأخبار عنها .

ولما وصلت القوة إلى موقع « عيدة » الذى عند منتهى عقبة «تيه » وجدوا أمامهم قوات من الثائرين حضرت للدفاع عن تلك الأماكن ، وقد ظهر أن عددها عشرة آلاف ، فأيقنت قواتنا أن التقدم إلى الأمام محفوف بالمهالك وأرسل لي قائدها حيدر بك يقول : إن من رأيه أن يرجع ، فكتبت له فى الحال أقول : إن تقدير قوة الثائرين بعشرة آلاف مبالغ به كثيرا ، ورجوعكم إلى الوراء نكبة ، لأنه سيشجع القبائل كلها على الثورة ، فتوجهوا إلى وادى « تيه » وأنا وراءكم فى

عقبة الرجم ، فإذا رأيت الحاجة ماسة إلى إمدادكم أدركتكم حالا فتقدموا قبل أن يزداد عدد الثائرين والتوفيق من الله تعالى .

فلما تلقى حيدر بك هذا الأمر تقدم إلى الامام وظل يحارب حربا متفوقة حتى وصل إلى محائل مع آذان المغرب وعلمت فى صباح اليوم التالى أنه دخلها موفقا فوضعت آلة المخابرة بالأنوار على عقبة القضاء التى فى أرض ربيعة رفيدة وجعلت التخابر مع محائل . وكنت وأنا واقف على رأس عقبة القضاء أنظر الى بلدة محائل بالمنظار الذى من طراز « سايس » المكبر ثمانية أضعاف فكنت أرى مبانى البلد ومضارب الخيام التى ضربتها الجنود . وعلى أثر ذلك أرسلت تلغرافا إلى وزارة الحربية أبلغتها فيه خبر احتلال « محائل » وتوجه محمد على باشا إلى المركز وأن القوات التى فى الجبال ازدادت تأييدا بمن انضم إليها من قوات محمد على باشا .

ثم ارسلت خبرا إلى محمد على باشا أبشره فيه باحتلال « محائل » وأدعوه إلى الأسراع بالمجىء إلى أبها .

وبعد الانتهاء من هذه الأعمال توجهت إلى أبها فأصدرت الأوامر بإعداد الجمال لارسال الميرة والمئونة عليها إلى الجيش الذى فى « محائل » لأن جنود الحملة لم يكن معهم غير جراية « بقسماط » لخمسة أيام . ومحايل لا يسهل الحصول فيها على الدقيق لسد حاجة الجند إلى الخبز لذلك صنعنا لهم - البقسماط فى أبها وصرنا نرسله لهم على الجمال .

وما برحت الدولة منذ دخلت هذه البلاد تحصل على حاجة جندها من الدقيق والأرز والسمن وأمثال ذلك بتوريده من الخارج بواسطة المتعهدين ، وكانت أيدى الرشوةوالخيانة تلعب بأثمان هذه الحاجيات وبأنواعها فلا يحصل الجند إلا على الفاسد من الدقيق والسمن . ومع أن هذا القسم الجبلى من بلاد عسير ومثله بلاد اليمن يوجد فيه أفخر أنواع القمح وأنفس أصناف السمن الذى لا غش فيه ، ويوجد ذلك بكثرة عظيمة وبأثمان رخيصة جدا وكنت أعلم هذه الحقائق منذ كنت فى اليمن برتبة قائد ألف . فلمّا توليت الادارة مباشرة فى عسير كان أول ما عملته أننى استجلبت طاحونتين متحركتين من التى تدار بالغاز وصرنا نشترى القمح

والسمن من الأهالى ، ولا نستجلب من الخارج غير السكر والغاز ولما صار الجيش يعيش بالقمح البلدى أخذ الأهالى يكثرون من زراعته وتحسنت أسعاره وانتفعوا بذلك . فالبقسماط الذى أرسلناه إلى محايل كان من دقيق هذا القمح البلدى مخبوز فى الفرن الذى بنيناه فى أبها .

ولم أكن أقصد من احتلال « محائل » البقاء فيها ، لأنها لا فائدة لنا منها منذ انسد طريق البحر ولم تعد القنفذة مركزا للتصدير إلينا ثم أننا إذا لم تتم لنا السلطة فى قسم الجبال وإذا لم تؤلف قلوب القبائل الشمالية إلى حد الحجاز فمن العبث أن تقوم بحركات حربية فى قسم تهامة وفضلا عن ذلك فان هذه الحركات تعد من قبيل الاسراف فى استعمال جنودنا فى جو تهامة غير الملائم للصحة . وليس بين القنفذة وأبها مراحل ومحطات للجند يصح الاعتماد عليها وتتوفر فيها الشروط اللازمة للتموين ، فالجند يتلف فى هذه الأماكن صحيا فضلا عن التلفيات الحربية . لذلك كانت الخطة التى رسمتها تقضى بالجلاء عن محايل بعد سحب القوات التى لنا فى القنفذة إلى أبها .

ان الحركات العسكرية التى أجريت فى بلاد العرب دلت على شدة الخطر من توزيع القوات بقصد توطيد الأمن . ففى مثل هذه الأنحاء ينبغى حصر القوة فى نقط قليلة . وعلى فرض وجود مراكز صالحة للدفاع والحصار بين القنفذة وأبها فإن تدارك المئونة من القبائل المجاورة غير ممكن فى زمن الثورات فلا بد من إيصال المئونة من المركز تحت حماية الجيوش هذا لا يكون فى كل مرة إلاّ بحرب جديدة لا لزوم لها وتضحية جنود عدة بلا موجب . إذن فما دامت الحرب الأيطالية قائمة وما دامت مسألة الادريسى لم تحل نهائيا فى صبيا نفسها فإن تأسيس المراكز بين القنفذة وأبها يعد من قبيل العبث فضلا عما هو محفوف به من المحاذير والمخاطر .

أن محمد على باشا بالرغم من كتابتى إليه لبث يماطل في البقاء مدة في القنفذة وجهاتها ، وجعل يتردد فى المجىء إلى أبها معتذرا بضرورة بقائها بلا قوة تحميها .

والذى فهمته أن الرجل لا يرغب فى البقاء فى عسير فى هذه الظروف الثورية وهو يرتقب فرصة ووسيلة للرجوع إلى الأستانة . ولكن الأستانة أرسلت فى خلال

ذلك « أورطتين » من فرقة مكة إلى القنفذة لتقوية حاميتها أصدرت أمرها إلى محمد على باشا بالبقاء فى عسير وعلى ذلك لم يبق مناص لمحمد على باشا من الحضور إلى أبها فتحرك من القنفذة يقود خمس أورط مشاة وبطارية مدافع جبلية وأربعة مدافع رشاشة ومدفعين من مدافع الصحراء السريعة الطلقات وكمية من المهمات والتجهيزات الحربية فوصل يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩١١ إلى « عجمة » الواقعة على مسافة مرحلتين من محائل فى شمالها الغربي ، وبعد يومين وصل إلى محائل . فلما جائنى خبر وصوله ذهبت إلى ربيعة رفيدة وجعلت أخابره بنفسى بآلة المخابرة بالأنوار من عقبة القضاء .

فى خلال ذلك رسم الأدريسى خطة للهجوم على قواتنا فى محائل فوزع المكافآت على زعماء القبائل وبعث الدعاة إلى جهات « قنا البحر » لتحريض رجالها على القتال ، وأخذ السيد مصطفى أحد قواد الادريسى يجمع العساكر فى قنا والبحر ، والقائد السيد محمد طاهر (١) يتنقل فى جهات « حلى » . وقال أهالى رجال ألمع للادريسى : إن جنود الدولة على مقربة منا فإذا نحن انتقلنا للقتال فى مواضع أخرى استولت جنود الدولة على أراضينا . وقد علمت ذلك من أصدقائى الذين بين مشايخ رجال ألمع .

وفى تلك الأثناء وصلنى أمر عزت باشا الذى أرسلهِ من طريق الجبال بواسطة الإمام يحيى بشأن الحملة الخيالية الجديدة على السيد الادريسى .

وفى يوم ٧ مارس سنة ١٩١٢ تلقيت أمرا من عزت باشا القائد العام للقوات العمومية العثمانية فى اليمن ، وقد أرسل لى هذا الأمر بصورة سرية من طريق الجبال بواسطة إمام اليمن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين على يد مشايخ صعدة التابعين له . ويقول لى القائد العام فى أمره هذا : أنه قد تقرر تسيير حملة

(١) القائد محمد طاهر رضوان من حِلّة « عروج كنانة » من ضواحى مدينة صبيا ، وهو من أكفأ قادة الادريسى وبطل معركة الحفائر ، فقد استدعاه الأدريسى من جهة « حلى بن يعقوب » وأسند إليه قيادة القبائل التى حاصرت مدينة جازان ، ثم عندما سير الادريسى قواته لقتال الاتراك فى تهامة اليمن أسند قيادتها إليه فتقدم حتى دخل بلدة « باجل » ـ راجع جـ ٢ ص ٨٧٢ من كتابنا تاريخ المخلاف السليمانى وراجع ص ٨٠٤ من المصدر نفسه الطبعة الثانية .

عسكرية على السيد الادريسى فى صبيا ، وأن القيادة العامة قد حشدت عشرة آلاف جندى من المشاة والفرسان والمدفعية فى موضع يسمى «الزهرة» على مسافة خمسة وثلاثين كيلو مترا إلى الشرق من ثغر « اللحية » التابع لمنطقة « الحديدة » فى تهامة اليمن وهذه الحملة موجودة على مسافة مائة وسبعين كيلو مترا من « صبيا » ، وستزحف إلى الادريسى من طريق البر . وفضلا عن ذلك فإن حضرة الامام يحيى سيزحف إلى الادريسى بالقبائل الزيدية من طريق الجبال جاعلا هدفه بلدة « النظير » التى هى مصيف السيد الادريسى وهى تبعد سبعين كيلو مترا عن صبيا إلى الشرق . وسيكون الإمام يحيى على صلة دائمة بالعساكر العثمانية حتى تصل القوتان إلى صبيا فى آن واحد وعلى ذلك يجب علي أنا أيضا أن أجعل جنودى الذين فى أبها على قدم استعداد للتقدم من الشمال إلى الجنوب بالمقادير الكافية من ذخيرة المدافع جاعلا هدفى مدينة صبيا وأن أعهد بإدارة أمور البلاد إلى محمد علي باشا الموجود الآن على مقربة منى فى بلدة محايل .

فلما تلقيت هذا الأمر السرى الخطير بادرت فى الحال إلى مفاوضة محمد على باشا بواسطة آلة المخابرة بالأنوار ودعوته للحضور إلى أبها ، وفى ساعة وصوله تداولت معه فى هذا الأمر وأرسلت إلى القائد العام عزت باشا الجواب الآتى :

إن نقل الجند والأرزاق والمهمات الحربية من طريق البحر غير ممكن الآن بسبب الحرب الناشئة بيننا وبين ايطاليا وعلى ذلك فإن الاعتماد فى هذه الحملة يجب أن يكون على السير من طريق البر وحده ، ومعلوم أن جو تهامة حار جداً فى كل وقت ، والجندى لا يستطيع أن يجتاز فى اليوم أكثر من عشرين كيلو مترا . وفضلا عن ذلك فإن جميع القبائل من «الزهرة» إلى « صبيا » كلهم من التابعين للمذهب الشافعى وجميعهم من أنصار السيد الادريسى . فالجند سيسير من الزهرة إلى صبيا وهو يقاتل قتالا متواصلا بلا انقطاع شاء أو أبى ، ثم إن آبار الماء التى على طول الطريق قائمة تحت ظلال أشجار السنامكى ولذلك فإن مياهها مسهلة وسيجد الجندى من شربها ضرراً بليغاً ، وبصرف النظر عن ضررها فى معدة الجندى فإن فى استطاعة القبائل أن تردم هذه الآبار كلها فيبقى الجند فى مفاوز لا ماء فيها .

وعدا ذلك وهذا فإن الجناح الأيسر لهذه الحملة لن يكون محميا بسفن حربية فى البحر بسبب الحرب الايطالية ، لذلك لا أرى هذه الحملة تقوى على إجراء مثل هذه الحركات العسكرية الخطيرة فى أراضى تهامة وإذا فرضنا المستحيل وتمكنت هذه الحملة من الوصول إلى صبيا منتصرة وناجحة ، فإن هنالك مشكلا بليغاً وهو أمر إعاشة هذه القوات الكبرى المجتمعة فى صعيد واحد واعداد المؤن الكافية لها مع انسداد باب البحر . ولا ريب أن الطريق الذى تشقه الحملة لتمر منه إلى الأمام سيقطع عليها من ورائها بعد مرورها منه ، لأن القبائل ستعود إلى احتلال جميع المواضع التى مرت الجنود منها فيصبح من العسير جدا مجىء المئونة والمسيرة والمهمات الحربية من الحديدة إلى معسكر الحملة حيثما وجدت ، بل أن ذلك يكون فى تلك الحال من قبيل المستحيل .

وبعد أن ذكرت جميع المحاذير التى ستعترض هذه الحملة قلت : « على أنه إذا حضرت القوات النظامية الموجودة فى الزهرة ، واقتربت من الجبال مع القوات اليمانية التى يقودها الإمام يحيى ، وتولى الإمام إحضار المؤن والذخائر اللازمة للجيوش ، فأرجو عندما تصل القوات إلى « النظير » وتتحول إلى الغرب للسير إلى « أبها » أن تأمروا بإخبارى فى الحال لأعين يوم حركتى أنا أيضا . وأن فى استطاعتى أن أسير بألف جندى من المشاة وأربعة مدافع رشاشة وبطارية جبلية بسرعة عظيمة من الطرق التى أختارها أنا بحسب الحال ، ويمكن حينئذ أن أصل إلى صبيا فى أربعة أيام . أما إذا وصلت إلى صبيا ولم تكن القوات التى ذكرتموها موجودة هناك ولم أتمكن من الانضمام إليها فتأكدوا أننى فى تلك الحال أقع فى الهلاك الذى لا ريب فيه . وإننى مع الالتماس منكم أن تتأملوا فى جميع الملاحظات التى ذكرتها قد أخذت من هذه الدقيقة بالاستعداد للحركة عند صدور الأوامر » .

وقد أرسلت جوابى هذا ـ حسب أمر حضرة الإمام يحيى ـ إلى الشيخ حسين ابن سلطان من آل بسام فى أرض قحطان ، وحسين بن سلطان أرسل الكتاب إلى محمد بن المقداد أحد تجار « الحرجة » وهو الذى نزلت فى ضيافته عند مرورى

بالحرجة فى رحلتى السابقة التى عرفها القراء ، ومحمد بن المقداد أرسل الكتاب إلى ناصر بن على بن مسفرة فى بلدة صعدة فى جبال اليمن ، على أن يوصله ناصر إلى الإمام يحيى .

وفى هذه الأثناء تلقيت مذكرة من قائمقام القنفذة يقول فيها : أن دولة أمير مكة أرسل إلى القنفذة رجلا يدعى الشريف شنبر بعنوان « وكيل الامارة » وقد اتخذ هذا الرجل لنفسه صفة الحاكم ، وأخذ يجمع من الأهالى زكاة أموالهم ، فكتبت إلى القائمقام أمرا قلت له فيه : يجب أن تمنع أى إنسان من التدخل فى شئون الحكومة ، وإذا كان فى يد الشريف شنبر وكالة رسمية من دولة الشريف فضمه إلى دائرة الحكومة ليكون عونا لك فيما تريد أن تستعين به عليه ، بشرط أن لا يطرأ أى خلل على صفة الآمرية التى لك فى الحكومة ، واكتف بالاستفادة من مثل هؤلاء الأشخاص بقدر الامكان .

وفى ذلك الحين أيضا رفعت أربع « أورط » من الرديف الذى معى فى أبها لواء العصيان طالبين الرجوع إلى بلادهم ، ولم يكن من الحكمة أن أقابلهم فى مثل هذه الظروف الحرجة بالشدة والسطوة ، فأذنت لهم بالسفر الى القنفذة ، وأعطيتهم بدلا من البغال ثيراناً ليحملوا عليها حوائجهم ومؤونتهم التى كانت قليلة حتى إذا أدت المهمة يتمكنون من ذبح هذه الثيران والتغذى بلحومها حتى يصلوا إلى القنفذة . وفيما كانت هذه « الأورط » سائرة فى طريقها ظهر لها بعد ثلاثة أيام من سفرها وهى على مرحلتين من محايل قوة من الثوار تقدر ببضعة آلاف بقيادة السيد محمد بن طاهر ومع الثوار مدفعان ايطاليان ، فاعتصم جنود الرديف للدفاع عن أنفسهم وأرسلوا يطلبون منى المدد لانقاذهم .

فأجبتهم بواسطة آلة المخابرة بالأنوار : أن بيننا وبين إيطاليا حرباً انقطعت بسببها طريق البحر فلا تستطيعون أن تعودوا إلى بلادكم فارجعوا إلى محائل ، فرفض الجنود الإذعان لأمرى .

وفيما نحن فى ذلك شاع بين سائر جنودنا فى أبها أن عزت باشا سرح الجنود الذين من قرعة سنة ١٣٢٣ وأنهم عائدون إلى أوطانهم ، فقام جنودنا يطلبون أن

يعودوا هم أيضا إلى أوطانهم ، ولما كان سفك الدماء بين الجنود فى هذا الزمان الصعب سيكون له أثر سىء بين القبائل ويدعو إلى تجدد الثورة من جديد ، وكانت قد وصلت الأخبار بأن السيد محمد بن طاهر [1] باشر حركات الثورة فى « قنا والبحر » والسيد يحيى بن عرار فعل مثل ذلك فى « شعف » و « قحطان » والسيد مصطفى اقتفى أثرهما بحركات فى جهات « رجال ألمع » ثم أن « أورط » الرديف لم ترجع إلى محائل بل بقيت محصورة فى « عجمة » ، وبناء على ذلك قلت لستمائة من جنود المعلمين جدا والذين شهدوا جميع معارك عسير :

ـ إننى أوافق على إرسالكم إلى القنفذة ، وأعفو عن تمردكم . ولكن اعلموا أن البحر مسدود لأنَّ الدولة فى حرب مع الايطاليين ، فسيروا الآن من هنا وانقذوا إخوانكم جنود الرديف المحصورين فى « عجمة » ثم واصلوا السير إلى القنفذة فحافظوا عليها .

قالوا : حسن . دعنا أنت ونحن ننقذ الرديف نصل معهم إلى القنفذة سالمين .

فعهدت بقيادتهم إلى بضعة من ضباطى الشجعان وأعطيتهم مدفعا . فسار هؤلاء الجنود الذين مارسوا الحرب كثيرا حتى وصلوا الى محائل بسرعة الصاعقة وتقدموا منها إلى عجمة فشتتوا من رأوه فى طريقهم من جماعات الثوار وبلغ الثائرين الذين فى عجمة أن إمدادا جاء لإنقاذ الجنود المحصورين فرفعوا عنهم الحصار وتركوهم ، فاجتمع هؤلاء الجنود بالرديف وتوجهوا معا إلى القنفذة .

ومن غرائب الاتفاق أنه فى يوم وصول هذه القوة إلى قرب القنفذة وصلت سفن الايطاليين إلى ذلك الثغر . فقال الجنود لما رأوها من بعيد :

ـ إن قائدنا سليمان باشا خدعنا . إنه يقول أن البحر مسدود وليس فيه سفائن . وهذه سفن تملأ المرفأ وإننا سنركبها ونعود إلى أوطاننا ..

قالوا هذا وتقدموا إلى الساحل على غير استعداد وكانوا يسيرون أشتاتاً فى البادية الرملية .

---

(١) راجع الحاشية بـ ص ١٤٤ قبله .

وبديهى أن البحرية الايطالية كانت تراقبهم بالنظارات المكبرة فوجهت إليهم فوهات مدافعها الطويلة من عيار عشر سنتيمترات وجعلت تقذف عليهم قذائفها بسرعة وشدة . فلما رأى الجنود ذلك قالوا :

- أن سليمان باشا قال لنا الحقيقة ، فلم نصدقه ويا للأسف ، وكنا بذلك آثمين .

ولجأوا إلى ما وراء الآكام الرملية فنجوا . وكان ذلك يوم ٦ أبريل سنة ١٩١٢ . وقبل ذلك بيوم واحد جاءت المدرعات الايطالية أيضا إلى القنفذة وأطلقت عليها القنابل وفى يوم ٨ أبريل و ٩ منه ساق الادريسى على القنفذة قبائل « قنا والبحر » و « آل منجم » و « القوز الشاهد » وفيما كانت الحامية العثمانية تدافع القبائل الهاجمة ، حضرت السفن الايطالية وجعلت تطلق مدافعها فتتساقط القنابل على الثائرين من جماعة السيد الادريسى ففتكت بهم فتكاً ذريعاً ، وأجبرتهم على الفرار ، ولم يقع شىء من القذائف الايطالية على حامية القنفذة غير أن السفن الايطالية وجدت فى المرفأ أربع سفن عثمانية من سفن خفر السواحل فاغرقتها وأسرت سفينة وجدتها خارج الميناء ، وأطلقت نيرانها على مستشفى يرفرف فوقه لواء الهلال الأحمر ، ووجهت فوهات مدافعها إلى المنازل فقتلت خمسة وعشرين شخصا من الأهالى بين رجال ونساء وأطفال وجرح خمسة منهم ، أما الحامية العثمانية فكانت معتصمة فى خنادقها ووراء متاريسها عند اطلاق القنابل من الأسطول الايطالى وعند هجوم القبائل فلم تخسر غير قتيل واحد وثلاثة جرحى .

ان السيد الادريسى رغم وقوع حادثتى هجوم القنابل ومجىء الأسطول الايطالى فى وقت واحد قال فى رسالته إلى الإمام يحيى : أنه لما رأى بطش الايطاليين وشدتهم مدة الحرب الطرابلسية التزم السكينة . وهذه الحادثة تخالف ذلك .

ولما وصل الرديف إلى القنفذة لم يلبث فيها بل توجه الى « ثغر الليث » ومنه وصل إلى الحجاز فأكرمهم دولة الشريف حسين باشا إكراماً عظيماً وكنت كتبت أنا

إلى وزارة الحربية وإلى القائد العثمانى فى الحجاز أخبرهما بحادثة تمرد الجنود وطلبت أن يجرى التحقيق مع الأشخاص المحرضين فيهم ليعاقبوا حتى لا يكونوا قدوة سيئة لغيرهم .

أما أفراد قرعة سنة ١٣٢٣ الذين أنقذوا الرديف من الحصار فى العجمة فإنهم آثروا البقاء فى القنفذة وبعد اعتداء السفن الايطالية على القنفذة كتبت إلى وزارة الحربية أطلب منها أن ترسل إلى القنفذة من القوة الموجودة فى الحجاز « أورطتين للمحافظة على القنفذة ، فوافقت الوزارة على هذا الاقتراح ولكن دولة الشريف أراد أن يستفيد من هذه الفرصة ليمد يده الى عسير فجعل « الأورطتين » و « بلوك جندرمة » الحجاز الهجانة تحت قيادة ابنه الشريف فيصل بك وأرسلهم إلى القنفذة ليدس أصبعه فى شئون عسير من جديد ، فلما وصل الشريف فيصل بك الى القنفذة ضم إليه جنود قرعة سنة ١٣٢٣ ، وأقام لنفسه معسكر فى موضع « القوز الشاهد » وهو فى جنوب القنفذة على مسافة ست ساعات بسير الجنود ، و « القوز الشاهد » عبارة عن قرية حقيرة بيوتها من العريش ، وهى فى واد رملى حار فاسد الهواء وماء آباره مالح ، ولا أهمية له من الناحية العسكرية ، وفى اعتقادى أن الشريف فيصل بك إنما اختار هذا الموضع ليكون منفصلا عن مركز الحكومة فى عسير وليمثل دوره على ما يشاء بعيدا عن كل مؤثر آخر .

لما وصلت الحال إلى ما وصفته فى المقال الماضى وجدت أنه لا فائدة بعد الآن من بقاء قوة عسكرية لنا فى محائل فأصدرت لتلك القوة أمرا بالانسحاب ودعوت جميع القوات المتفرقة فى أنحاء تهامة إلى الاجتماع فى أبها وضواحيها وفى هذه الأثناء جاءنا من طرف دولة أمير مكة ـ الشريف محمد بن راجح ومعه أربعة أشخاص سالكين طريق الجبال خفية يحملون معهم عشرة آلاف جنيه ذهبا . وفى الوقت نفسه فشا بيننا نوع من الحمى النمشية ، فبادرت فى الحال إلى إخراج الجند من البلد إلى تحت الخيام وجعلتهم متفرقين بعضهم عن بعض فلم تتجاوز الوفيات فيهم الاثنين فى المائة مع أن عشرين طبيبا من الشبان الموجودين فى أبها

والمباشرين العمل فى المستشفى قد مات منهم ويا للأسف اثنا عشر طبيبا بهذا المرض . وفى خلال ذلك تلقيت كتابا من الشريف فيصل بك الذى توطن فى القوز الشاهد يخبرنى فيه بوصوله فكتبت له جوابا مناسبا أهنئه فيه بالقدوم .

ووصلت إلي الأخبار بصورة خصوصية أن السيد الادريسى يشترى الأسلحة والذخائر الحربية من عدن ومصوع ومن سواحل الصومال التى هى مركز تجارة الأسلحة فى البحر الأحمر وذلك فضلا عما عنده من مدافع وأسلحة ايطالية ، مستفيدا من انسداد البحر فى وجهنا بسبب انتشار سفن الأسطول الايطالى هنا وهناك . وأن القوة التى اكتسبها الادريسى بما زاده من الأسلحة والمهمات حمله على أن وسع دائرة دعايته من تهامة إلى الجبال . ومهما يكن القحطانيون غير موافقين عن الانضمام الى الادريسى فإن أهل شعف ولا سيما الشيخ حمود زعيم تمنية قد أبلغ الادريسى أنه يخدمه بصداقة وإخلاص فلما علمت بذلك بادرت فى الحال إلى كتابة كتاب إلى الشيخ حمود أدعوه فيه إلى الحضور إلى أبها وأن يرسل زكاة قبائله إلينا . فأجاب على كتابى بأنه منحرف الصحة فلا يستطيع الحضور . وأما الزكاة فانه سينصح إلى الأهالى بأن يرسلوا زكاتهم . ومن هذا الجواب تحقق عندى القصد الخفى الذى عزم عليه .

أن الادريسى لما لم ينجح فى بث دعايته من جهة رجال ألمع إلى قحطان وجه حركة الدعاية الى الجبل من وادى ركان عن طريق عقبة حمود إلى تمنية فى أرض شعف . وبناء على ذلك قررت فى نفسى أن أصحب معى قوة كافية فأذهب إلى شعف فاحتل تمنية إن لم يكن برضى الشيخ حمود فبالحرب والقتال حتى استولى على رأس عقبة حموضه .

لقد اطلع القراء فى مقال سابق على نص برقية محمود شوكت وزير الحربية . وهذه البرقية تتضمن الجواب على ثلاثة أسئلة كنت وجهتها إلى الوزارة فالمسألة الأولى : هى أننى عرضت على الوزارة أن تدخل دولة شريف مكة فى شئون عسير يأتى بالمضار أكثر مما يأتى بالفوائد وبرهنت على ذلك بكل ما عندى من الأدلة والبراهين ، والتمست أن تكافئه الدولة هو وأولاده الكرام وأن تكف يدهم

من العمل فى شئون منطقة عسير . أما أمر المواصلات مع الاستانة التى انقطعت من البحر بسبب الحرب الايطالية فقلت : إذا لم يكن فى الامكان اجراء المواصلات على الساحل بين جدة والقنفذة فلا بأس من الاستعاضة عن ذلك بطريق البر من جدة الى الليث ومن الليث إلى القنفذة فإذا وصلت مخصصاتنا إلى القنفذة فإن فى استطاعتى أن أحول ذلك إلى أبها بوسائط مضمونة .

وأما المسألة الثانية من المسائل الثلاث التى عرضتها على الوزارة : فهى أن أمير مكة قبض على أهالى رجال ألمع الذين جاءوا الى الحجاز بقصد الحج وسجنهم ، وقد أومأ الشريف إلى بعض أخصائه بأنه قبض على هؤلاء الأشخاص بطلب منى .

وأن أهالى رجال ألمع وإن يكونوا غير موالين لنا إلا أنهم على كل حال ملتزمون السكينة ومن شأن هذه الحادثة أن تثيرهم علينا . فاضطررت على أثر ذلك أن أقول لمشايخ رجال ألمع : إننى لا علم لى قط بمسألة حبس رجالهم وأنه لا يخطر على بالى بوجه من الوجوه أن أهدد بالحبس أشخاصا ذهبوا إلى مكة لأداء فريضة دينية لأن ذلك لا يتفق مع شرف الحكومة ، وإننى كتبت إلى الباب العالى اقتراح صدور الأمر إلى والى الحجاز بأن يطلق سراح هؤلاء الأشخاص المحبوسين .

وأما المسألة الثالثة : فهى أننى عرضت على الوزارة ما دار بينى وبين مشايخ جبال عسير بمناسبة دخول الدولة فى الحرب مع ايطاليا ، وذكرت العهد والميثاق اللذين قطعناهما مع المشايخ فيما إذا اعتدت ايطاليا على البلاد ، وأننى كتبت إلى السيد الادريسى أذكر له هذا الاتفاق وأدعوه إلى المفاوضة فى تعيين خطة جديدة نعمل بها معا . فاستأذنت من الوزارة أن توافق على مشروعى هذا .

فمحمود شوكت باشا وزير الحربية أوصانى فى « تلغرافه » بأن من الواجب علي أن أستفيد من نفوذ أمير مكة فى الظروف الحاضرة ثم قال : أن اقتراحى المتعلق بحجاج رجال ألمع وقع موقع الاستحسان وأن الباب العالى يدرس هذه المسألة .

وقال لي بشأن الادريسى : أن عزت باشا قائد القوات العمومية فى اليمن يفاوض الادريسى مفاوضة سرية ويسعى إلى إرساله إلى الاستانة ومعنى ذلك أن وزارة الحربية تأمرنى ضمنا بأن لا أحاول عملا من جانبى فى هذه المسألة .

إذن فأنا لم أرفض الاتفاق مع الادريسى بكبرياء بعد أن استفدت من فرصة السكينة فثبت مركزى وقويت نفسى كما ذكر الادريسى فى كتابه إلى الإمام يحيى عن محاولته للمرة الرابعة المفاوضة فى الصلح معى . فأنا لم أستعمل الحيل والدسائس مع أحد فى عسير كبيرا كان أو صغيرا، وقد استقر فى أذهان الناس هناك أننى مخلص فى عملى وصادق فى قولى ، وأن أقوى قوة وأمضى سلاح تذرعت بهما فى بلاد العرب هما الصدق فى القول والإخلاص فى العمل . ولما كنت أباشر المفاوضة مع الادريسى كانت الطرق بين أبها والساحل مسدودة فلم أستطيع أن أجلب إبرة واحدة من القنفذة إلى أبها فضلا عن المؤن والأرزاق والذخائر ، ومن وجهة نظرى أن الادريسى لم يوافق على اقتراح عقد الاتفاق بينى وبينه لرغبته الصميمة بالتفاهم معنا بل لئلا ينقلب عليه الرأى العام فى عسير وفى العالم الاسلامى . وأن اصرار مندوبه على عدم الوصول إلى أبها والبقاء فى رجال ألمع دليل على صحة ما ذكرته من أسباب ذلك . والادريسى يعلم حق العلم أننى لا أوافق على الخروج من أبها الى رجال ألمع محافظة على نفوذ الحكم وخوفا من إلقاء حياتى فى التهلكة ولو أن الادريسى أذن لمندوبه بأن يأتى إلى أبها مذعنا للشروط التى توافق الحكومة العثمانية لكان فى استطاعتى أن أرضى الباب العالى بقبول هذه الشروط المشروعة .

ويقول السيد الادريسى فى كتابه المنشور فى الصحف : انه لما رأى ازدياد بطش الايطاليين وشدتهم كف يده عن معارضة الدولة بسائق الحمية الاسلامية ، مع أن السيد أرسل بعد الحرب الايطالية رجلا من قواده اسمه السيد عرار الى جهة قحطان لبث الدعاية وتحريض الأهالى ، كما أرسل قائده السيد مصطفى الى رجال ألمع والى حلى الواقعة فى جنوب القنفذة يدعوان فيها إلى الاستعداد لثورة ثانية .

وسأذكر فيما بعد الحركات التى قام بها الثائرون بينما كان الأسطول الايطالى يضرب القنفذة ، وسأنقل المعلومات التى أذكرها عما كنت أدونه فى المذكرة العسكرية مما يستحيل إنكاره .

وبعد تلك الحوادث بقليل أفرج الشريف عن سجناء رجال ألمع بناء على البلاغ الوارد له من الباب العالى فعادوا إلى أوطانهم ، وقد قيل لهم عند إخراجهم من السجن : إن دولة الأمير سجنكم بناء على طلب سليمان باشا ، وقد وجد أن هذا العمل غير مناسب فكتب إلى الاستانة يقترح صدور الأمر بإطلاق سبيلكم . ولكن أهالى رجال ألمع كانوا قد فهموا الحقيقة وأبلغوا شكرهم .

لما ضرب الايطاليون ثغر القنفذة بمدافع اسطولهم فى مارس سنة **١٩١٢** ، وسلطوا نيرانها على منازل الأهالى فقتلوا النساء والأطفال خلافا للعهود وللمبادىء الانسانية ، واتفق إذ ذاك هجوم القبائل الموالية للادريسى على ذلك الثغر ، دعوت حينئذ مشايخ القبائل الجبلية وهى قبائل بنى مغيد وبنى مالك وعلكم وربيعة ورفيدة وشهران ورفيدة اليمن وقحطان ودعى وبنى بشر وعبيدة ، فلما حضروا فى أبها ذكرت لهم الموقف الحاضر وبينت لهم المقاصد التى يرمى إليها الادريسى ، وقلت لهم : إذا ظل أهالى عسير ينظرون إلى ذلك بعين الأهمال فإن وطنهم فى أيدى الأجانب ، وأوردت لهم حججا وبراهين لاقناعهم بذلك ثم قلت لهم :

فى السنة الماضية قمت برحلة فى الجهة الشرقية من البلاد ، وقد كنتم أنتم موجودين فيها أولا وآخرا ، وأنى أحمد الله تعالى على أن سوء التفاهم الذى كان موجودا بيننا وبينكم قد زال وانتهت تلك الرحلة دون أن تطلق فيها بندقية واحدة . وقد نشبت الحرب الايطالية فى هذه السنة ، وبالرغم من كل الوعود التى صدرت من الادريسى فقد اتفقت الآن حركاته مع حركات الايطاليين فجاءت مؤيدة لاعمالهم فى الساحل ولم يكتف بذلك حتى مد يده إلى بث الدعاية فى قسم الجبال محرضا على إحداث ثورة بين ظهرانينا ، ولا بد أنكم شاعرون بما يفعله من هذا القبيل بينكم .

إن الدماء التى سفكت بيننا بلا موجب منذ سنتين إلى الآن لا يتمالك الانسان دون الحزن لها والبكاء عليها .

وها أن السيد مصطفى قد كتب إلى الشيخ على بن محمد زعيم « الشهارية » الواقعة بين القنفذة وبنى شهر يدعوه الى الثورة ، والشريف أحمد يريد المجيء إلى بنى مازن أحد بطون بنى مغيد ليحرضهم على الانتقاض ، ودعوة السيد مصطفى بلغت إلى رجال ألمع ليهجموا على قواتنا التى فى ربيعة رفيدة ، والادريسى اتفق مع أبى نبيه المور فى بلاد صعدة فى بلاد اليمن . وصفوة القول أن التحريض والاستعداد للثورة قائم على قدم وساق فى كل مكان .

وقد دعوت الشيخ حمود شيخ تمنية فى الشعف ليحضر إلى هنا فرفض أن يجيء ، وفى ذلك دليل على ما يضمره لنا من السوء . وعلى ذلك فانى عازم أن أرسل عليه حملة عسكرية . وبما أنكم قد عاهدتمونى عند بدء نشوب الحرب الايطالية وأعطيتمونى موثقا على أن تكونوا معى فقد رأيت أن ادعوكم إلى تجهيز المقاتلين وحشد الجيوش وكل من أحضر لي مائة رجل أجعله قائدا عليهم برتبة قائد مائة « يوزباشى » وأعطيه راتبا شهريا قدره عشرة جنيهات ذهبا ، وأجهز رجاله ببنادق « ماوزر » الألمانية، وأعطى كل قبيلة رايات متعددة مزينة بصورة الهلال والنجمة ، وأتعهد لهذه الجنود بأن تكون مؤونتهم على الدولة فإذا انضم الأهالى إلي ووافقوا على أن نؤلف منهم جيشا على هذا الوجه الذى شرحته فإن جبل عسير سيكون له كتلة واحدة ويقف سدا منيعا دون مكر الأعداء .

فلما انتهيت من عرض هذا المشروع عليهم استحسنوه وقالوا : سمعنا وأطعنا وأخذت القبائل من ذلك الحين تتجمع فى مكان اسمه « شوكة » فى أبها فضيفتهم فى سرادقات أعددتها لاكرامهم ، ووزعت عليهم الأسلحة ، ولأجل تميزهم عن أفراد الأهالى جعلت فى ساعد كل واحد منهم شارة مطبوعا عليها الهلال والنجمة من لون الراية التى تعطى لهم .

ودعوت « البكباشى » زكى بك فألبسته ملابس عربية وسميته أمير الجيوش وو ليته قيادة هؤلاء الجنود العسيريين وجعلت معهم ادارة تعنى مؤونتهم .

وفى يوم ١٦ ابريل سنة ١٩١٢ خرجت من أبها قاصدا شعف ومعى ست « أورط » من المشاة النظاميين وبطارية جبلية « وبلوك متراليوز » معه أربع رشاشات وقوة أهلية مؤلفة من ستمائة جندى من أبناء القبائل ، وتركت فى أبها أمير « الالاى » حيدر بك بوظيفة قائد مدينة أبها ووكيل المتصرف .

وكتبت إلى الاستانة تلغرافا عن الأعمال التى قمت بها وهذه صورته :

إلى وزارتى الحربية والداخلية

فى ٢٤ مايو سنة ١٩١٢ « يوم الجمعة »

علمت بأن بوادر الثورة ظهرت فى تمنية وقحطان وأن الثوار أخذوا يتجمعون فصحبت معى قوة مساعدة من قبائل عسير السراة النازلة حول أبها ومعها مشايخ وقوة مؤلفة من ست « أورط » نظامية فيها ألفان ، فوصلت إلى شعف ، ومنها الى عقبة تمنية المشرفة على وادى ركان ويصعد إليه من وسط مضيق وهى ترتفع عن سطح البحر الأبيض ؟ ألفين وأربعمائة متر ، فسارت جنودنا علّى بنى مالك من بين غابة وصخور صماء فى جبال حجرية ونشبت بيننا وبينهم فى الصباح حرب دامت أربع ساعات إلى أن تغلبت عليهم قواتنا بمساعدة القبائل المنضمة إلينا فاحتللنا القرى ، وفى اليوم التالى نشبت معركة أخرى بيننا وبين الثوار فى سفوح تهامة فشتتناهم . ورجائى عظيم فى أننا متى انتهينا من هذه الجهة سنتمكن ـ بمساعدة القبائل التى يتوالى انضمامها ـ من تدمير المتمردين الموجودين فى عبيدة وشهران والقوز ، وبذلك نطمئن على مصير أبها ونملأ مخازننا بالمئونة من أموال الزكاة ، ثم نقصد « بلحمر » لتمتد منها إلى « بنى شهر » تأمينا للمواصلات مع القنفذة والحجاز من طريقى تهامة والجبل .

وإن من الواجب مكافأة الأشخاص الذين ما برحوا يخدموننا أحسن خدمة فى الحرب التى استمرت منذ سنتين الى الآن . وكنت قدمت للوزارة فى العام الماضى بعد حركات قحطان عريضة ومعها دفتر يتضمن طلباتنا فلم يردنى جواب عليهما مما دلّنى على أن العريضة والدفتر ضاعا فى الطريق ، لذلك بادرت الآن إلى تقديم دفتر آخر مع البريد راجياً تحقيق ما طلبته فيه حريصا على موقفنا فى

عسير ، وكنت اقترحت فى السابق إبقاء « أورطتين » أو ثلاث فقط فى القنفذة وأن يأتينا ست « أورط » نظامية ومدافع ومهماتها وملبوسات والتسعون ألف جنيه التى وعدتمونا بها، فاذا جاءت هذه الأشياء من طريق الجبل فإن مصير عسير سيكون فى طمأنينة ولا تحتاج إلى معونة أحد ويمنع بذلك سراية روح الثورة نحو الشمال . وإذا لم يحدث حادث جديد يبدل موقفنا الحاضر فإنه بوصول القوة التى ستحضر إلينا يمكننا أن نحل مسألة صبيا بشرط أن لا يكون عدد جنود كل اورطة أقل من ثمانمائة جندى ، ومعروضاتى هذه هى مثل كل ما عرضته سابقا مبنية على الحقائق الراهنة وثقوا بأننى لا اكتب شيئا إلاّ إذا وثقت من تحقيقه .

وإنى لأسباب كثيرة أقول : إن قيام الشريف فيصل بك ابن أمير مكة بالاصلاحات التى هو قائم بها فى القنفذة وضواحيها هو عمل لا بأس به . وقد وضعت فى جبل رفيدة مقابل رجال ألمع وفى سوقه وسودة قوة تماثل قوتنا . أما حامية أبها فتتألف من الجنود الضعاف والقطاعات المتخلفة .

متصرف عسير وقائدها : سليمان شفيق

هذه هى البرقية التى أرسلتها إلى وزارة الحربية بعد الاستيلاء على عقبة تمنية فى شعف حرباء ، ذاكرا للوزارة الأسباب التى حملتنى على هذا العمل ، والخطة التى أنوى السير عليها فيما بعد . وفى الوقت نفسه أرسلت إلى القيادة العثمانية فى فرقة الحجاز تقريرا وصفت فيه موقفنا وأحوالنا جوابا على كتاب جاءنى من قيادة الحجاز وصتنى فيه بأن أفتح الطريق بين القنفذة وأبها .

وهذا تعريب تقريرى إلى قيادة الحجاز :

عن معسكر تمنية فى عسير

فى ٢٥ مايو سنة ١٩١٢ ليلة السبت

الى قيادة الحجاز جوابا على كتابها المؤرخ ٧ مايو سنة ١٩١٢

أن الذى نحتاجه الآن ومضطرون إليه ليس فتح طريق القنفذة بل الاكتفاء بالمحافظة على مواقع الجبل التى فى أيدينا ومنع سراية الثورة التى بدرت بوادرها

إن قرارات وأحكاما غير صحيحة تصدر بشأن عسير من الأماكن البعيدة عنها . وكنت فى كتابى السابق إليكم ذكرت لكم بعض التفصيلات فى هذا الباب . فإذا جاءنا من طريق الجبل النقود والملبوسات والقوات العسكرية التى تحتاج إليها عسير فانه لا يبقى حينئذ محل للأفكار التى لا لزوم لها بشأن السوقيات العسكرية وإذا كان فى نية الحجاز أن يساعدنا فعليه أن يلبى طلباتنا فالخدمة الجدية والمعاونة الحقيقية هى هكذا أن موقفنا الحاضر يوجب علينا أن تكون خطتنا من الآن إلى أن تنتهى الحرب الايطالية مبنية على استبقاء القنفذة وضواحيها ، ومنع حدوث هجوم جديد علينا فى القسم الجبلى وأن تبقى هكذا فى عسير منعا لحدوث اتحاد بين بلاد العرب الشمالية وبلاد العرب الجنوبية ، وأن ننقذ الخلافة من الخطر .

هذه هى المعلومات القصيرة والحقيقة عن الموقف الحاضر ، فتوسعوا فيها بذكائكم وفصلوا فى ذهنكم كما تشاؤون . وإذا كان هناك معنى غير مفهوم فهو أن يتصدى البعيدون عنا لدلالتنا الى الطريق ، وأن لا يصموا آذانهم عن سماع صيحاتنا الصادرة عن علم ووقوف . وشر من ذلك أن تساق الدولة إلى الطرق الضالة بأكاذيب وأراجيف حتى تفشل معروضاتنا المحقة التى نرسلها من هنا . وأعجب من هذا وذاك أن تتجاوز السخرية فى الأمر والقيادة عن الحالة التى كانت فى حرب روسيا سنة **١٢٩٣** .

فى الأمس تلقيت ورقة من أمير مكة يقول لى فيها بتطاول وغرور : « إذا لم تستول على محائل مرة أخرى فإن المسئولية تقع عليك وسوف لا أمد لك يد المعونة فى أبها » ومن هو الأمير ؟ إن احترامنا الشخصى له قد حمله على أن يجعل لنفسه صفة الرياسة والامارة علينا ، فيا لها من جرأة : إن وزارة الحربية نفسها لاتستطيع أن تتدخل فى شئون جيش حربى مستقل وفى أعمال قيادته . إن الحكم الدستورى الحاضر قد قرر لكل رجل صفته وسلطته . ولو كانت الحال الحاضرة مساعدة على المناقشات الشخصية لكنت أرسلت لدولة الشريف الجواب اللازم ، ولكن الوقت غير مساعد ، فآثرت كسر عزة نفسى فاخترت السكوت لأجل دولتى

ووطنى وبطبيعة الحال أن الورقة التى جاءتنى من الشريف لا حاجة إلى تسجيلها رسميا .

إن دولة مصطفى ذهنى باشا والى الحجاز الجديد من أسرة كريمة ، وقد كان بين المرحوم والدى وبين والده وعمه صداقة قديمة . وهو من ذوى الفضل والكمال . فأرجوكم باسم سلامة الوطن والأمة أن تطلعوه على كتابى هذا وأن تقوموا معه بالمساعى اللازمة بشأن عسير . فإن من الواجب علينا فى كل وقت أن نفهم الدولة حقيقة الحال ، والوقت الذى نحن فيه ليس وقت مجاملة ومسايرة .

إن أمير مكة يحاول الاستفادة من الفوضى الحاضرة ليعمل لحسابه ، ويؤسس لنفسه نفوذا فى عسير وليس فى الامكان والحالة على ما هى عليه أن ينزل محمد على باشا الموجود الآن فى أبها الى القنفذة ، وليس من الجائز أن يبقى جندنا الذى فى القنفذة فى أيدى الأدلاء ، فاذا أرسلتم من الحجاز ضابطا كبيرا بسرعة ليتولى قيادة قطاعاتنا التى فى القنفذة فإن فى ذلك صلاحا لشئون عسير .

وقد جمعت من قبائل عسير قوة لمساعدة الجيش وعليها مشايخها وسرت بها ومعى ست « أورط » وأربع « متراليوز » ست مدافع قاصدا بنى مالك فى تمنية التابعة لشعف لأنهم جاهرونى بالانضمام الى الادريسى وقالوا انهم سيقابلون نصائحى بالرصاص ، فاستوليت على ديارهم حربا وطردتهم الى تهامة واحتللت بيوتهم . وبعد أيام سأسير الى قبائل عبيدة والقود وبلحمر التى جاهرت بالثورة أيضا ، وبذلك سأسعى لتأمين المواصلات بين القنفذة والحجاز من طريقى الجبل وتهامة . وكونوا واثقين بأننا لو لم نقم بهذه الحركات التى اضطررنا لها اضطرارا لاتسع الخرق علينا وعمت الثورة جميع انحاء الجبال أيضا حتى يصل إلى الحجاز البلاء الذى تخشون وقوعه لأن قبائل يام وشريف وسخام كلها عازمة على الانضواء تحت لواء الادريسى وأن توحد حركاتها مع حركات سائر القبائل الثائرة ، وحينئذ يكون الخطر الذى تخشون أن يداهم الحجاز من جهة تهامة سيداهمها من جهة الجبال نفسها . فالجبال ليست روح هذه البلاد بل المشرفة على تهامة . والمسألة مسألة دولة وأمة ، فيجب أن لا تتلقون شكاوى كأنها قصة

تاريخية واذا استعرضتم الحوادث كلها بانصاف تحكمون بأن الدولة كانت تنظر الى شئون عسير نظرا للمسامحة والتعاون ، وأصغر مثال على ذلك أن ولاية الحجاز الكبرى وقيادتها لم ترسل لنا نجابا واحدا رأسا منذ ابتداء الحرب الايطالية ، فهل يمكن أن يقال أن ذلك مستحيل عليها وما دام رسلى ذاهبون إليكم وآيبون ، فلماذا لا يكون لكم انتم أيضا رسل يأتون إلينا ، أما كان يجدر بكم أن تجعلونا فاهمين ما يجرى فى الدنيا ولو بارسال « التلغرافات » العمومية إلينا . وفى المرة الماضية أرسل ضباطنا بواسطتكم حوالة إلى عائلاتهم ، وهم فى ضيق صدر من عدم تطمينكم لهم عن وصول الحوالةوارسالكم إياها إلى أصحابها .

وفى الختام أرجوكم أن تذكروا دائما وأن لا تنسوا الواجبات الوطنية المقدسة ، فالأمة تنتظر من كل منا فى يوم من الأيام أن نقوم لها بخدمة نضحى فيها الحياة والمصالح .

متصرف عسير وقائدها : سليمان شفيق

لقد علم القراء أسباب الحركة التى قمنا بها على تمنية فى شعف وانتهت بالاستيلاء على تمنية وانسحاب أهلها إلى تهامة ؛ لأننا أتينا على ذكر ذلك فى الرسالتين اللتين أرسلت احداهما إلى وزارة الحربية والثانية إلى قيادة الحجاز بتاريخ ٢ مايو سنة ١٩١٢ ، وقد تقدمتا ، أما تفصيل هذه الحركات فهى أننى حضرت إلى بقعة « آل امقزع » الواقعة تحت نجد تمنية ومعى القبائل المتطوعة تحت قيادة مشايخها والجنود النظامية ، ولم يعترضنا أحد فى طول ذلك الطريق إلى أن نزلنا فى آل امقزع وبعد الاستيلاء على النقط المهمة من الوجهة العسكرية كتبت كتابا الى حمود شيخ مشايخ تمنية وأرسلته بواسطة المشايخ الذين معى ، وقد اعطيته فيه الأمان والوجه ودعوته للحضور عندى فاعتذر بانحراف صحته وقال : أنه لا يستطيع الحضور ونصح لى بأن لا أصعد إلى فوق لأن القبائل فى حالة ثورة وهياج . وفى الواقع علمت من تلك الجهات أن الحزون والغابات التى تؤدى الى صحن تمنية وطولها ساعة ونصف ساعة قد استولى الثائرون على النقط المهمة منها ..

وكنت لما جئت إلى هذه الجهات فى العام الماضى قد استكشفت أحوالها الطبيعية وعلمت أن فى اتصال آل امقزع الى الجنوب جبلا مشرفا على صحن تمنية وكنت قد رسمت خريطته وهو كثير الحزون والغابات ولا يستطيع صعوده غير المشاة فعزمت على ارسال قوة إليه ومحاولة الاستيلاء منه على تمنية .

وفى صباح الليلة التالية ليوم وصولى إلى امقزع قامت كتيبة من الجيش النظامى ومعها المتطوعة وجنود « الجندرمة » فسارت من يسار آل امقزع نحو مضيق تمنية واعطيتهم أمرا مقفلا بأنهم اذا اقتربوا من المضيق يأخذون بلفت نظر الثائرين نحوهم بصورة غير جدية وذلك بأن يتعاطوا طلقات الرصاص على التراخى معهم لتجتمع جموعهم عند المضيق وينتظرون بعد ذلك الأوامر التى ترد إليهم منى . وبعد أن توجه هؤلاء من تلك الجهة ليحولوا قوة الثائرين نحوهم انتخبت من بين ضباطى وجنودى خمسمائة رجل من أقواهم وأنشطهم وسرت معهم قبل شروق الشمس بسكينة واختفاء قاصدين الجبل المشرف على تمنية ، واستطعنا أن نقطع مسافة طويلة دون أن ينتبه لنا أحد من الثائرين غير أننا لما لم يبق بيننا وبين ذروة الجبل غير بضعة مئات من المترات انتبه لنا نحو عشرين أو ثلاثين رجلا من خفراء الثائرين ، إذ سمعوا وقع أقدام الجنود وانحدار الأحجار تحت أرجلهم ، فأطلقوا الرصاص علينا وجعلوا يرموننا بالأحجار ، فقابلناهم بنيران شديدة جدا اضطرتهم إلى الأنسحاب من أمامنا ، فوصلنا ذروة الجبل بلا خسائر .

وأشرفنا من ذرو الجبل على قرى تمنية والمضيق المؤدى اليها وكانا منا على مسافة كيل ونصف فأمرت بضعة جنود أن يضربوا معا بالنفير اعلاما لجنودنا الذين على مقربة من مبتدأ المضيق بأن يتقدموا ، وأخذنا نطلق النار بشدة عظيمة على الثائرين الذين فى مقابلتهم، فدهش الثائرون الذين يتولون الدفاع عن المضيق ولم يعلموا ماذا حل بهم ولا من أين يمطرهم الرصاص فاضطروا إلى الانسحاب، فاجتازت قوتنا ذلك المضيق بلا حرب حتى وصلت إلى أمام قرى تمنية وجعلت تطلق قنابل مدافعها على الثائرين الذين فى الأكم الواقعة جنوبى

القرى ثم هجمت على القرى فاستولت على خمس منها ، وكنت أرى بالنظارة من ذروة الجبل دخولهم إلى القرى وركزهم الأعلام على سطوح المنازل . وحينئذ تركت على الجبل « بلوكا » واحدا للمحافظة عليه ونزلت ببقية القوة معى من بين الغابات الى قرية « آل أمينفع » الخاصة بالشيخ حمود واتخذت منزله مقرا للمعسكر . وفى اليوم التالى نشبت معركة خفيفة بيننا وبين الثائرين الذين هاجموا القرى من وادى ركان فلم يثبتوا أمامنا وعادوا إلى تهامة . وبذلك قضينا على ثورة جديدة كان ينتظر نشوبها فى هذه الجهات ولما رأى بعض مشايخ قحطان سهولة استيلائنا على قرى تمنية التى تعد منيعة رأوا أن يستمروا على موالاتنا فجاءوا لزيارتى .

وشاع فى تلك الأثناء أن الادريسى أرسل من صبيا قوة لاسترداد قرى تمنية من أيدينا ، وأن هذه القوة آتية من طريق وادى بشر ووادى ركان ، حتى أن المشايخ الذين معى نصحوا لى بالانسحاب من هذه الأماكن والعودة إلى أبها فأجبتهم أننى إذا خرجت من هنا لا أعود إلى أبها ولكننى أتقدم نحو تهامة لاستقبال القوة القادمة ، وعلى كل حال فما دامت هذه الأخبار عبارة عن اشاعة فالأفضل أن أنتظر هنا حتى تصل تلك القوة وإنما أجبتهم بذلك لعلمى أن هذه الاشاعة مقصودة ويراد بها جس نبض لمعرفة ما يكون من وقع مجيء مثل هذه القوة فى نفسى .

بقيت فى تمنية أكثر من عشرين يوما ، وفى ذلك الحين كتبت كتابا الى قبائل الجهرة التى فى وادى ركان أقنعها فيه بأن الادريسى متفق مع الايطاليين وأنه هاجم القنفذة كما هاجموها . وأن من الحكمة أن لا يصدقوا الاشاعات التى تنتشر فى البلاد . وانما أردت بكتابى هذا أن أعرقل مساعى الادريسى فيما لو كان حقيقة يريد أن يرسل قوة لاسترداد قرى تمنية . وقد اخذ بعض أهالى تمنية ومشايخها يعودون الى قراهم بناء على الوجه والأمان اللذين اعطيتهما لهم، ولكن زعيمهم الشيخ حمود ظل مصرا على المقاطعة . والتحقت بنا مشايخ رفيدة اليمن مع شوكتها « أى جيوشها » وكذلك حسين بن حيف من مشايخ قحطان وحسن بن

عبود شيخ زعى وسعيد بن مشيط نجل عبد العزيز بن مشيط شيخ مشايخ شهران فكنت استقبلهم باطلاق المدافع لهم حسب مراتبهم وجاءتنا الزكاة فكنا نرسلها الى المركز.

وفى صباح يوم الجمعة ٤ يونيو أخرجنا أثقالنا من تمنية وأرسلناها إلى آل أمينفع التى تحت العقبة ثم باشرنا الحركة من هنا وبقى وراءنا « بلوك » من الجنود المحافظين إلى أن اجتازت قوتنا كلها ذلك المضيق . « وبعد أن تم الجلاء سرت أنا مع القوة المحافظة فى مؤخرة الحملة ، وكانت تتناثر علينا طلقات الرصاص من أطراف الجبال ، غير أننا كنا قد استولينا على النقط العسكرية المهمة بكتائب سيارة فلم يلحقنا كبير ضرر أثناء رجوعنا فكل ما فقدناه قتيل واحد ولما وصلنا بالسلامة إلى « آل أمينفع » لبثنا فيها ثلاثة أيام ، ثم توجهنا إلى « رفيدة اليمن » فمررنا بقرى « آل أمبطحا » و« آل عامر » و« السر » ثم هبطنا مضيق العقيرة إلى منزل حسين بن حيف فى زعى ووزعت عسكرى فى قرى زعى وكنت فى العام الماضى قد جئت إلى هذه الجهات وإنما جعلت مرورى من هنا مرة أخرى لما كنت أتخوفه من نزوع أهلها فجعلت مرورى عليهم من قبيل الإرهاب .

وفيما أنا فى الطريق جاءتنى رسالة من محمد على باشا الموجود فى أبها يقول فيها : أن الأخبار بلغته بأن رجال ألمع يريدون المجىء من طريق « محائيل » إلى وادى تيه قاصدين « شعار » للهجوم على « أبها » وهو يُستَحْسِن أن أعود بقوتى إلى المركز فى الحال . فأجبته أن ذلك غير ممكن . ومع ذلك فإن الخطة التى رسمتها لسيرى هى أن أتوجه نحو الغرب ماراً بشهران إلى شعار لزيارة قبائل بلحمر وبلسمر، وعلى ذلك فأكون فى شعار بعد خمسة أيام أو ستة أيام . فإذا صح ما يشاع وقصد الثائرون موقع شعار للهجوم منه على أبها فانى سأكون عندهم بعد بضعة أيام ومعى شيوخ قبائل جبل عسير ، وكل ذلك مما يحول دون وقوع ما يخشى وقوعه .

وبعد إقامة يومين فى زعى قصدت شهران من المضيق يوم ١٧ يونيو فوصلنا إلى بلدة ذهبان مركز شهران ، والمسافة بين أقصى الغرب من قرى زعى أى من أكمة

حمومة إلى شهران أربع ساعات ونصف بسير العسكر والأرض صحراء مستوية منبتة كثيرة الخصب .

ونزلنا فى ذهبان ضيوفا فى المنزل الفخم الخاص بالشيخ عبد العزيز بن مشيط وفى اليوم التالى أرسلنا الأخبار إلى مشايخ القود وهم فى شمال ذهبان ولم يسبق لهم مساعدتنا فأجابوا الدعوة وحضروا بعد يومين مع جميع مشايخ شهران ومعهم المتطوعة من البدو فبلغ بذلك عدد المتطوعين ألف رجل .

لما أقمت فى ذهبان ـ قاعدة مقاطعة شهران ـ بضعة أيام أخذت أطوف فى أرجاء تلك الجهة محاولا الحصول على معلومات جديدة عن الأراضى والبلاد وتعرف جهة « ذهبان » باسم « خميس مشيط » لأن الأهالى يجتمعون فيها كل يوم خميس ، فيقيمون سوقا كبيرا للبيع والشراء ، ويتولى شيخ مقاطعة شهران المحافظة على النظام فى هذه السوق الواقعة على طريق حجاج اليمن إلى مكة .
ومن عادة سكان جبال اليمن إذا أرادوا الحج أن لا يأتوا من جبال بلادهم إلى تهامتها ليركبوا البحر من الحديدة إلى جدة ، وذلك لأن أهالى الجبال زيديون وأهالى تهامة شافعيون فقلما يتفق الفريقان؟. لذلك يذهب حجاج جبال اليمن فى موكب يجمعهم عند صنعاء فيسيرون إلى الشمال الشرقى من طريق الجبال حتى يخترقوا بلاد عسير من جبالها أيضا قاصدين الحجاز . والبلاد الواقعة فى طريقهم هى « الطويلة » و « حجة » و « سودة » ثم « وادعة » من بلاد « صحار » ثم « صعدة » ومنها إلى « ضحيان وأقم » التى يسكنها بنو جماعة . ويمرون فى بلاد « سنحان » بأرض « الحرجه » ومن بلاد شريف ببنى طلق ومنها إلى عسران فى عبيدة ودرب سليمان فى بنى بشر حتى يصلوا إلى « ذهبان » قاعدة « شهران » التى هى موضوع بحثنا . ومنها إلى « أبى البطانة » وفيها ثلاث آبار ثم إلى « الغربية » وفيها أربع آبار ثم إلى « ملاح » وفيها آبار وحفائر وبعدها « بيضان » وفيها ست آبار وبعدها « وادى بيشة » ومنه إلى « الباردة » الواقعة على « وادى أكلب » وفيها بئران ومنها إلى قرية « رانية » وبعد مرحلتين يصلون إلى « بطن كرا » وبعده « وادى تربة » وبعده « ناحبة » وفيها بئران وحفائر

وبعدها « قيا » وبعدها « المضللة » وفيها قرى متعددة وبعدها «بسل» وبعده « لية » ومنها إلى الشرق بلدة « الطائف » وبعد ذلك « الحيفر » ثم « المحرم » و « السيل » ثم « الزيمة » وبعدها « مكة » .

ولما كنت فى ذهبان اتفق وصول الحجاج إليها من اليمن فلبثوا ينتظرون اجتماع حجاج عسير . وبعد بضعة أيام اجتمع الموكبان وسارا قاصدين الأراضى الحجازية ، فعهدت بإمارة حجاج عسير إلى ابن الشيخ عبد العزيز شيخ مشايخ شهران وأعطيته بعض الأسلحة والذخيرة وعزمت على أن يكون الحجاج العسيريون فى الموسم القادم أحسن حالا ، وأكثر انتظاما .

ومنطقة ذهبان تحتوى أراضى صالحة للزراعة مساحتها نحو أربعين كيلا من الجنوب إلى الشمال ، غير أن الأهالى لا توجد عندهم الآلات المساعدة على رفع المياه لذلك يختارون دائما الأراضى المنخفضة فى مجرى الوادى فيزرعونها لأن المياه توجد فى آبار لا يزيد عمقها على بضعة أمتار فيستقون منها على جمالهم وفى موسم الأمطار يستفيدون من ماء السماء .

ولما كنت أتنقل فى صحراء ذهبان لفت نظرى أمر فى منتهى الأهمية . فقد رأيت مرسوما على أرض الصحراء خطوطا منتظمة طويلة جدا على امتداد بضعة أكيال وكل خط مواز للآخر موازاة تامة ، فنزلت فى الحال عن جوادى وأخذت أتأمل فى هذه الخطوط فرأيتها عبارة عن أسس حجرية منتظمة مما يدل على أنها كان فوقها جدران ، فأخذت أقيس المسافات التى بين كل جدار وآخر فوجدتها مسافات متساوية تماما وهى أربعون مترا بين الجدارين . والمرجح عندى فى تعليل ذلك أن هذه البلاد لما كانت بلاد حضارة عظمى فى الأزمنة القديمة كانت مكتظة بالناس وكان للأراضى الزراعية أهمية كبرى عندهم ، فكانوا يفرقون بين المزارع والحدائق بجدران تهدمت وبقيت أسسها . وأنا لا يخامرنى أدنى شك فى أن حضارة عسير أقدم جدا من حضارة اليمن ، ولكنها توارت فى ظلمة التاريخ ، وفى اعتقادى أن سبب اندثار حضارة عسير كونها فى طريق الأمم الآسيوية التى كانت تهاجم اليمن . ثم تناقصت نفوسهم بعد ذلك فى صدر الإسلام لأن أكثر الجنود القحطانية التى كانت تملأ جيوش الفتح فى آسيا وأفريقيا كانت من أهل

عسير ، وكانوا كلما فتحوا قطرا توطنوا فيه فلا يعودون إلى بلادهم .

وشاهدت على أكمة فى جوار قرية « مشيع » الواقعة بين أبها وذهبان - وهى أقرب إلى أبها منها إلى ذهبان - صورة غزالة وابنها مرسومين على صخرة مربعة طولها ثلاثة أمتار ذات وضع شاقولى : ولما وقفت أمام الصورة لأمعن النظر فيها رأيت الصخرة من نوع الغرانيت الأملس ، والصورة فنية ومتقنة جدا ، وهى ليست مجوفة أو ناتئة ، وإنما ظهرت للأنظار لاختلاف اللون فى خطوط الرسم عن لون الصخرة ، فالرسم ذو لون قاتم ولون الصخرة مشرق ، ومعنى ذلك أن الرسم كان ناتئا فى الأزمنة القديمة ثم ذهبت عوارض الطبيعة بنتوئه فصار بمستوى الصخرة ، وللقارىء أن يقدر فى كم ألف من السنين يمكن لنتوء حجر الغرانيت أن يزول .

وأن دقة الصناعة فى هذا الرسم تدل على مبلغ عراقة سكان عسير الأقدمين فى الحضارة .

وفى جبال عسير غابات من المحقق أنها نبتت فى الأزمان القديمة على سدود مدرجة أنشئت لرى الأراضى الزراعية .

ولا ريب أن غابة من فصيلة الصنوبر تحتاج إلى أزمان طويلة جدا حتى تنبت فى حقول متروكة . وفى ظنى أنه إذا ذهبت لجنة علمية إلى عسير للحفر فيها والتنقيب والأبحاث العلمية تستطيع أن تحصل على آثار ومعلومات جليلة جدا لتنوير هذا الجانب من التاريخ القديم.[1]

ولما كنت فى ذهبان قبل أن أستعد للحركة نحو الشمال تلقيت رسالتين إحداهما من عزت باشا القائد العام لجيوش اليمن ، والثانية من قيادة فرقة الحجاز . والى القراء الرد الذى كتبته على كل من هاتين الرسالتين ، وسأعلق على ذلك بآرائى فى هذا الشأن .

إلى القيادة العامة لجيوش اليمن ، فى ١٧ يونيو سنة ١٩١٢ تلقيت منذ بضعة أيام أمركم المؤرخ ١٢ ابريل سنة ١٩١٢ وقد تأخر وصوله إلى يدى حتى الآن

---

(١) حبذا لو قام وكيل وزارة المعارف للآثار الدكتور المصرى ببعث لجنة اثرية للكشف والتحرى

بسبب بقائى مدة شهرين فى أرض قحطان بمناسبة الحركات الأخيرة، ولو وصل أمركم إلى يدى قبل الآن لأدخلت تعديلات على كتابى المؤرخ ٢ يونيو سنة ١٩١٢ جوابا على كتابكم السامى المؤرخ ١٠ مايو سنة ١٩١٢ وعلى كل حال فإن ما عرضته على أنظاركم أولا وآخرا لا زيادة فيه ولا نقصان وهو الحقيقة بعينها. إننا لم نقم بحركة ما على رجال ألمع فى شهر فبراير، ولم يهرب أهالى رجال ألمع من بلادهم ولا حدثت أية فوضى أو اختلال فى نظام الجنود وطاعتهم. الذى حدث يومئذ هو أن محمد على باشا الذى كان موجودا فى محائل قام بحركة على « قنا » من أعمال محائل وتبعد عنها ست ساعات وأخذ معه « أميرالا لاى » حيدر بك والبكباشى زكى بك الشركسى والبكباشى زكى بك الكردى وخمسمائة جندى من المشاة وبعض المدافع والرشاشات، وقد فعل ذلك دون أن يأخذ رأيي. ولما اقترب من قرية السيد مصطفى حتى صار منها على مرمى المدفع هاجمه الثوار بمظاهرة أجروها بجنبياتهم « خناجرهم » فخاف منهم وقرر الرجوع بلا حرب، فقال له القواد الذين معه: إن الرجوع سيزيد الثائرين عتوا وجرأة بحيث لا يستطيع الجيش البقاء فى محائل نفسها ولكنه لم يصغ إلى نصائحهم وانسحب راجعا إلى محائل تحت جنح الليل. ومن ذلك اليوم أصبح السيد مصطفى ذا قوة وسطوة وزحف بالثوار إلى الأمام حتى نزل أمام بلدة محائل، وسرت العدوى إلى رجال ألمع فثاروا أيضا وانقطعت الطرق وصار الثائرون يكبسون محائل فى الليل. وهذه هى الحقيقة. والأمر الذى أنا آسف له هو أن الحجاز تحاول مخادعة العاصمة قائلة أنها أمسكت رهائن من زعماء رجال ألمع وحلفتهم يمين الطاعة للدولة حتى صاروا موالين لها.

ومن جهة ثانية تذهب الأخبار بأن قوة صغيرة استولت على رجال ألمع وهرب أهلها وأن الانتصار كاد يتم لولا عصيان الجنود. ويراد بهذه الأساطير تصغير شأن مسألة رجال ألمع وتأويل صراخنا بأنه ناشىء عن الجبن والوهم منعا لقيام الدولة باستعداد حربى. أن مسألة عسير ما برحت هكذا يخالط أمور الجد فيها أعمال كاذبة فتختفى الحقائق عن الأنظار وبينما دولة الشريف عاجز عن إيصال

البريد إلى عسير ينتحل لنفسه نفوذا ماديا وأدبيا ليستفيد من وراء ذلك ويرسل الحشرات من رجاله أمثال الشريف شمبر فيظهرهم بمظهر الموظفين ليسعى بواسطتهم إلى استمالة القبائل نحوه ، ونحن نتلقى الأوامر بأن نساعد هؤلاء المتشردين ، أين هم هؤلاء الموظفون ؟ وأى منطقة استطاعوا أن يستميلوا أهلها أو يستطيعوا أن يستميلوهم .

هذه هى مناطق « غامد » و« زهران » و« بنى شهر » و« القنفذة » كل هذه المناطق فى حالة ثورة بحيث لا يمكن مرور البريد فى أراضيها ، وهذه مناطق « محائل » و « صبيا » و « رجال ألمع » و « أبى عريش » كلها فى أيدى الثائرين ، أما قاعدة البلاد التى نحن فيها فالذى نتصرف فيه منها لا يتجاوز مرمى مدافعنا وبنادقنا . وعلى ذلك ينبغى القضاء على مثل هذه السفاسف والألاعيب وأن تنظم أمورنا تنظيما جديا . إن قسم الجبل فى عسير هو روح عسير فما دامت الدولة موجودة فى الجبال فعسير فى يد الدولة وإذا أريد إجراء حركة مؤثرة على صبيا فأصلح مركز لهذه الحركة هو قسم الجبال . وما دامت الجبال فى يدنا فإن ثورة الجنوب لا تسرى إلى الشمال . وقد تلقيت من قيادة الحجاز مذكرة تاريخها ٣ يونيو سنة ١٩١٢ تقول فيها أنه لايمكن إرسال حبة واحدة إلى أبها من طريق الجبال ، وهى تطلب منا أن نؤسس خط تموين لأجل فتح طريق القنفذة « وهذه الوصية ملهمة إلى قيادة الحجاز من أمير مكة » مع أنه ليس من الممكن تأسيس خط تموين بين القنفذة وأبها ولو كان عندنا الجند الكافى لحماية مثل هذا الخط لكننا نحل مشاكل الجبل كلها بل كنا نحاول حل مسألة صبيا نفسها . ثم أنه ليس بين أبها والقنفذة مراكز صالحة للتموين حتى نضع فيها الجند لحماية هذا الخط . وإذا وضعنا الجند فى العراء يبيدون فى وقت قصير بالعوامل الجوية وهجمات الثوار . وأن محائل مع وجود مبان فيها يأوى الجند إليها أصبحت « الأورط » التى لنا فيها معطلة عن كل عمل بعد أن بقيت فيها بضعة أشهر .

إن القوات التى جيىء بها إلى القنفذة لتأمين المواصلات البحرية قد أبقى منها فى القنفذة نحو ثلاث « أورط » وجىء بالباقى مع مدافعهم وذخائرهم

وملبوساتهم ومخصصاتنا من النقود عن ستة أشهر . فلما وصلوا إلى بنى شهر أخرجوا إلى « النماص» . وبما أن المواصلات بين هناك والقنفذة أو الحجاز ممكنة فالمرجو صدور أمركم بإجراء ذلك .

أما القوة التى فى القنفذة فلا يعرف لها الآن آمرا يتصرف فيها وفى الإمكان أن تكون بمعية الشريف فيصل بك ابن الأمير ، إما فى القنفذة أو فى القوز بشرط أن يقتصر على القيام بوظيفة تأمين المواصلة بين القنفذة ومكة فقط وأن لا يمكن من التدخل فى أمور أخرى لما يترتب من الخطر على تدخله فى غير ذلك من الأمور واذا أجيز له التدخل فى أمور أخرى فإنى لا أوافق على ذلك قط ولا سيما اذا تدخل فى شئون القسم الجبلى من عسير . وإنى فى نهار غد عازم على القيام من شهران إلى بلحمر ومعى متطوعة البدو ومشايخها لأحل مشكلة بلحمر إما سلماً أو حرباً ثم أجتاز بلحمر وبلحارث إلى النماص مركز بنى شهر لتأمين المواصلات بين القنفذة والنماص وبنى شهر وأختتم كتابى مسترحما بقاء توجيهاتكم راجيا أن تحملوا على محمل الإخلاص ما فى هذا الكتاب من العبارات التى كتبتها وأنا تحت تأثير الانفعال ـ مولاى .

عرضت على أنظار القراء فى المقال السابق تعريب كتابى المؤرخ فى ١٧ يونيو سنة ١٩١٢ إلى عزت باشا قائد القوات العمومية فى اليمن جوابا على كتابه المؤرخ ١٢ ابريل سنة ١٩١٢ وإن كتاب عزت باشا يتضمن البحث فى مسألتين هما اللتان تعرضت للجواب عليهما فى كتابى . وأرى الآن أن ذلك يحتاج إلى شىء من الإيضاح زيادة على ما ورد فى رسالتى . يقول عزت باشا إن محمد على باشا الموجود فى محائل قام بحركات عسكرية على رجال ألمع بينما هو على أهبة الحصول على النصر التام ورجال ألمع فى حالة الانهزام تمردت جنود الرديف فلم يتمتع محمد على باشا بثمرات انتصاره . ويقول : أن أمير مكة قد أخذ العهود والمواثيق على حجاج رجال ألمع بموالاة الدولة وأصبح أهالى تلك الجهة فى حالة الطاعة للحكومة . وكأن عزت باشا يريد أن يقول ضمنا : فلماذا أنت متلكىء حتى الآن فى احتلال بلادهم بعد أن دخلوا فى دائرة الطاعة ؟ فأجبته فى رسالتى بكل

صراحة قائلا : لا محمد على باشا قام بحركات عسكرية ناجحة على رجال ألمع ، ولا أمير مكة حصل على عهود ومواثيق منهم برضوخهم لطاعة الحكومة . فالمعلومات التى أرسلها كل من محمد على باشا وأمير مكة إلى الباب العالى وقيادة اليمن العامة إنما هى معلومات غير حقيقية ومبنية على المغالطة . أما أمير مكة فأراد بما كتبه إلى الباب العالى أن يدلل على عدم كفاءتى ليتوصل إلى تنحيتى عن عسير وينفذ برنامجه فى وضع يده على جميع شئون هذا القطر . وأنا كنت فاهما ذلك حق الفهم فعزمت على الوصول إلى أحد شيئين : إما أن أنفذ رأيى تماما دون أن أصغى إلى أحد ، أو أن أنسحب من عسير انسحابا شريفا بعد كل ما حصل لى من الملل والسأم وصنوف الشظف والحرمان فى أربع سنوات ونصف قضيتها فى عسير . لذلك آليت على نفسى أن أرمى إلى ذكر ما أراه الحق فى كل ما أكتبه للمقامات العالية ، وقد أدى ذلك إلى أن استعمل العبارات القاسية فى بعض الأحيان .

بعد أن انتهيت من أعمالى فى ذهبان مركز مقاطعة شهران توجهت إلى الشمال الغربى ومعى قواتى العسكرية والجيوش المتطوعة وعلى رأسها مشايخها ، فمررت بأرض بنى شداد وبنى مشبة وقرية مجزعة وتسلقنا « عقبة شعار » ثم « عقبة درجة » حتى وصلنا إلى قرية « عبل » فى بلحمر ، فوزعت جنودى على القرى المجاورة فى تلك الجهة ثم نشرت بيانات على أهالى بلحمر قلت لهم فيها أن كل ما حصل فى الماضى مغفو عنه فمن أتى طائعا للحكومة فهو آمن وعلامة الطاعة أن تجمع لى قبائل بلحمر مقدارا من المتطوعة أوزع عليها الأسلحة والرايات وتضمن الدولة تموين هؤلاء المتطوعين . وكل ما تعطيه القبائل للعسكر والمتطوعين من الغلال والمؤن أحسبه من زكاتها وأدفع لهم وصولات رسمية بذلك . واذا أخذ الجنود أو المتطوعة أى شىء من الأهالى بدون أن يعطوهم وصلاً به فيجب على المأخوذ منه أن يخبرنى بذلك . فلبّى أهالى بلحمر هذه الدعوة والتحقوا بى .

وأراضى بلحمر تمتد من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى وفى شمالها أراضى بلسمر وبنى مالك وفى غربها وادى تيه وفى جنوبها أبها وفى شرقها شهران

وتبتدىء أراضى بلحمر من الشمال الشرقى لعقبة شعار وهى أراضى جبلية منيعة وجميلة ومملوءة بالغابات ويمتد طولها خمسة وثلاثين كيلا .

وأهاليها طوال القامة [١] والبشرة ذوو شعور كثة ويشبهون سكان الهند الشمالية ويمكن تمييزهم فى الحال عن سائر أفراد القبائل . وفى بلحمر من الجهة الشرقية لوادى تيه توجد عقبتا « نخلين » و « هبهبة » اللتان مر ذكرهما فى المقالات السابقة وفيها أيضا عقبتا « بعرور » و « فصحة » وهما من العقبات التى يسهل على المشاة ارتقاؤها .

وجبال بلحمر تفصل مياه السيول الى الشرق وإلى الغرب فالذى ينحدر منها إلى الغرب ينصب فى وادى تيه والذى ينحدر منها إلى الشرق ينصب فى وادى شهران وفى ٢٥ يونيو سنة ١٩١٢ قمنا من قرية عبل قاصدين خط تقسيم المياه فى جبال بلحمر وبعد أربع ساعات وصلنا إلى عقبة نخلين ونزلنا فى قرى صباح الواقعة فى ذرى هذه العقبة فاخترنا قرية المشاعرة لنزولنا .

وأراضى بلحمر اجتازها دولة الشريف حربا . وكانت له معارك مهمة فى قرى صباح حتى أن قرية المشاعر هذه قد التهمتها النيران أثناء تلك الحرب .

ولمّا كانت هذه الجهات جبلية ذات ميل تدريجى وفيها بعض الغابات والمياه فهى من المواقع الجميلة حقيقة . وفى صباح اليوم الثانى ٢٦ يونيو قمنا من هنا قاصدين عقبتى « الجعد » و « عنقة » وفيها غابات ولكن لا يصعب مرور المدافع والجمال منها ، فمررنا بقرى العامل والكامل وعبالة وبعضها عن يميننا وبعضها عن يسارنا وبعد ساعتين وصلنا إلى بيحان فاسترحنا فيها ساعة ونصف ساعة ثم استأنفنا السير فوصلنا إلى بلسمر بعد ثلاث ساعات ونزلنا فى قرية « المصفى » وأنزلنا بعض الجند هنا وبعضهم فى قرية المخريم الواقعة بعدها بساعة ونصف وأما « بلوك » الرشاش فأنزلناه فى قرية البطن التابعة لبنى قاعد وهى بعد المخريم بساعة وواقعة فى واد زمردى جميل . أما أنا فلبثت فى المصفى نحو ساعتين

(١) هكذا فى الأصل .

تناولت فيها الغداء ثم انتقلت إلى المخريم ومنها إلى البطن فنزلت ضيفا فى منزل شيخها .

وسبب نزولى فى « المصفى » هو أن علي بن محمد شيخ مشايخ بلسمر هو من سكان المصفى .. كان متواريا مثل جميع مشايخ هذه الجهات وعلي بن محمد هو من أشهر الرجال هنا وهو متقدم فى السن . فأردت من نزولى الى المصفى أن أترك له ولسائر المشايخ بيانا يتضمن عهد الأمان لهم وأذكرلهم ولجميع الأهالى أنه ليس هنالك داع يدعو إلى تواريهم من وجوه الجنود وأن فى إمكان الجميع أن يعودوا الى أعمالهم بكل اطمئنان .

وعلى اثر ذلك التحق بى سعد بن على شيخ صباح ومثيب بن يوسف شيخ بيجان ، وجرمان بن على نجل شيخ المصفى وحضر معهم جماعة من رجالهم .

وفى ٢٧ يونيو سنة ١٩١٢ انتقلنا من هنا الى عقبة حظوة فوصلناها بعد ربع ساعة ولبثت فيها مدة أنتظر تجمع الجنود . وأن الأراضى التى بين بيجان وعقبة حظوة ذات ميل قليل وفيها غابات كثيرة تزين الجبال ومياه تجعل الوديان لطيفة تنسى الانسان أنه فى جزيرة العرب .

وإذا انحدر الانسان من عقبة حظوة يفضى الى واد ذى جمال شعرى عجيب يمتد نحو ساعتين بين جبال قريش المزينة بصنوف الأشجار وأنواع الزهور الجبلية ، التى يفعم النسيم شذا عطورها الطيبة ومن تحتها تجرى مياه ليست غزيرة ولكنها صافية براقة .

وبعد أن اجتمعت جنودى تركت منها على عقبة حظوة « بلوكا » واحدا من الجنود النظامية المشاة ومعه « الجندرمة » المحلية وبعض المشايخ وانحدرت مع بقية القوة إلى الغابات التى ذكرتها آنفا ، وما زلنا سائرين مدة ساعتين حتى وصلنا إلى قرى « سدوان » وهى من المواضع التى حارب فيها دولة شريف مكةوقد أحرق بعضها فى تلك المعارك . ولم نقف فى سدوان بل واصلنا السير بسرعة فقطعنا متون جبال قريش بالعرض بين أشجار قليلة فوصلنا إلى صحراء

تنومة . ومن متون جبال قريش تراءت لنا سوق السبت . وهذه الجهات كثيرة المياه جميلة المنظر ، لطيفة الهواء .

ولقد تعمدت الأسراع فى المرور من هذه الأراضى ، لأن أهلها كانوا قابلوا دولة الشريف بالسيف والنار ، فأردت من هذه السرعة أن أطمئنهم بأنى لا أقصد قتالهم ، فلما تأكدوا ذلك أمنت منهم على إمكان رجوعى من هنا بدون احتياج إلى استعمال السلاح ، وذلك مما سهل علي تنفيذ الخطة التى كنت أنويها للمستقبل .

لما نزلنا إلى صحراء « تنومة » جمعت فيها جنودى وأصدرت لهم أمرى بالاستراحة ، ثم صحبت المشايخ الذين معنا وتقدمت بهم إلى « سوق السبت » وكنت أعلم أن الشيخ شبيلى شيخ مشايخ سوق السبت من أشد أنصار الادريسى ميلاً إليه وتعضيداً له . حتى إنه كان على رأس جميع قبائله فى محاصرة أبها وقام بخدمات عظيمة للإدريسى . لذلك لم أكن أتوقع أن يستقبلنى فى منطقته بل كنت لا أستبعد أن يقابل جنودى بالسلاح . وان العيون التى كنت أبثها أمامنا جاءتنى بأخبار وافقت ما كنت أتوقعه من شيخ مشايخ سوق السبت قبل أن يحضر إليها جنودى . فلما أن صرنا على بضعة « كيلو مترات » من سوق السبت رأيت كل القرى التى مررت بها خالية من أهلها وفى ذلك علامة على عدم ولائهم لنا ، ولم يكن فيها غير بعض الشيوخ والعجزة . فترجلت عن جوادى واجتمعت بمن وجدته من هؤلاء فى القرى ، وقلت لهم : أنه ليس هناك ما يدعو إلى الحذر الذى ظهر من الأهالى . وأعطيتهم ورقة الوجه والأمان لكل الأهالى ومشايخهم وعقالهم المعتصمين بالجبال . وفضلا عن هذه الورقة العامة التى وجهت فيها الخطاب إلى الجميع كتبت رسالة خاصة إلى الشيخ شبيلى قلت له فيها : إننى سأنزل فى منزله بسوق السبت معتبرا نفسى ضيفا وصديقا ودعوته إلى مقابلة ضيفه واقترحت عليه أن ينصح للأهالى بالرجوع لأنه لا داعى إلى هذا الحذر واتخاذ الأهبة . وبعد كتابة الرسالة انتخبت بعض المشايخ الذين معى وأرسلتهم إلى القرى ليدعوا الناس إلى الطمأنينة ،وليعدوا للجنود أماكن لنزولهم . وقعدت أنتظر مدة ساعة ثم واصلت السير مقتفيا أثر المشايخ الذين أرسلتهم حتى

إذا بلغت سوق السبت دخلت منزل الشيخ شبيلى واعتبرت نفسى ضيفا فيه . وبعد بضع ساعات وصل جنودى إلى البلد بكل انتظام فوزعتهم على المنازل والأماكن التى أعدت لهم من قبل .

وانتظرت الى اليوم التالى فلم يحضر الشيخ شبيلى ولا خبر منه . فندبت حسن بك بن عايض للذهاب إليه . وابن عايض هذا هو من سلالة أمراء عسير وهو الآن وكيل المتصرفية وقد أصحبته بكتاب منى إلى شيخ مشايخ سوق السبت . وقد أثمرت المساعى فى هذه المرة بفضل الكتاب الثانى وبفضل المفاوضة الشفهية التى قام بها ابن عايض ، فحضر الشيخ شبيلى إلينا فى مساء اليوم التالى مواليا وأخذ الأهالى يعودون بعودته إلى منازلهم . وقد أطلقنا فى سوق السبت مدافع التحية من ثلاثة مواقع واحدا وعشرين مدفعا من كل موقع إعلاما للأهالى بوصولنا . وأرسلت نجاباً خاصاً إلى بلدة النماص قاعدة بنى شهر التى تبعد عن سوق السبت ثمانى ساعات إلى الشمال ومع النجاب كتاب إلى حاكم بنى شهر وهو الشيخ عبدالله ظافر باشا أعلمه فيه بمجيئى وأطلب إليه أن يعلن ذلك للأهالى والقبائل ، وإننى إنما حضرت لتآلف القلوب ، ولا أنوى قط الاعتداء على أحد . وإننى سأحضر إلى بنى شهر بعد بضعة أيام فينبغى أن تتخذ التدابير لنزول الجنود فيها .

وفى خلال ذلك حضر لنا البريد من الآستانة وفيه أمر من وزارة الحربية بضرورة الاستيلاء على محائل مرة أخرى وتأسيس خط تموين بين أبها والقنفذة ، وإنى متأكد من أن هذا الأمر مبنى على اقتراح شريف مكة وإلحاح القيادة العامة فى اليمن . وعلى ذلك كتبت إلى كل من وزارتى الحربية والداخلية الجواب الآتى :

إلى وزارتى الحربية والداخلية : **٢٣** يونيو سنة **١٩١٢** .

« لقد عرضت لكم أخيرا بالتفصيل إن الاستيلاء على محائل سهل وممكن فى كل وقت ، بالقوات الموجودة عندنا . غير أن من المستحيل البقاء فى محائل وتأسيس خط تموين مع المحافظة فى الوقت نفسه على القسم الجبلى من عسير .

ونحن لسنا الآن فى وقت صالح للمخابرة والمناقشة ، وأن المتطوعة والمشايخ الذين معنا أصبحوا فى يدنا فى مقام الرهائن لتأمين الحال وتأليف القلوب فضلا عن كونهم قوة لنا . وذلك خير الطرق وأسلمها عاقبة . ولو لم أقم بالحركة الأخيرة فإن القسم الجبلى الذى نحن فيه كان محكوما عليه بالسقوط والعياذ بالله . ومن الأوهام تخيل الاستفادة لنا من سواحل عسير ما دامت الحرب الايطالية قائمة . أما الجبل فهو الحاجز دون سراية الثورة من عسير إلى مكة ، وأن الجبل فى يدنا . وعلى ذلك فالرأى إبقاء بضع « أورط » نظامية فى القنفذة والاكتفاء بتقوية القسم الجبلى وتأمين المواصلات بينه وبين الحجاز من طريق البر . وكل من يدعى استحالة ذلك فهو كاذب وخائن للدولة . وها أنا ذا متقدم بعون الله تعالى إلى النماص قاعدة بنى شهر . وسأكتب إلى القنفذة بأن يرسلوا إلى أبها ما عندهم من نقود ومهمات حربية وغيرها بحراسة « أورطة » من الجند النظامى . وإنى سأبقى قوة من الجند فى النماص .

ونحن الآن ليس عندنا ولا مليم واحد ، وإنى لا أستطيع أن أعود إلى أبها بلا نقود . فإذا كانت الحجاز لا ترسل لنا نقودا إلى القنفذة ؛ أو إذا لم توافنا بذلك من طريق الجبل إلى النماص ، أو إذا خالفت القنفذة أوامرى ولم ترسل « الأورطة » إلى أبها ، فمن المحقق أننا سنجلو عن عسير ويرجع جنودنا جميعا من طريق الجبال إلى الحجاز وتخرج عسير من يد الدولة نهائيا . وحينئذ سنسمع مدافع الادريسى وهى تطلق على أبواب مكة .

« وإذا كان أمير مكة غير مقتدر على إرسال نقود إلينا سراً أو جهراً من طريق الجبال فلماذا لم يرسل لنا نقودا مع الأورط التى جاءت إلى القنفذة ، ولماذا لم ترسل لنا المعلومات عن مجيىء هذه «الأورط» لنستقبلها ؟ .

إن شئون عسير صار يتدخل فيها كل من شاء حتى أصبحت ألعوبة صبيان . والأخبار التى تنشر عن وقوع انتصارات فى « القوز » وغيرها كلها أكاذيب . فالثائرون الذين هاجموا القنفذة قد تفرقوا بوجه الصدفة بقوة الرديف

وقرعة سنة ١٣٢٣ اللتين ذهبتا إلى القنفذة متمردتين ، ومن ذلك اليوم انتقلت قوة الثائرين التى فى جوار القنفذة إلى أنحاء محـائل وجوار ألمع .

« والقوة التى يقودها الشريف فيصل بك فى القوز إذا كانت غير قادرة على ضرب رجال ألمع فلماذا هى قاعدة هناك ، ولماذا أصبحت قوتنا الجديدة التى هناك معطلة عن العمل كما هى الحال لسائر قواتنا ؟ .

« من الواجب فى الحالة الحاضرة أن نحافظ على القنفذة فقط ، وأما سائر القوة والمهمات الحربية فيجب أن تأتى كلها إلى « النماص » لأن المستقبل مظلم والنتيجة مشكوك فيها ، فلا مناص لنا من أن نجمع شملنا فى الجبل .

« إذا كان دولة أمير مكة يريد أن يساعدنا فى عسير وأن يقوم بخدمة للدولة فيجب أن يبذل كل ما فى وسعه لتنفيذ طلباتى . وأن لم يفعل فيجب عليه أن لا يفسد على ما عملته وما سأعمله .

« وإذا انتهت هذه الحركة بالنجاح - إن شاء الله - ووصلت إلينا الجنـود والنقود ، فإن سلطة الدولة فى عسير تبقى ونكون حائلين دون اتساع سلطـة الادريسى إلى الشمال « الحجاز » .

ومحاولة الاتفاق الآن مع الادريسى لا معنى لها غير توسيع دائرة الثورة إلى العراق وسوريا . فهى سم قاتل للدولة . وإذا كان هنالك ضرورة محتمة لتلافى الأمر فلا أقل من التزام خطة التريث مع موافاتى بالمعلومات عن ذلك ، وذلك ما أرجوه بكل اهتمام . وإنى أقول بدافع الغيرة والحمية ورعاية المصلحة العامة أن قبول مطالبى بحذافيرها يتوقف عليه درء نكبة عظيمة جداً تنتاب الدولة هنا فى هذا الوقت الذى تعانى فيه مشاكلها المهمة الحاضرة .

متصرف عسير وقائدها : سليمان شفيق

وإنما طلبت الابتعاد عن الاتفاق مع إلادريسى لأن هذا الاتفاق سيكون له أثر سىء فى نظر القبائل بعد أن أفهمناهم أن الادريسى إنما يقاتلنا بالاشتراك مع الايطاليين . فمصالحتنا له الآن تدعو الأهالى الذين على صلة بنا إلى الارتياب فى الخطة السياسية التى تتبعها الدولة .

وفى تلك الأثناء تلقيت بريدا من « أبها » وفيه كتاب من السيد الحسن بن يحيى القاسمى سيد بنى جماعة ، وهى إمامة صغيرة للزيدية فى اليمن واقعة فى أرض « باقم » من القسم الجبلى فى تلك البلاد بين صعدة شمالا والحرجة جنوبا والسيد الحسن يتلقب الهادى لدين الله وكان يزاحم الإمام يحيى على الإمامة ومما جاء فى كتابه : أن الضباط الذين هربوا من النظير قد وصلوا سالمين . وهو يبحث عن الحرب القائمة بينه وبين رجال إمام اليمن الامام يحيى بن محمد حميد الدين يطلب منى أن أساعده بإرسال رصاص بنادق « مارتين » له .

أما حماية الضباط الذين هربوا من النظير فهى أنه لما كان رجال الادريسى يحاصرون أبها كان لنا فى شعار « بلوك » من الجند ، وبعد مرور ستة أشهر على المحاصرة والثورة انتهت مؤونة هذا « البلوك » فاضطر إلى التسليم وكان مع البلوك مدفعان جبليان فكانا فى جملة ما وقع فى يد الادريسى يومئذ . وقد وزع الإدريسيون يومئذ جنود هذا البلوك على قرى تهامة وأطلقوا سراحهم أو جعلوهم متفرقين . أما جنود المدفعية والضباط فأخذوهم إلى صبيا ثم جيىء بالمدفعين وجنودهما الى معسكر الثائرين الذين يحاصرون أبها فجعل ذلك تحت أمر السيد مصطفى قائد المحاصرين . وكان بين الضباط الطبيب العسكرى وفيق أفندى وهو برتبة صاغ فاتخذه السيد الادريسى معلماً لإبنه وأمّا سائر الضباط فجيىء بهم الى بلدة « النظير » وجعلوا فيها تحت المراقبة .

وعند عودتى من الرحلة الأولى إلى قحطان فاوضت وأنا فى أبها الشيخ حسين بن هيف شيخ مشايخ جارمة خطاب مفاوضة سرية فى أمر تهريب ضباطنا الأسرى الموجودين فى النظير وبواسطته تخابرنا مع ابن دليم والسيد الحسن بن يحيى القاسمى سيد بنى جماعة ، وبذلك تمكنا من وسائل تهريب أولئك الضباط الأسرى. وبهذه الواسطة فرّ من هؤلاء الأسرى كل من اليوزباشى حسين أغا الكردى واليوزباشى الصيدلى رشدى أفندى والملازم محمد أفندى ، وكانوا عند فرارهم لابسين ملابس بدوية فوصلوا إلى أرض باقم ووادعة الحرجة وبنى طلق وعبيدة وبنى بشر حتى وصلوا إلى أبها سالمين . والفضل فى عودتهم يرجع إلى كل

من حسين بن حيف وابن دليم وسيد بنى جماعة وقد قدمت لهم الهدايا على ذلك .

وهذا كتاب سيد بنى جماعة :

من الهادى لدين الله الحسن بن يحيى إلى جناب صاحب المعالى والمفاخر والروض الملتف الزاهر متصرف وقومندان عسير سليمان شفيق بن على كمالى كفاه الله المهمات وهدانا وإياه إلى سبل الخيرات .

وبعد فقد صدرت الضباط فى حفظ الله وكلئه وأن الشيخ جابر يحيى مقيت قد اعتنى بشأن خروجهم وامتحن فى صدد هذه الأمنية فكافأوه بكرامه وقد عرفناكم فيما سلف من جهته .

وإن الحرب بيننا وبين أبى نَيْبَه « احد قواد جيش الامام يحيى » وأصحاب المتوكل « أى المتوكل على الله وهولقب الامام يحيى » ما زالت كائنة ، والمراماة والقتل فى الفريقين والحرب زبون فى أصحاب أبى نيبه . وأصحابنا من جماعة متقززون فى المراتب وهى ذات شدة إلا أن الله المعين . ولا يأتينا الكرب إلاّ من طول المدة لئلا يحصل الضجر لبنى جماعة ، ثم قلة الذخائر الحربية فإنها عندنا قليلة . ونحن لم نجد أمينا من طرفنا . فإذا عجلتم لنا إلى أم ليلى بذخائر رصاص من نوع « مارتينى » مع من تأمنون من التجار أو المشايخ يخرجها إلى من يوصلها إلى الشيخ جابر يحيى من « باقم » مع كتاب إليه فانه يوصلها إلينا وهو رجل من أصحابنا وإذا عجلتم بذلك فإن الحاجة إليه داعية . ونحن قد ذكرنا لكم فى كتابنا السابق مرامنا ، وأنتم من أهل الكمال والمعروف فانفعونا وأعينونا بما ذكرناه لكم فى الكتب السابقة قبل أن يضعف بنو جماعة ، وإذا رأيتم أن ترسلوا بكتابنا السابق إلى الباب العالى أو من تحته فعجلوا قبل أن تتساوى قوة الإمام وقوة السلطان الأعظم . فإن قوة الإمام ضعيفة وهو يريد المعالجة قبل أن يحاصر والعياذ بالله ، والسلطان قوى فإذا لم يقاتل فى هذا الشهر فإنه لن يكون أضعف فى الشهر الثانى أو فى السنة الثانية ، فلا تسووا بين القوتين . وانه يحصل التراخى عندنا ويلحقنا الضرر بعدم المعالجة . نعم وما عليك إلاّ جهدك والله مهيىء الأسباب ومسهلها وفاتح الأبواب .

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده :. وليس عليه أن تتم المطالب
فما عليك الا بذل الوسع :. وعلى لسان الضباط تمام التحقيق . وحسبنا الله ونعم الوكيل . وعليكم السلام والرحمة أولاً وآخراً .

حرر فى ١٨ المحرم سنة ١٣٣٠

وليكون ما جاء فى هذا الكتاب واضحا أريد أن أقول بضع كلمات :

لما عقد أحمد عزت باشا قائد القوات العمومية فى اليمن المحالفة مع الإمام يحيى كان مما تقرر فى المحافظة أن تكون للإمام جميع الأراضى التى يسكنها الزيديون ولما كانت أراضى بنى جماعة هى أيضا من بلاد الزيدية فإن الامام يحيى مد يده إليها أيضا . وأنا كنت فى ذلك الوقت قد لفت نظر الباب العالى الى هذه المسألة وقلت له : أن بنى جماعة يقطنون أرضا واقعة عند ملتقى أراضى السيد الادريسى والإمام يحيى وعسير ، وبما أن السيد الحسن سيد بنى جماعة هو عون للدولة ينبغى اتخاذ الذرائع لجعله خارجا عن نفوذ وسلطة الإمام يحيى ، وما دامت مسألة اليمن انحلت بهذا الشكل فينبغى التفكير فيما تكون عليه حالة سورية والعراق وأسلوب الإدارة فيهما لأنه سيكون مثالا سيئا لتلك البلاد منح الدولة امتيازا لكل من يثور عليها بالسلاح .

وإنما نشرت هذا الكتاب لأنه يمثل الحالة النفسية التى كانت عليهـا تلك الإمارة الصغيرة فى بنى جماعة ولا سيما لأن سيدها يزاحم الإمام يحيى فى ألقابه وإمارته على المؤمنين من الزيدية .

ولما كنت فى أبها قبل خروجى إلى هذه الرحلة الشمالية الأخيرة علمت أن دولة أمير مكة أرسل بعض رجاله إلى « بيشة » إحدى نواحى عسير الشمالية ليجمعوا الزكاة باسمه ولحسابه ، ولما كانت بيشة تابعة لمنطقة بنى شهر كتبت أمرا إلى عبدالله ظافر باشا حاكم هذه المنطقة قلت له فيه :

يجب أن تعلم شيوخ بيشة بأن من الواجب عليهم إرسال زكاة أموالهم إلى حكومة مركز بنى شهر وأنهم إذا لم يطيعوا هذا الأمر وأعطوا الـزكاة لرجـال الشريف فإنى سآتى لهم بنفسى وأحصل منهم الزكاة بيدى . فلما علم عبد الله

ابن سلطان أحد مشايخ بيشة بأني وصلت في هذه المدة إلى النماص ناجحا كتب رسالة إلى عبدالله ظافر باشا قال له فيها : إني مطيع للدولة . وقد أرسل لنا شريف مكة رجاله فأخذوا زكاة أموالنا إلى مكة . وقد عينني الشريف أميرا على بيشة بتذكرة مختومة بختمه ، وهي المرسلة لكم مع كتابي هذا . فلما وصلت الرسالة والتذكرة إلى عبدالله ظافر باشا أرسلهما إلي وفي الحال ، وهذا نص كتاب عبدالله بن سلطان حاكم بني شهر :

الحمد لله وحده ، من الشريف عبدالله بن سلطان قائمقام بيشة إلى عبدالله ابن ظافر وبعد : وصلنا نجابك تطلب زكاة بيشة ، وأنت قد عرفت أن بيشة للاشراف من تحت أمر سيد الجميع وقد صرت أنا في بيشة مأمورا من سيد الجميع على تحصيل الزكاة المحمدية والمظالم التي تخبرها ما عاد إن شاء الله أن تجيهم يكون لذلك معلوم ، وكذلك صدر لكم ورقة سيد الجميع ورسمه علما بأننا مأمورون في بيشة . **الختم**

وهذا نص كتاب مذكرة دولة الشريف بشأن تعيين عبدالله بن سلطان : إلى كافة من يراه من بيشة - وبعد تعلمون أنا قد عيّنا عليكم السيد عبدالله بن سلطان أميرا لينظر في مصالحكم وأشغالكم المختصة بالقبائل وبنا ، فيلزمكم عدم معارضته ، ومن حال دون واحد مطلوب فتراه خارج من الذمة والعقوبة في رأسه والحذر من الخلاف ولما ذكر تحرر في ١٢ شعبان سنة ١٣٢٩ .

أمير مكة الختم الحسين بن علي

ومما يدل على صفاء نية عبدالله بن سلطان شيخ مشايخ بيشة إرسال نفس الورقة التي عينه بها دولة الشريف أميرا على بيشة - أمّا أنا فقد عجبت من إقدام دولة الشريف على تعيين أمير ناحية هي من توابع أبها دون أن يكون لنا علم بذلك فكتبت في الحال « تلغرافا » بالحروف الرمزية إلى وزارة الداخلية هذا نصه :

إلى وزارة الداخلية الجليلة : إذا كانت المنطقة الشمالية من عسير قد ألحقت بإمارة مكة فالمرجو أن تصدروا لنا الأوامر وتعليمات الالحاق لأن دولة الشريف

أصدر أمرا بتعيين عبدالله بن سلطان أحد مشايخ بيشة أميرا عليها وأعلمه بأن الزكاة تجبى باسم إمارة مكة ، وإنى أعرض فيما يلى ترجمة المذكرة الصادرة من أمير مكة والمحفوظ أصلها عندى ، وأعرض أيضا خلاصة كتاب عبد الله بن سلطان ـ فإذا كان الأمر مما توافق عليه الدولة فذاك وإلاّ فإنى سأكسر الأصابع التى تندس فى عسير ، وإنى بانتظار أوامركم السريعة .

متصرف عسير وقائدها : سليمان شفيق كمالى

وبعد مدة طويلة جاءنى جواب على تلغراف من وزير الداخلية يومئذ وهو خليل بك الأزميرى وهذه ترجمته :

إلى متصرف عسير وقائدها : إن الدولة لم تعط شبرا من عسير لأحد ولا يمكن تفعل ذلك ، وإن خدماتكم العظيمة فى عسير تقدرها الدولة قدرها وإنى أشكركم عليها باسم الباب العالى ـ غير أن دولة الشريف وأنجاله والمنتسبين إليه تقدمت منهم خدمات فى رفع الحصار عن أبها فليس من اللائق استعمال العنف بحقهم .

وزير الداخلية ـ خليل

وقد ساءتنى هذه البرقية وأوقعتنى فى حيرة عظيمة لأن وزير الداخلية بعد أن قال بأن شبرا من أرض عسير لم يعط ولن يعطى لأحد يقول : أنه ليس من اللائق أن أعامل بالعنف أمير مكة الذى وضع يده على الأنحاء الشمالية من عسير بلا علم من الدولة ، فهاتان جملتان تناقض إحداهما الأخرى ، وذلك مما يحمل الموظفين على الوقوع فى الحيرة من عمل وزارة تصرح بذلك ، وعلى ذلك فإنى اتخذت من الجملة الأولى دستورا أعمل به فى عسير ، وكتبت كتابا إلى عبد الله بن سلطان قلت له فيه : إن دولة أمير مكة هو من موظفى الحكومة وأن بيشة مرتبطة بعسير ، وإن العمل سيجرى بذلك . ثم أرسلت هذه البرقية إلى الباب العالى :

إلى وزارة الداخلية الجليلة : إنى سأقوم بالعمل اللازم اتباعه بشأن بيشة استنادا على قولكم : إنه لم يعط شبر من عسير إلى احد ، وما هى قيمة المساعى

التى قام بها دولة أمير مكة إذا كانت مصروفة إلى اقتطاع عضو مهم من جسم الدولة وإنى ألتمس بصورة مخصوصة أن تجيبونى جوابا صريحا وقطعيا على مثل هذه المعروضات .

متصرف عسير وقائدها : سليمان شفيق كمالى

إن مدة الأربع سنوات والنصف التى أمضيتها فى عسير بين صنوف الرزايا والكوارث قد جعلتنى أمام مشكلات عظيمة بسبب الأجوبة المهمة التى كنت أتلقاها من مركز السلطنة وهى ناشئة فى الأكثر من عدم استطاعتى تفهيم الحقيقة فى المخابرات التى كانت تدور بينى وبين الباب العالى ، ومع أن محمود شوكت باشا وطلعت بك كانا يلتقيان معروضاتى بالقبول فإنهما غير واقفين تماما على حقيقة الحال والموقف ، لذلك لم يكونا يلبيان طلباتى فى أوقاتها وأدى ذلك إلى حدوث ثورات عسير واليمن ، وجهزت لقمع هذه الثورات الجيوش وصرفت عليها الملايين ولكن لأنها تستعمل فى وقت الحاجة إليها ، ولم توضع الأمور فى مواقعها فإننا لم نجن من وراء ذلك غير ضياع ألوف من الأنفس ؛ وأقول : إن العواقب الأليمة التى وصلت إليها الدولة العثمانية كان سببها التمسك الشديد بطريقة الحكم المركزى ، والاعراض عن طريقة الحكم اللا مركزى ، فلم تدرس الدولة يوما ما شيئا من أسباب وعوامل الثورات الداخلية ، ولا استعملت للداء دواء ، وكانت تعمد فى كل وقت إلى قمع كل حركة بالقوة القاهرة ، وإذا حدث حادث فى إحدى الولايات ووردت البلاغات به إلى العاصمة ، كانت العاصمة تماطل الأمر باستعلامات لا لزوم لها وتعرض عن آراء الموظفين المحليين ، وترسم من عندها الخطط المحكوم عليها بالغقم والمؤدية إلى الخسران فى أكثر الأحوال ، وأظهر الأمثال على ذلك ثورات اليمن التى كان سببها الحقيقى عدم اعتراف الدولة بإمامة اليمن على توهم أنها تمس بسلطة الحكومة .

إن سوق السبت من منازل « بنى ثيلة » أحد أفخاذ بلحارث وشيخ مشايخ بنى ثيلة هو شبيلى بن محمد الذى تقدم ذكره فى المقالة السابقة ، وهو رجل ذو شخصية بارزة متصف بالشجاعة والنشاط والمروءة ، وإنما سميت هذه البلدة

« سوق السبت » لأنه قام فيها فى كل يوم سبت سوق عظيمة تقصدها القبائل من جميع الأطراف لتبيع فيها ما تأتى به من نتاجها وتشترى ما يعرض فيها من الأقمشة والغاز والبنادق الحربية والرصاص .

وعقبة تنومة الواقعة على مسافة أربعة أكيال من سوق السبت إلى الجنوب الغربى هى أسهل العقبات للقادم من تهامة إلى جبال عسير ومن الممكن صعود البغال والأثقال إليها إلاّ العربات وأمثالها . وبسبب هذه العقبات كان لسوق السبت أهمية عسكرية - وإذا لم تكن قبيلة بلحارث وأهالى بنى شهر موالين للدولة لا يمكن اجتياز هذه العقبة .

ولما حضر دولة الشريف لرفع الحصار عن أبها صعد من هذه العقبة إلى صحراء تنومة وساعده على ذلك أهالى بنى شهر ، غير أنه لما اجتاز هذا الموضع إلى منطقة قبيلة « بلسمر » اضطر إلى الدخول فى معركة حربية عند « سدوان » ولم يستطع أن يأتى « المخريم » من غابات « خضرة » فقام بحركة التفاف من شرق الغابة ثم رأى عقبتى « العنقة » و « الجعد » فى أيدى الثوار وهما من أراضى قبيلة « بلحمر » فالتف من شرق هاتين « العقبتين » وحارب الثائرين بالجناح الأيسر من قوته وهدد ساقة الثوار فأدهشهم ، وذلك مما سهل عليه اجتياز هذه العقبات . وفى عقبات « الصباح » اصطدم مع الثائرين بحرب ذات أهميةاضطر فيها إلى إحراق القرى التى كانت على طريقه ، وبعد ذلك وصل قرى « عبل » وغيرها من أقصى حدود قبيلة « بلحمر » بلا حرب حتى إذا أراد الانحدار إلى ميدان « شعار » من مضيق « درجة » وهو ذو حزون صعبة لا تساعد على حركات الفرسان باشر حربا أخرى مهمة اصطدم فيها بقوة عظيمة من الثوار ، اشترك فيها الثائرون من قبائل الجبال وتهامة فانتصر عليهم ، ووصل بعد ذلك إلى « الملحه » من قرى بنى مالك وبينها وبين « أبها » خمس ساعات فقط ، ثم تقدم منها فى اليوم التالى بلا حرب فاستقبلناه بقواتنا واجتمع الفريقان : لو أن دولة الشريف لم يأت من هذا الطريق واختار التقدم من طريق « محائل » إلى « وادى تيه » صاعدا عقبة شعار لوجد نفسه أمام مصاعب عظيمة

ولا سيما فى « وادى تيه » بسبب مناعته وقلة المياه فيه ، ولعل جيشه كان يضمحل عن آخره فى ذلك الوادى فيستحيل عليه الوصول بعد ذلك إلى الجبال ، لذلك كان اختيار دولة الشريف لذلك الطريق مهما جدا من الوجهتين السياسية والعسكرية . أما أهميته العسكرية فهو أن عقبة « تنومة » تمتد مسافة ثمانى ساعات ولذلك فإن ميلها تدريجى فيسهل الصعود إليه والتخلص من حر « تهامة » وقلة المياه فى واديها ، وأن من أسباب التوفيق وصول الجنود بسرعة إلى اقليم معتدل الهواء كثير الماء يسهل الحصول فيه على احتياجاتهم الضرورية ، وأنا لما اختبرت هذه الحقيقة آثرت الاصرار على رفض الاقتراحات المتعمدة التى كانت تقترحها الحكومة على إنشاء خط تموين بين « القنفذة » و « محائل » ولما وصل دولة الشريف إلى رأس عقبة تنومة صار فى أماكن جبلية ترتفع عن سطح البحر بين ١٨٠٠ و ٢٠٠٠ متر وكسور . فمر من هذه الجبال على خط تقسيم المياه ، حتى وصل إلى أبها وقد قطع المسافة بين تنومة وأبها فى أربعة عشر يوما مع أنها مسافة أربعة أيام فقط فى حالة السلم لا الحرب ، وسبب ذلك أنه كان يسير وهو يحارب الثوار ، وقد درأ عن القوات التى معه كثيرا من مخاطر الهلكة ، والعادة فى تهامة أن القوة التى تسير فى الطريق إذا اضطرت للدخول فى حرب قبل الوصول الى مورد الماء فإنها إذا مضى عليها بضعة أيام وهى مقيمة فى مكان لا مورد فيه يكون ذلك فى الأكثر سبب هلاكها .

هذا من الوجهة العسكرية أما من الوجهة السياسية فإن دولة شريف مكة يمت بعلاقة المصاهرة إلى سعيد بك الفائز أحد رجال قبيلة العسابلة ومن أعيان بنى شهر ، وهذه المصاهرة أتته من جهة جدته ، وبالطبع أنها أفادته فى المساعدة المادية والأدبية من تلك الجهة ، وفى الحقيقة أن أهالى بنى شهر بادروا فى الحال إلى الاستيلاء على أعلى عقبة « تنومة » عندما كان دولة الشريف يجتاز من تحتها بالقوات التى معه وبذلك حال دون اعتصام بلحمر وبلسمر بهذه العقبة لمنع قوة الشريف من المرور فى سفوحها ولولا ذلك لما تيسر له المرور من هنا بلا قتال .

٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٤ ـ سليمان شفيق كمالى

فى ٣٠ يونيه سنة ١٩١٢ كتبت من سوق السبت إلى قائد حامية القنفذة وإلى الشريف فيصل بك بن أمير مكة وكان يومئذ فى القوز على مقربة من القنفذة كتابا لكل منهما أخبره فيه وصولى الى تنومة ، وإننى استلمت المشايخ الذين كانوا نافذين فالتحقوا بى ، وطلبت أن ترسل إلى القنفذة النقود المتراكمة هناك ، والملابس العسكرية وذخيرة المدافع وأن يكون مجىء ذلك إلينا تحت حماية أورطة من الجيش على جمال تهامة حتى عقبة سنان التى فى جوار نماص قاعدة بنى شهر .

وبعد أحد عشر يوما رحلت من تنومة فى الصباح فدخلت فى وادى عسير وهذا الوادى يمتد باعوجاج من الجنوب إلى الشمال وفيه مياه وزرع ، والجانب الشرقى منه يعلو مقدار مائتين أو ثلاثمائة مترا ارتفاعا شاقوليا تقريبا ، وأما الجانب الغربى فانه ذو ميل تقوم فيه الأشجار وفيه معدن الكبريت ومعدن النحاس ومن ورائه سلسلة جبال ذات ميل خفيف يبلغ ارتفاعها بين مائة متر وخمسين . ولما وصلنا إلى « عقبة القامة » فى نهاية هذا الوادى وجدنا أهالى بنى شهر محتفظين بالعقبة بناء على اشعار سابق منى إليهم .

وعقبة القامة يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة مترا وفيها طريق ذو التواء يصلح لمرور جميع أنواع الأثقال والأحمال فيه ، فتقدمت أنا فيه مع مشايخ القبائل فصعدنا إلى العقبة حيث وجدنا فى اعلاها عبدالله ظافر باشا قائمقام بنى شهر وأعيانها ومشايخها، ويوجد فى رأس العقبة قرية اسمها « البردة » فدخلناها ولبثنا فيها ننتظر وصول الجنود وما معهم من الأثقال . وبعد وصولهم تقدمت مع المشايخ وزعماء بنى شهر نحو بلدة النماص وهى على مسافة ثلاث ساعات من هذه العقبة ولما وصلنا إلى النماص لم أنزل فى الدار التى أعدها لنا عبدالله ظافر باشا بل نزلت فى منزل سعيد بك الفائز رغبة منى فى إدخال السرور عليه .

بلدة النماص تتألف من ثلاثمائة منزل وأما منزل آل الفائز فهو منزل فخم عظيم يتألف من عدة مبان كبيرة شامخة تصلح للحصار والدفاع ومبنية على رأس عقبة سنان التى تعلو عن سطح البحر ألفين ومائتى متر ، ونحو عشر قرى منتشرة

ومغمورة « ؟ » وهى على مسافة مائة وستين كيلو مترا من القنفـذة فى الشرق الشمالى ، وقد سميت سنان باسم سنان باشا ، والى اليمين عند افتتاحها وهى لطيفة الهواء وفى مكان متوسط من بلاد عسير ولجميع الأسباب المتقدمة تعد ذات اهمية كبرى من الوجهة العسكرية .

وجميع منازل «النماص» فخمة مبنية بالحجارة وهـى ذات طبقتـين أو ثلاث طبقات وجدران المنازل مطلية بالكلس « الجير » وأهاليها يمتازون عن غيرهم بلباسهم وعاداتهم بل بألوانهم وأسلوب معيشتهم . وأستطيع أن أقول أن أهالى بنى شهر أعرق أهالى عسير حضارة وتهذيبا .

والقبائل التى تحيط ببلدة نماص هى قبائل « العوامر » و « شهر سلامين » . وعقبة سـنان على طريق المسافر من بنى شهر إلى القنفذة ، وفيهـا صخـور الغرانيت على مسافة ثمانمائة وخمسين مترا من رأس العقبة إلى آخرها ، ولا يستطيع اجتيازها غير المشاة . وبعد الانتهاء منها تبدو قرية « الماشى » على مسافة أربع ساعات من العقبة ويأتى بعد هذه القرية « وادى خاط » ويلتقى به « وادى شرى » والمرحلة الواقعة عند ملتقى الواديين هى المرحلة الأولى وبعدها مرحلة أخرى فى تهامة عند وادى « يبا » بعد اجتياز« جبل ثريان » الذى يبلغ ارتفاعه الفى متر .

وليس على هذا الطريق قرى ، وانما يصادف الانسان فى الطريق قبائل بدوية تسكن الخيام . وبعد وادى « يبا » يأتى « سوق الجمعة » وهو المرحلة الثالثة وفيه مجمع القبائل كل يوم جمعة ، ومن سوق الجمعة تتغير الوجهة نحو الغرب الشمالى الى « بنى زيد » الواقعة فى شرق « القنفذة » وفيها آبار متعددة ، وعلى ذلك فالطريق بين بنى شهر و « القنفذة » أربعة أيام . وفى المرحلة الثالثة من النماص توجد المياه بكثرة فى وادى خاط ووادى « يبا » المؤديين إلى سوق الجمعة ، غير أن الصحراء التى بين سوق الجمعة وبنى زيد ليس فيها مياه ، وعلى ذلك فخير الطرق من الجبال إلى القنفذة هو طريق النماص .

وفى اليوم التالى لوصولى الى بنى شهر استدعيت أبا القاسم شيخ الاجاردة من بنى تيم وهو من أهل تهامة وطلبت إليه أن يعد لنا الجمال لنقل أشياء عليها من القنفذة ، وعينته مديرا على الأجاردة ، وانتخبت خمسين بغلا من بغالنا لركوب كتيبة عينت لقيادتها البكباشى حسين بك قائد الجندرمة وأرسلته مع أبى القاسم عن طريق عقبة سنان إلى القنفذة فوجدوا فيها سبعة آلاف وخمسمائة جنيه ذهبا ووجدوا فيها ملابس تكفى لثلاثة آلاف جندى وأدوية وعقاقير صيدلية وذخيرة لمدافع ، فأخذوا هذه الأشياء كلها وأخذوا « بلكا » من جنود المشاة التابعة للأورط الجبلية فأركبوا جنود البلوك على الجمال وعادوا هم على بغالهم بأمن وسلام حتى بلغوا قرية « الماشى » التى تحت عقبة سنان ، وهناك اعدنا جمال تهامة إلى مكانها وأخذنا من جمال البلاد الجبلية ما يكفى لنقل هذه الأشياء وأرسلناها عن طريق عقبة رشوان التى تستطيع الجمال المحملة أن تجتازها ومنها إلى عقبة المشهور ، وأما البغال والنقود فجئنا بها معنا عن طريق عقبة سنان ، ومن هذا العمل برهنت على صدق ما كنت أقوله من إمكان الاتصال مع القنفذة عن طريق النماص ، ولما نجحت فى ذلك بادرت فى الحال إلى كتابة رسائل إلى قيادة الحجاز وإلى وزارة الحربية قلت لهم فيها : أنه يكفى أن يرسلوا لنا النقود والمهمات الحربية إلى القنفذة بطريق الحجاز ونحن نأتى بها من طريق خاص إلى الجبال ، وبذلك لا حاجة لما كانوا يقترحون من إيجاد خط للتموين للجيش بين القنفذة والجبال عن طريق « محائل » وموقع النماص واقع عند منتصف الطريق بين أبها والحجاز والذين يسافرون من النماص إلى الحجاز يمرون بموقع « كفاف » وكفاف و « حلبة » و « بنى عمرو » و « بلقرن » و « شمران » و « خثعم » و « غامد » و « زهران » و « بنى مالك » و « ناصرة » ثم إلى قبائل بنى سعد و « الحارث » ومن هناك إلى الطائف ، وأمّا الطريق من النماص إلى الجنوب أى إلى أبها فيمر بالعوامر وبلحارث وبلسمر وبلحمر ، وبنى مالك وبنى مغيد ، وقد أزمعت فى نفسى أن أتخذ بنى شهر مركزا عسكريا بسبب أهميته التى ذكرتها ووجدت هناك مكانا كانوا يتخذونه فى الأزمان القديمة ثكنة للجند ولكنه الآن خرب فاتخذت

الوسائل لترميمه وتعميره وتذرعت لإنشاء مخافر على عقبة سنان وفى بعض الآكام جول النماص وكتبت رسالة إلى الشريف فيصل بك قلت له فيها : أنه لا فائدة فى الوقت الحاضر من إقامته فى القوز واقترحت عليه أن يترك « بلوك » الجندرمة من الهجانة الحجازية فى القنفذة لتأمين المواصلات بواسطته ، وأن يأتى بمن معه من العساكر المشاة إلى الجبال لنعمل معاً يداً واحدة ، فورد علي منه بالتركية جواب مطول سأنشر تعريبه فى المقال التالى :

* * *

رسالة الشريف فيصل بك

أشرت فى المقالة السابقة إلى الرسالة التى تلقيتها من الشريف فيصل بك « ملك العراق الآن » حينما كان فى القوز على مقربة من القنفذة وهى بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٩١٢ ، وهذا تعريبها :

ـ تلقيت بيد الاحترام والتكريم كتابكم المؤرخ فى ٢٢ نيسان سنة ١٣٢٨ ـ ٥ مايو سنة ١٩١٢ المؤشر عليه بأنه كتاب خاص وإنى أشكر لكم ما اعربتم عنه نحوى من المحبة والاخلاص فى النية .

لما علمت إمارة مكة المكرمة قيادة الحجاز أن الأشقياء والأيطاليين سيقومون بحركات مشتركة على القنفذة ، أبلغت ذلك الى وزارة الحربية وجعلت تحت قيادتى قوة لحماية القنفذة والدفاع عنها عند اللزوم ثم للاتحاد مع القوات النظامية متى ترد عن طريق الشام على عزم التقدم بها نحو الهدف المقصود بعد المداولة مع قيادتكم والاتفاق على خطة بشأن الحركات التى ينبغى القيام بها . وإنى أحمد الله تعالى على ما وفق إليه من دفع الأشقياء أولا إلى منطقة « القنع » ؟ على أثر الهمم المتوالية التى أبرزها كل من أورط الرديف والاستبدال القادمة من محائل والقوات العسكرية الموجودة فى القنفذة ، وثانيا فى المعارك الصغيرة المتعددة التى اشترك فيها داعيكم فى أنحاء « حلى » و« الكفيرة » و« العمق » و« البرق » فتشتت بذلك شمل الأشقياء وتطهرت منهم كل الجهات المذكورة . ورأى العاجز فيما يتعلق بالتدابير التى ينبغى أن نتخابر لتقريرها هو ما يأتى :

أن الأمر المعلوم الذى تفضلتم ببيانه هو أن الخائن الادريسى حصر آماله وبنى خطته على انتهاز فرصة الحرب الايطالية ليبسط سلطانه على جميع سواحل عسير

ويكون على صلة بالخارج حتى يعترف له العالم بكيانه ، فاذا احتل القنفذة تمكن من الزحف إلى الحجاز وعلى ذلك فإن من المستحيل أن أجلو عن موقع « القوز » لأهميتها العسكرية من جهة ولأنها ملتقى الطرق الآتية إلى القنفذة من محائل ومن الجهة الجنوبية ، وأن جلائى عن هذا الموقع مخالف للتعليمات التى تلقيناها فى مكة . أما القيام بحركات متقابلة مع دولة عزت باشا لانهاء مسألة «صبيا » فهو ليس بالأمر العسير كما تظنون بل يمكن بعون البارى وعنايته أن يتم هذا الأمر بقليل من الهمة ، وإذا تأخرت هذه الحركة الآن أو إذا لم تنته بالنجاح المأمول فإن من الضرورى جدا مهما كانت الحال فتح الطريق بين أبها والقنفذة ـ الذى يتم بالرجوع إلى احتلال محائل ـ لأن به تتعطل حركات الادريسى نحو الشمال وتعود المواصلات بين أبها و « القنفذة » و « جدة » .

أما مسألة تأمين المواصلات بين عسير والحجاز من طريق الجبال الذى يمر بأبها وتنومة وبنى شهر وشمران ، وبلحارث وغامد وزهران وبنى مالك فهو طريق غير صالح لسير القوافل وفضلا عن ذلك فإن القبائل التى تسكن تلك المناطق لم تكن لها علاقة قط بالحكومة منذ خمسة عشر عاما وما برحت فى حالة العصيان .

وأن حمل هذه القبائل على الرضوخ للطاعة تأمينا لذلك الطريق لا يكون إلاّ بعد زمن طويل واستخدام قوات عظيمة ـ زد على ذلك أن جمالة الحجاز عاجزة عن نقل الأثقال فى تلك الحزون الصعبة المسالك وكل ما يمكن لإمارة مكة وولاية الحجاز أن تفعلاه هو إيصال المئونة والمهمات إلى عقيق غامد فقط ، فتضطر حكومة عسير إلى تدبير الجمال من جهتها لنقل هذه الأشياء من عقيق غامد إلى أبها .

أنا على يقين من أن التدابير التى تقومون بها جنابكم فى شئون عسير تكون مصيبة كل الاصابة بالنظر إلى ما أنتم عليه من فرط الذكاء المسلم به والكفاءة المعلومة ، يضاف إلى ذلك تجارب أربع سنوات فى هذه البقاع ومع ذلك فإن لكل إنسان فكرا مستقلا واجتهادا ينفرد به . من هذا القبيل الآراء التى شعرت بالحاجة إلى بيانها آنفا ، ولا بد أنكم قدرتم درجة المخاطرة وعظيم المهالك التى

تحملناها فى إيصال المبالغ التى أرسلت فى الطريق الشرقى إلى أبها ، وأن الذى أخذ على عاتقه المسئولية بحذافيرها وأرسل ألوف الجنيهات إلى أبها فاجتازت قبائل مختلفة المشارب هو لم يفعل ذلك لغرض أو فى مقابل فائدة ، بل لمجرد الصداقة والاخلاص للدولة . وعمله هذا دليل على أنه لم يصغ بأذنه لى أى تسويل مبنى على الغرض ، وكان فى إمكان والدى أن يقتصر على الاشتغال بشئون الحجاز التى هو مسئول عنها ، ولكنه لحميته الدينية والعلمية نحو الاسلام والجامعة العثمانية مدّ يد المعونة لعسير .

وأى رجل من رجال الحكومة يأخذ على عاتقه عبئا ثقيلا كنقل عشرات الألوف من الجنيهات بين قبائل مختلفة ووحشة إلى محل يبعد مسيرة خمسة عشر يوما ، فأى ضمير شريف يقول بأن رجلا يقوم بهذه المهمة يكون فى قلبه حب الخصوم للأشخاص الذين يساعدهم ؟

تقولون أنكم تلقيتم من والدى جواباً قاسياً على كتاب أرسلتموه إليه وعلى ذلك قررتم قطع المخابرة معه . ومما يبعث على العجب والحيرة أن رجلا مثلكم من أصحاب الكمال يبدى رأياً يباين حقيقة الواقع .

يا حضرة الباشا : لو أن والدى يشعر نحوكم بالخصومة كما تقولون لكان ينبغى له أن لا يفكر فى بلاد ليست مسئولة منه ولا هى داخلة فى دائرة وظيفته ولا يتحمل المسئولية فى إسعافها بالأموال اللازمة لها ، وأن عمله هذا برهان على أنه يسعى لخدمة هذه المملكة ولو خدمة صغيرة غير ناظر إلى شىء من الأمور الشخصية وفى سبيل الحصول على هذه الأمنية لا يمكن لأسرتنا أن تنسى الوظيفة المقدسة لأجل خدمة آمال الآخرين وميولهم . وصفوة القول أننى أؤكد لكم بصورة قطعية أن والدى لم يكن فى وقت من الأوقات مستاء منكم .

وتقولون فى كتابكم الكريم : أن الحكومة أمرتكم بأن تعملوا بالاتفاق مع والدى ، وأن ضميركم يعترف بأن والدى لما كان فى أبها كان حريصا قبل كل شىء على العمل معكم باتفاق ، غير أن الاقتراحات التى كان يقترحها فى هذا

الباب كان الوهم يحملكم على تلقيها وكان ديدنكم دائما القول بأن القائد المستقل فى حكومتنا الدستورية لا يتنازل عن شرفه ومكانته .

وكنتم بقولكم هذا تناقضون ما تأمر به الحكومة المركزية من العمل باتفاق وكان ذلك سببا لتأخير حل مشاكل عسير سنة أخرى بعد أن كان ممكنا حلها فى السنة الماضية، فأدى هذا التأخير إلى تضحية عدد عظيم من أبناء الأمة العثمانية وخسارة مقادير كبيرة من المال ومواجهتنا للمشاكل العسكرية أن « الأورط » المنتظر مجيئها لم نعلم من أى فيلق هى ، وأنى أعرض ذلك ملتمسا قبول فائق احترام مولاى .

٤ مارس سنة ١٣٢٨ ـ نجل أمير مكة : فيصل

أن كتاب الشريف فيصل بك الذى نشرته فى المقال السابق يحتوى على بعض نقط جديرة بالتفسير والانتقاد .

تقدم منى إلى الشريف فيصل بك ـ قبل كتابه هذا ـ كتاب قلت له فيه : إن موقع « القوز » لم تبق له أى أهمية عسكرية أو سياسية فى الموقف الحاضر فينبغى المبادرة إلى الجلاء عنه فى الحال ، وأن يترك فى القنفذة بعض « الأورط » النظامية التى جاء بها من الحجازوبعض « الجندرمة » الحجازية الهجانة لتقوية ذلك الثغر ولتأمين الاتصال بينه وبين ثغر الليث ، وأن يحضر ببقية قوته إلى الجبال لنعمل معا ، وقلت له : وإن كانت الحكومة أمرتنى بأن أعمل يدا واحدة مع والده ، وذلك مما أرغب فيه أنا أيضا غير أن والده لا يمكن أن يتحول عن وجهة نظره فى أمر من الأمور ويريد دائما أن ينفذ رأيه دون رأى غيره . وهو يجيب فى كل حين جوابات معارضة لما أقترحه عليه وما أبلغه إياه لذلك اضطررت وأنا آسف إلى قطع المخابرة معه .

ثم ذكرت للشريف فيصل بك خطة عزت باشا فى الزحف على صبيا ـ كما أتيت على تفصيل ذلك فى مقال سابق ـ وقلت : إن هذه الخطة خيالية ولا يمكن تنفيذها بحال من الأحوال .

فالشريف فيصل بك أجابنى فى كتابه على هذه الأمور وقال عن القوز إنها ذات أهمية عسكرية وإن والده أمره بأن يعسكر فيها ، وانه مستقل فى حركاته وتابع لأمر والده . وبالرغم من بياناتى الفنية بشأن خطة قادة اليمن فى مهاجمة صبيا يقول الشريف فيصل بك : إنها يمكن تنفيذها مع أنه قد تبين فيما بعد لقيادة اليمن أنها لا تستطيع تنفيذ هذه الخطة فعدلت عنها .

والشريف فيصل يصف كيفية ارسال والده المرة بعد المرة ثلاثين ألف جنيه من مكة إلى أبها من طريق الجبال ، ويعد ذلك خدمة عظيمة ، ويقول لو أن والده مستاء منى لما كان يأخذ على عاتقه مسئولية كبيرة كهذه المسئولية ذاتها .

ثم قال فى خاتمة كتابه : لو أننى اتفقت مع والده فى أبها فى السنة الماضية لانحلّت مسألة عسير نهائيا .

غير أن الوهم والكبرياء حملانى يومئذ على سلب الثقة فكان ذلك سببا لتأخير هذا العمل سنة أخرى . وقد بينت فى مقال سابق أن موقع القوز على مسافة ثلاثين كيلو متراً من القنفذة إلى الجنوب الشرقى ، وليس فيه شىء من الثكنات أو القلاع أو المخافر أو غير ذلك من المبانى الواقية للجنود والصالحة للدفاع ، بل هو عبارة عن واد رملى فيه بضع آبار ذات ماء أجاج إلى جانب قرية فيها بضع مئات من بيوت العريش . ولّما كان الطريق بين محائل والقنفذة مقطوعا بسبب الحرب الايطالية وأسباب أخرى فإنه لا فائدة قط للاقامة فى ذلك الموقع .

بل هو مضر بسبب توزيع قوانا الموجودة فى تهامة فضلا عن المهالك الصحية التى يتعرض لها الجند ، ما دام معسكرا تحت الخيام . إذن فالشريف فيصل بك إنما كان يقصد من اقامته فى القوز أن يبقى على انفراد ، وأن يقوم بأعمال يتصرف فيها بارادته .

إن امتناع الشريف فيصل بك ومن معه عن تنفيذ أوامرى منتحلين الأسباب والمحاذير هو مما يؤدى إلى الاخلال بوحدة القيادة ، ومما يمنعنى عن الاشتراك فى العمل مع دولة أمير مكة . وأما قول الشريف فيصل بك : إن أباه لو كان مستاء منى لما أرسل النقود إلي ، فهو قول مستغرب لأن النقود لا تأتى لشخص بل

لإعانة جنود الدولة وهى محسوبة من خزينة الدولة وعلى فرض فقدانها فى الطريق فإن الأمير لا يكون مسئولا عن ذلك ، وهو على كل حال لم يقم بتضحية فى هذا السبيل ، على أنه هو الذى قال : أنه مقتدر على إيصالها وطلب أن يتولى هذا الأمر فلجأت الدولة إلى وساطته فليس له أن يمن علينا بشىء فى هذا الباب .

وحبذا لو أن الشريف لم يقل للدولة أنه مقتدر على تسوية أمور عسير . وحبذا لو أن الدولة لم توسطه فى هذه المسائل . وإرسال النقود خفية بين القبائل ليس بالأمر الشاق ، جربت أنا استجلاب خمسة آلاف جنيه من القنفذة على يد على ابن عامر أحد مشايخ القبائل ، فنجحت ولذلك كتبت إلى الأستانة وإلى دولة الشريف أقول لها : إذا كان يصعب إرسال النقود من طريق الجبل فأوصلوها إلى القنفذة بطريق الليث من الساحل ، ونحن نحضرها من القنفذة إلى أبها ، فكانوا يجيبوننى : بأنه ما لم يفتح الطريق بين القنفذة ومحائل لا يمكن إرسال النقود من طريق الساحل .

وأى فائدة من فتح طريق محائل إذا كان الاتصال صعباً من طريق الساحل إلى القنفذة ، إن الأسطول الايطالى لم يكن يستطيع الاقتراب من السواحل بسبب الشعاب الكثيرة هناك ، فلو أن الحجاز اتخذت التدابير اللازمة أو لو كان أمير مكة جادا فى مسألة عسير فإن النقود يمكن إرسالها من البحر فى السنابيك مع قوة تحافظ عليها .

ولكن أمير مكة كان راغبا فى منع كل وسائل القوة عنى لأعجز عن أداء مهمتى فيبعدنى عن عسير .

وإنه ما يبرح ساعيا لهذه الغاية حتى توفق فيها وتوصل إليها بما كان يكتبه إلى الباب العالى ومن ورائه عزت باشا القائد العام للقوات العثمانية فى اليمن يؤيد أقواله ويؤمن على آرائه .

إن الرحلة التى ذكرت وصف قيامى بها مع جنود ماراً بقبائل بلحمر وبلسمر إلى نماص قضت بأن اجتاز سلسلة الجبال التى تنقسم عليها المياه ، وهى تمتد من الجنوب إلى الشمال ، وترتفع عن سطح البحر بين ألفين وألفين وخمسمائة متر .

وكنت أرى بلدة محائل التهامية وأنا مطل عليها من أعالي الجبال . ولما وصلت إلى النماص تلقيت « تلغرافا » من وزير الحربية يقول فيه : إنه بناء على الاشعار الذى تلقاه من القياده العامة فى اليمن يبدى استغرابه من تقصيرى عن فتح طريق محائل والقنفذة ، واستمرارى على السير نحو الشمال الى النماص ماراً من جوار محائل دون أن أتعرض لاحتلالها ، فكتبت « تلغرافا » إلى الوزارة جوابا على « تلغرافها » ، ومما قلت فيه : نعم ، إننى - فى الحقيقة - مررت بجانب محائل وأنا أقوم برحلتى إلى الشمال ، ولكن محائل واقعة فى تهامة وأنا كنت أجتاز سلسلة الجبال من ذراها فالانحدار من هناك إلى محائل فى تهامة يحتاج إلى أيام، ويحتاج فوق ذلك إلى تضحيات كبيرة جدا . ولمّا كان دولة احمد عزت باشا القائد العام للقوات العثمانية فى اليمن لا يعرف الأحوال الجغرافية فى عسير ألقى نظرة فى الخريطة على المرتسم الأفقى لموقع محائل ، والطريق الذى مررت به ، فظن أن احتلال محائل خطة سهلة ، وليس العمل الـذى قمـت به هو المستغـرب بل المستغرب أن يبحث دولة عزت باشا فى أمور لا يعرفها ، وأن يتدخل فيما لا خبرة له به . إن فتح الطريق بين القنفذة ومحائل لا لزوم له قط إلاّ إذا انتهت الحرب الايطالية وإنى لا أستطيع أن أفتح هذا الطريق لأن فتحه يدعو إلى توزيع القوى التى تحت يدى ، وذلك إسراف مغبته غير حميدة . وإذا كان الغرض فتح الطريق بين القنفذة والجبال فإن ذلك حصل الآن بالفعل ، فقد وضعت جنودا فى نماص ، والطريق بين القنفذة النماص مسلوكة .

ولما وصلت إلى بنى شهر أرسلت إلى قيادة فرقة الحجـاز نجابـا مخصوصـا أخبرتهم معه بوصولى وبأن الاتصال تم بين الجبال والقنفذة ، وقلت : إنى فى حاجة إلى « فوبيات » لبطاريات المدافع الجبلية التى عندى ، وطلبت من قيادة الحجاز أن ترسل لي مقدارا من ذلك .

إن الطريق بين النماص ومكة يقطعه النجاب فى سبعة أيام جريا على الأقدام وقد عاد بعد خمسة عشرة يوما ومعه خمسون « فوبية » فى داخل علبة واحدة لأن النجاب خاف أن يفتشه رجال القبائل فى الطريق فيأخذوا ما معه و « الفوبية »

أداة إسطوانية صغيرة من النحاس ، طولها أربع سنتيمترات مملوءة بالبارود الأسود وفى رأسها « كبسول » يقدح ، وهى تستعمل عند إطلاق القنابل من المدافع والعلبة التى فيها خمسون « فوبية » لا يزيد حجمها على علبة السجائر فكتبت كتابا إلى منير باشا قائد فرقة الحجاز اعتب عليه ، ومما قلته له : إذا كان نجابنا امتنع عن أخذ أكثر من علبة واحدة ، فكان ينبغى لكم أن ترسلوا مائة نجاب ، مع كل نجاب علبة « فوبيات » وإذا اعطيتم للنجاب عددا كافيا فسلب منه فى الطريق فأى مضرة تترتب على ذلك ؟ .

إن المضرة الحقيقية تترتب على عدم وجود « فوبيات » فى يد المدفعى ، فيصبح المدفع أمامه أشبه بقطعة من الحديد . ثم قلت له : إن التهاون فى هذه الأمور لا يمكن أن يحمل إلاّ على عدم الحمية وفقد المروءة .

وكان منير باشا يومئذ قائدا لفرقة عسير ، ووكيلا لوالى الحجاز ، وكان يؤمل من دولة أمير مكة أن يتوسط له بجعله واليا لذلك كان يتهاون فى شئون عسير تقربا إلى الشريف ، وكنت أنا أرفع إلى الباب العالى كل ما يجرى من هذا القبيل لذلك تمكنت من منع وصول منير باشا إلى غرضه فخسر الولاية التى كان يرجو الحصول عليها .

* * *

قبائل يام

تقع بلاد « يام » على مسافة ١٨٠ كيلو مترا من « أبها » في الشرق الجنوبي ، وعلى مسافة ٧٠ كيلو مترا من « صعدة » في الشمال الشرقي ، وهي متاخمة لبلاد قحطان وتعد من المقاطعات المهمة في جزيرة العرب ، ومن اهم بلادهم بلدتا « نجران » و « بدر » وبلدة « نجران » (١) واقعة على وادى نجران الذى تنحدر إليه سيول بلاد قحطان وجبال نجران في الشرق .

وقبائل يام تدين بالمذهب الاسماعيلي وهو من المذاهب الباطنية ، وشيخ مشايخ هذه القبائل يسمى « هبة الله » وهو ذو شخصية مهمة ، ويجمع بين رئاسة قبائل يام الادارية ورئاستهم الدينية . ومن الاسماعيلية الباطنية قبائل في مقاطعة « حراز » وفي مقاطعة « مناخة » من بلاد اليمن ، وله فيهما أملاك ونفوذ ، ويسمى رؤساؤهم باسم « الداعي » ، وهم على طرفى نقيض مع الزيدية . أما « مناخة » فهى متوسطة على الطريق بين الحديدة وصنعاء في الشرق ، وللدعاة منازل ضخمة البناء ذات طبقات متعددة مقامة في مواضع منيعة ، وعليها أبراج متينة للدفاع عنها . والباطنية في جبل حراز يملكون ثروة طائلة وأملاكا كثيرة ، ولهم السلطة التامة على ذلك الموضع من الطريق بين صنعاء والحديدة ، والدعاة الذين في اليمن يتبعون مشيخة يام في عسير ويأتون بربع أموالهم إلى الشيخ هبة الله . وعلى هذا فإن قبائل يام تنظر بعين الأهمية للحاكم في جبل حراز ، وتلين له جانبها حرصا على ما لها هنالك من المنافع .

---

(١) راجع ما أوردناه عن نجران في كتابنا تاريخ المخلاف السليماني جـ ٢ ص ١١١١ الطبعة الثانية .

ولما كان فى مقاطعة « بلو جستان » من بلاد الهند مقدار كبير من النابعين لمذهب الإسماعيلية الباطنى ، فإن مشيخة يام والدعاة التابعين لها يكونون دائما على صلة بأبناء مذهبهم الذين فى بلوجستان .

وقد حاول السيد الادريسى مرة أن يتفق مع قبائل يام على الدولة العثمانية فلم يوافقه هؤلاء على ذلك ، خوفا على المصالح التى لهم فى جبل حراز .

ومن رؤساء قبائل يام المعروفين الشيخ سلطان بن منيف زعيم قبيلة جشم والشيخ حمد بن حسين بن مانع بن جابر زعيم قبيلة آل فاطمة ، والشيخ حسين ابن نصيب زعيم قبيلة المواجد . ولقبيلة جشم من القرى الخاضعة لسلطان ابن منيف القرى الآتية :

آل خميس ، آل سليمان ، رجلان ، آل قابل ، آل بلحارث ، آل حسن ، آل حربته « ؟ » ، آل قصور ، بنو سلمان ، آل مستنير ، آل بلغربان ، آل حثيلة ، آل صعب ، وفى هذه القرى من السكان أربعون ألف نسمة ، وفيهم من المقاتلين ثلاثة آلاف مقاتل .

ولقبيلة المواجد من القرى الخاضعة لحمد بن مانع بن جابر القرى الآتية :

آل نصيب ، آل قنف ، آل مراطة ، أهل موبسطة ، ذو أهل حارث ، ذو شقمة ، ذو وادعة ، ابن الزين ، سلوة « وهى مهمة لأن فيها ضريحا يزار » شعب آل رداق « ؟ » ، وفى هذه القرى من السكان نحو عشرين ألف نسمة وفيهم من المقاتلين نحو ألفى مقاتل .

ولقبيلة آل فاطمة من القرى الخاضعة للشيخ حسين بن جابر نصيب القرى الآتية : آل سالم ، بدر ، المطلق ، آل القرن ، أهل حالق ، الجفة ، هدادة حبرة ، آل صينع ، صاغر ، أو عبار عكام ، العوكلة ، آل منجم ، آل جيبان أفهاد . وفى هذه القرى من النفوس نحو ٢٥ ألفا وفيهم من المقاتلين نحو ١٥٠٠ مقاتل .

* * *

حاشية

حاشية على صفحة ٧٥

(١) جاء فى كتاب الرحلة اليمانية ص ٢٥ وما بعدها تأليف « شرف عبد المحسن البركاتى » ما نورد ملخصاً حول تلك الحملة التى قامت بمهمة فك حصار أبها .

قال بعد أن جاء على وصف رحلة الحملة منذ خروجها من مكة الى أن وصلت « القنفذة » فى يوم الخميس الموافق ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٢٩ هـ « ونحن مقيمون فى أم الجرم » على مسافة ساعة من القنفذة حضر الشيخ حسن شيخ مشايخ قبائل بنى « زيد » وطلب مقابلة الأمير الشريف الحسين بن على فلما قابله قدم الطاعة وطلب الأذن لهم بالتوجه الى « حلى » ويبه و « قوز أبى ألعير » لنصيحة « بن خرشان » ـ هكذا ـ والمسافة بين المكان المعسكر به والقرية التى يقيم بها « محمد بن خرشان » عشرون كيلاً ، وعند مقابلتهم له والتفاهم معه أجاب بالرفض ، وأن الجيش مكث شهرا منتظر حصول الصلح فلم يفد ذلك شيئا » .

« وفى ليلة الثلاثاء الموافق ١٠ منه قامت سرية للمرة الثانية وقوامها ثلاثمائة فارس وألف هجان فصبحت القرية التى يقيم بها « ابن خرشان » ففر هارباً الى صبيا ـ هكذا ـ استمر القتال ثلاثة ساعات ثم انهزم الأعداء وأخذ يعدد القتلى والغنائم » .

« وفى ليلة الأربعاء ١٨ منه قامت سرية ثالثة قاصدة وادى « يبه » لاخضاع القبائل الموجودة تحت قيادة « محمد بن خرشان » وعندما أقبلوا على وادى عجلان ويبعد شمالا عن وادى يبه ». بمسافة ساعة تقابل الجيشان وابتدأ القتال بينهما صباح يوم الخميس التاسع عشر منه واستمر اربع ساعات وبلغت خسائرنا ثلاثة من العرب وخمسة وعشرون من الاتراك وخسائر الجانب الآخر خمسة وسبعون قتيلا وخمسون جزيحاً » .

« وفى يوم الاثنين[1] ٣٠ منه صدر الأمر لعموم الجيش البالغ عدده ألفان وخمسمائة من العرب وألفان وسبعمائة من الجيش النظامى التركى .. ومعهم ثمانية مدافع جبلية ، ومدفعان متروليوز ونزل ليلة الثلاثاء غرة جمادى الآخرة على .... « أم الدبا » وقضى وقت القيلولة هناك وفى آخر اليوم بث عيونه للاستطلاع فخبروه أن القوم منتشر من اعلا الوادى الى أسفله وأن عددهم عشرة آلاف مقاتل وقد اتخذوا مواقعهم بين اشجار الأثل والمرخ والسمر فأمر المدافع باطلاق النيران فاضطروا الى ترك استحكاماتهم منسحبين الى وادى يبه ، فاقتفى أثرهم ◄

---

(١) وجاء فى مصدر أخر تفصيل لهذه الواقعة الفاصلة أدق وأوفى مما ورد فى الرحلة اليمانية وذلك فى مذكرات شخصية عربية كبيرة شاركت فى حملة امير مكة[1] .

قال « وصلنا القنفذة فى جمارة القيظ وليس بها من عربان البلاد المجاورة احد سوى أهلها ، وكان فى الصحبة ثلاثة طوابير نظامية عددها ثلاثة آلاف جندى ، وبعد اخذ الأهبة كانت الحركة نحو « قوزابى العير » وكان فيه قائد للادريسى اسمه « ابن خرشان » ومعه عشائر « تهامة » وكان معنا مائتا فارس وألف هجان مع الثلاثة الطوابير والمدفعية ، فلم تتمكن القوة التركية النظامية من قطع المسافة فى الوقت المناسب ، الا بعد تأخر تسع ساعات فوصلنا الى نقطة بساحل البحر جنوب القنفذة بها ماء اسمه « أم الدبا » .

وبعد استراحة ثلاثة ساعات تحرك الجيش فأدركنا الزوال ونحن على طرف صلب من رمل دمث والبحر بالناحية الغربية وأمامنا وادى « يبه » الكثير الحراج ، والجيش يسير يتقدمه الطابور الأول ثم الثانى ثم الأثقال ثم الطابور الثالث ، وعلى الجناح الأيسر القوى العربية ، فوافتنا قوة الاستطلاع مخبرة بأن الحراج محشوة بالرجال ، ثم عادت المقدمة من الهجانة منهزمة الى ناحية البحر ، واذا بجحيم من النار تطلق فجأة من تلك الحراج ، فالتحمنا معهم وتوغلنا ، فقابلونا بهجوم مضاد سريع فارتدت القوة المعاونة لا تلو على شيء ، ثم أذا بنا نضرب من الميسرة ضرباً مروعاً ، وبعد ثلاثة أرباع الساعة كان الموقف فى غاية الحرج فثبتنا بغية تخليص القوة العثمانية من موقفها القتالى وكانت النتيجة انه لم يسلم من الثلاثة الطوابير الا سبعـون ◄

◀ الفرسان والهجانة فصاروا تارة ينهزمون وتارة يقاتلون الى نصف الليل حتى وصلوا « يبه » ومعهم قائدهم محمد بن خرشان واتخذوا خطوطا جديدة فيه فى غابة من الأثل والأراك ، وبعد صلاة الفجر أمر الجيش بالزحف على « يبه » « وقرى أبى العير » الساعة الثانية « غروبى » من صباح يوم الأربعاء الموافق ٢ جمادى الأولى وأخذت المدافع فى صب نيرانها على مكامن القوم ثم هجم فى المقدمة اربعمائة فارس واقتفاهم المشاة والتحم القتال بالسلاح الأبيض وفى الساعة العاشرة انهزم العدو الى وادى حلى بعد أن خسر ستمائة قتيل » .

«واستولينا على الوادى من اعلاه الى أسفله ونزل الجيش فى قرية « المزاريق » إلى أن قال ما ملخصه « وفى ليلة الجمعة ٤ جمادى الآخرة سرنا من أسفل وادى يبه الى اعلاه ونزلنا فى « قوز ابى العير » وفى يوم السبت ٥ منه وصل من « الاستانة » نشأت باشا بصفته قائدا عاماً لجميع العساكر النظامية ، وكان جل مقصد امير مكة فك حصار « أبها » بسرعة زائدة خوفا من سقوطها فى يد جيش الادريسى لطول زمن الحصار ، لذلك لم يتوجه بالجيش الى صبيا التى كان مقيما بها الادريسى والتى تبعد عن « قوزابى العير » سبع مراحل ، وكان المكلف بضربها « محمد على باشا » والى اليمن المقيم بجيشه فى جيزان ، وأسباب عدم تقدمه نجهلها » واتماماً للفائدة نحيل القارىء الكريم عن تفاصيل حملة محمد على باشا فى كتاب المخلاف السليمانى ج ـ ٢ ص ٧٢٠ .

« سرنا يوم الاثنين ٧ جمادى الآخرة وكان عدد الجند التركى النظامى أربعة آلاف وثمانمائة والفرسان والهجانة من العرب « ٢٥٠٠ » وفى ١٠ منه وصلت باخرتان حربيتان عثمانيتان فصدر الأمر لهما بضرب موانى « الْوَسْم » و « البرك » و « الشقيق » مصدر تموين الادريسى »

وادى مشرف

« وبينما نحن سائرون ـ فى وادى مشرف شعرنا أن القوم كامنون لنا فى المضيق المسمى « ربع الحجاية » فأمرنا بالهجوم ودام القتال ساعتين حتى تمكنا من شق طريقنا » .

وقعة « سهول »

« فى صباح يوم الخميس الموافق ٢٥ منه سرنا الى الساعة الحادية عشر « غروبى » فعادت الطلائع مخبرة ◀

◀ جندى ، فانسحبنا بعد ان قتل « بن خيرة » قائد الميمنة للقوة الآدريسية ، وعدنا الى « القنفذة » فى اليوم الثانى بخسارة « عظيمة » ولو كر ليلتها أو الليلة الثانية لقضوا على جميعنا ، ولكن خسائرهم كانت أفدح .

وبعد خمسة عشر يوما تكررت الحملة بقوات جديدة وصلتنا ، فتوجهنا من القنفذة صباحاً فوصلنا « أم الدبا » ظهرا ، وكانت القوة التركية ثلاثة طوابير نظامية يتألف كل طابور من ثمانمائة وخمسين جنديا بقيادة « زكى بك » . وثلاثة طوابير رديف بقيادة « اسماعيل بك » وعددها ألف ومائتا جندى ، وطابور آخر اسمه طابور اليمن بقيادة « ضياء الدين بك » أما القوة المعاونة فكانت هى نفسها ، خيالتها وهجانتها ولما وصلنا الى محل المعركة الأولى ، كانت الساعة الحادية عشر غروبية ، فوجدنا قوة الادريسى فى الحراج نفسها فقابلونا بنار حامية ، فتقدمنا تحت وابل من الرصاص ، ثم حملوا علينا حملة صادقة استمرت ثلث ساعة فقوبلوا بجحيم من النيران فتراجعوا وحولوا هجومهم على الميمنة التى بعد لئى تمكنت من إيقاف هجومهم فحولوا هجومهم على طابور اليمين فأمد من الاحتياطى العام فأوقفوا ، وكانت ليلة ليلاء حتى الصباح ولم نذق تلك الليلة النوم الا غراراً .

ولما أصبح الصباح ظلت كل فئة فى محلها نحن وهم ثم ابتدأت المدفعية تصلى الحرجة ناراً حامية فتمسح مواقعهم مسحاً واذا بمسيرتهم تحت قيادة الشيخ بيطرى تتقدم على اعلامها لما خرجت فى أرض صحصح ◀

◀ أن القوم عندما هزموا فى « ريع الحجاية » جمعوا أنفسهم وتقدموا وكمنوا لنا فى مكان يسمى « سهول » وان عددهم ينوف عن سبعة آلاف مقاتل فاشتبكنا معهم فى قتال مرير حتى جلوناهم عن مكامنهم ثم تقدمنا الى وادى « بارق » وفى يوم الأحد الموافق ٢٨ منه سار الجيش من وادى « بارق » وسرنا منه الى أن وصلنا وادى « بقرة » ومنه الى « عقبة ساقين » التى بلغنا سطحها الساعة الثالثة من ليلة الاربعاء ٢ رجب ومكثنا هناك حتى توافى جميع الجيش ووصلت الاثقال ثم سرنا وفى يوم ٧ منه وصلنا وادى « تنومة » وفى يوم ٨ منه عادت الطليعة مخبرة أن القوم كامنون لنا فى عقبة « دهما » تحت قيادة شيخ قحطان محمد بن دليم فهاجمناهم ودام القتال اربع ساعات حتى دحرناهم عن عقبتى « دهما » وسدوا ثم نزلنا فى وادى « حوراء » فأقبل علينا قبائل بـ « الأسمر » طائعين ومنه رحلنا يوم السبت ١٢ منه الى بلاد « بلحمر » .

« عقبة بيحان »

« فاكتشفت طليعتنا أن القوم كامنون لنا فى عقبة « بيحان » تحت قيادة « بن دليم » فى يوم الاثنين ١٤ منه اشتبكنا معهم فى قتال دام عشر ساعات وانتهى بهزيمتهم » .

« وقعة عقبة صبح »

« فى صباح يوم الخميس ١٧ رجب ١٣٢٩ سرنا نحو العقبة المذكورة كما أقبل عليها أوائل جيشنا أطلق القوم عليهم النار فاشتبك القتال ساعتين ووالينا سيرنا الى وادى « تمبل » وهو الحد الفاصل بين ديار «بلحمر » وديار « عسير » .

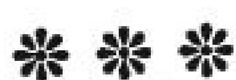
« وقعة عقبة الدرجة »

« فى يوم الجمعة الموافق ١٨ منه سار الجيش الى « شعار » فاخبرتنا الطليعة بأن القوم كامنون بعقبة يقال لها « عقبة الدرجة » تحت اربعة اعلام مع كل علم الفان وخمسمائة مقاتل وعلى كل منهم قائدهم « عبد الرحمن بن ظافر ومحمد دليم » و « الفوية » شيخ شهران وشيخ من شيوخ رجال المع فاشتبكنا معهم حتى جلوناهم عن العقبة ، ولما وصل الخبر الى مصطفى عامل الادريسى المحاصر لأبها انسحب من جبل عسير الى تهامة وولينا السير الى أن وصلنا أبها يوم السبت الموافق ١٩ رجب سنة ١٣٢٩ وفى يوم ٤ شعبان توجه أمير مكة من أبها عائدا الى الحجاز بطريق بيشة » .

◀ باغتناها بهجوم الخيل من ناحية البحر ثم اصلتها المدفعية ناراً حامية فاهتزت يمنه ويسرة كشجرة فى مهب الريح ثم انهزمت ، وتقدم وراءهم « لثى ، زكى بك » فلما وصلنا الحرجة لم يرعنا إلاّ هجومهم وليس عليهم من الثياب إلا المأزر متمنطقين عليها بأحزمة الفشك ، وفى اوسطهم الخناجر فقابلونا بطلقة او طلقتين من كل واحد منهم ثم حملوا علينا بالسلاح الأبيض فاصلتهم قواتنا بنيرانها فوقع الكثير وهزم من بقى ، إلاّ أن ميمنتهم وقلبهم أحدث فجوات بين ميمنتنا والقلب والميسرة ولما خرجنا الى ارض جرداء تبينت لنا منها « الكعدبة » وبها القائد العام وإذا المدافع تضرب بالقذائف الخاصة للرمى من قرب ولمّا برزنا وعلم القيادةّ معنا ورأوا الهجانة تركوا « نظيف بك » وحملوا علينا فكانت ملحمة من أفظع ما رأيت وبينا نحن فى تلك الساعة الكربة . واذا بحملة الأثقال ومعها طابور اليمن يتصلون بنا فتقدم ذلك الطابور الشجاع وانتشر حتى كانت اقسامه اليمنى متصلة بنظيف بك على « الكعدية » فصيح بالهجوم فنهضنا من مكامننا فكانت هزيمتهم، وعند العصر كنا بقوز أبى العير .

وقبيل المغرب جاء التقرير الطبى الى مقر القيادة بأن الوفيات فى الجيش بلغت مائتين وثمانين وأن الوباء وباء الكوليرا وفى اليوم الثالث نزلت الى ثلاثمائة ، وأصبحت القوة المسلحة التركية ألفاً وسبعمائة جندى من أصل سبعة آلاف فصدر الأمر بالتحرك الى أبها » .. الخ .

الفهرس



اصدارات نادى أبها الأدبى

اسم الكتاب	اسم المؤلف	سنة الاصدار
١ ـ حفل افتتاح النادى	ادارة النادى	١٤٠٠هـ
٢ ـ أزاهير من ربوع عسير	مختارات من المسابقة الثقافية الأولى	١٤٠٠هـ
٣ ـ جناية الشعر الحر	احمد فرح عقيلان	١٤٠٣هـ
٤ ـ شعاع الراحلين ـ شعر تراثى	عبد الرحمن الحفظى	١٤٠٣هـ
٥ ـ فلتشرق من جديد ـ قصة ـ	طاهر عوض سلام	١٤٠٣هـ
٦ ـ باقة البنفسج ـ شعر ـ	د . عبد الهادى حرب	١٤٠٣هـ
٧ ـ وحى وقلب والحان ـ شعر ـ	عبد السلام هاشم حافظ	١٤٠٣هـ
٨ ـ أبها فى التاريخ والأدب	على احمد عمر عسيرى	١٤٠٣هـ
٩ ـ الحديث النبوى فى النحو العربى	د . محمود يوسف فجال	١٤٠٤هـ
١٠ ـ قصائد من الجبل ـ شعر ـ	مجموعة من شعراء أبها	١٤٠٤هـ
١١ ـ شهادة للبيع ـ قصص ـ	محمد عبد الله الحميد	١٤٠٤هـ
١٢ ـ سوق عكاظ فى التاريخ	محمد أحمد العقيلى	١٤٠٤هـ
١٣ ـ حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب	محمد أحمد العقيلى	١٤٠٤ هـ
١٤ ـ لحظة يا حلم ـ شعر ـ	محمد عبد الرحمن الحفيظى	١٤٠٤ هـ
١٥ ـ نزيف المشاعر ـ شعر ـ	أحمد عبد الله بيهان	١٤٠٤ هـ
١٦ ـ زمن العشق الصاخب ـ مجموعة قصصية	حسن محمد النعمى	١٤٠٤ هـ

تابع ـ اصدارات نادى أبها الأدبى

سلسلة ألوان ثقافية

اسم الكتاب	اسم المؤلف	سنة الاصدار
١ ـ النحو قانون اللغة وميزان تقويمها	د . محمود يوسف فجال	١٤٠٢هـ
٢ ـ ابن هشام وكتابه مغنى اللبيب	د . عبد الرحمن على سليمان	١٤٠٢هـ
٣ ـ صحيفة بشر بن المعتمر	د . على على صبح	١٤٠٢هـ
٤ ـ وصف الحيوان فى الشعر الهذلى	د . اسماعيل داود النتشه	١٤٠٢هـ
٥ ـ لمحات من تاريخ عسير القديم	د . سيد احمد يونس	١٤٠٢هـ
٦ ـ النبات فى عسير	محمد حسن غريب الألمعى	١٤٠٣هـ
٧ ـ الادارة والمواطن	محمد عبد الرحمن السدحان	١٤٠٣هـ
٨ ـ الادب العالمى والعالمية فى الأدب	علوى طه الصافى	١٤٠٣هـ
٩ ـ دراسات فى المسرح	ابراهيم ابو عجميه	١٤٠٤هـ
١٠ ـ الطب النبوى والطب القديم	د . بشير حقى	١٤٠٤هـ
١١ ـ التبرج والحجاب فى ضوء الكتاب والسنة	زهرة الالمعى	١٤٠٤هـ
١٢ ـ قراءات فى شعر المرحوم الشيخ سليمان بن سحمان	د . ابراهيم الزيد	١٤٠٤هـ
١٣ ـ الجاحظ بين مؤلفاته	سلمان عابد الندوى	١٤٠٤هـ
١٤ ـ آراء فى السحر	احمد ثابت عسيرى	١٤٠٤هـ



المؤلف

من الرواد السعوديين الذين كرموا فى مؤتمر الأدباء السعوديين بمكة بالميدالية الذهبية من جامعة الملك عبدالعزيز بتاريخ ١٣٩٤/٣/٥هـ .

حاضر فى كل من جامعة الملك سعود ، وجامعة الامام محمد بن سعود ، وجامعة الملك عبدالعزيز وضمها كتابه « محاضرات فى الجامعات والمؤتمرات السعودية » .

وقد زود المكتبة العربية السعودية بعدد من المؤلفات منها :

- كتاب المخلاف السليمانى (الجزء الأول) طبع للمرة الثانية
- كتاب المخلاف السليمانى (الجزء الثانى) طبع للمرة الثانية
- كتاب عن الشاعر بن هتيمل ـ القرن السابع
- كتاب عن الشاعرين السلطانين ـ طبع للمرة الثانية
- كتاب عن الشاعر الجراح بن شاجر
- كتاب التصوف فى تهامة ـ طبع للمرة الثانية
- كتاب الأنغام المضيئة
- كتاب الأدب الشعبى فى الجنوب (الجزء الأول)
- كتاب المعجم الجغرافى لمنطقة جازان (الجزء الثانى)
- كتاب أضواء على الأدب والأدباء بمنطقة جازان
- كتاب محاضرات فى الجامعات والمؤتمرات السعودية .
- كتاب الآثار التاريخية لمنطقة جازان
- كتاب نفح العود فى سيرة الأمير حمود تحقيق وتعليق
- كتاب أفاويق الغمام
- كتاب معجم اللهجات المحلية لمنطقة جازان
- كتاب حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وآثاره العلمية .
- كتاب نجران فى أطوار التاريخ .



ـ طبعت بمطابع دار البلاد ـ جدة